4104

فهرس الكتاب

الحمد لله ذكر ترجمة المولف هو السلطان ابو حمو موسى بن يوسف احد ملوك بني زيان بمدينة تلمسان وكان رحمه الله يحتفل ليلة مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم غاية الاحتفال بما هو فوق مواسم العام على ما هو منقول من راح الارواح ومن نظم الدر والعقيان فيقيم مدعاة يحشر لها الناس عامة وخاصة فما شئت من نمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة وبسط موشاة ووسايد بالذهب مغشاة وشمع كالاصطوانات وموايد كالهالات ومباخر صفر منصوبة كالقباب يخالها المبصر من تبر ويفاض على الجميع انواع الاطعمة كانها ازهار الربيع المنمنمة تشتهيها الانفس وتستلذها الاعين وبعقب ذلك يحتفل المسمعون بامداح المصطفى عليه الصلاة والسلام وبقرب السلطان خزانة المنجانة قد زخرفت كانها حلة يمانية لها ابواب مجوفة على عدد ساعات الليل الزمانية فمهما مضت ساعة وقع النقر بقدر حسابها وفتح عند ذلك باب من ابوابها وبرزت منه جارية صورت في احسن صورة في يدها اليمنى رقعة مشتملة على نظم فيه تلك الساعة باسمها مسطورة فتضعها بين يدي السلطان بلطافة ويدها اليسرى على فمها كالمودية بالمبايعة حق الخلافة هاكذا حالهم الى انبلاج الصباح ونداء المنادي حي على الفلاح وكان السلطان المذكور يقرض الشعر ويحب اهله وكان ما من ليلة مولد مرت في ايامه الّا ونظم فيها قصيدة في مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم واول ما يبتدى المسمع في ذلك المحفل العظيم بانشادها ثم يتلوه انشاد من رفع الى مقامه في تلك الليلة نظما ومن القطع التى انشاها كاتبه الاديب البارع ابو زكرياء يحي ابن خلدون اخو ولي الدين صاحب التاريخ على لسان جارية المنجانة مخاطبة بما مر من الليل قوله في انقضاء ثلاث ساعات من الليل *

* امولاي يا ابن الملوك الاولى * لهم في المعالي سني الرتب *
* تولت ثلاث من الليل ابقت * لك الفخر في عجمها والعرب *
* فدم جنة الله في ارضه * تنال الذي شئته من ارب *

وقوله في مصى ست ساعات

يا ماجدا وهو فرد * تخاله في عساكر

ست من اليل ولت * ما ان لها من نظاير

دامت لياليك حتى * الى المعادن نواضر

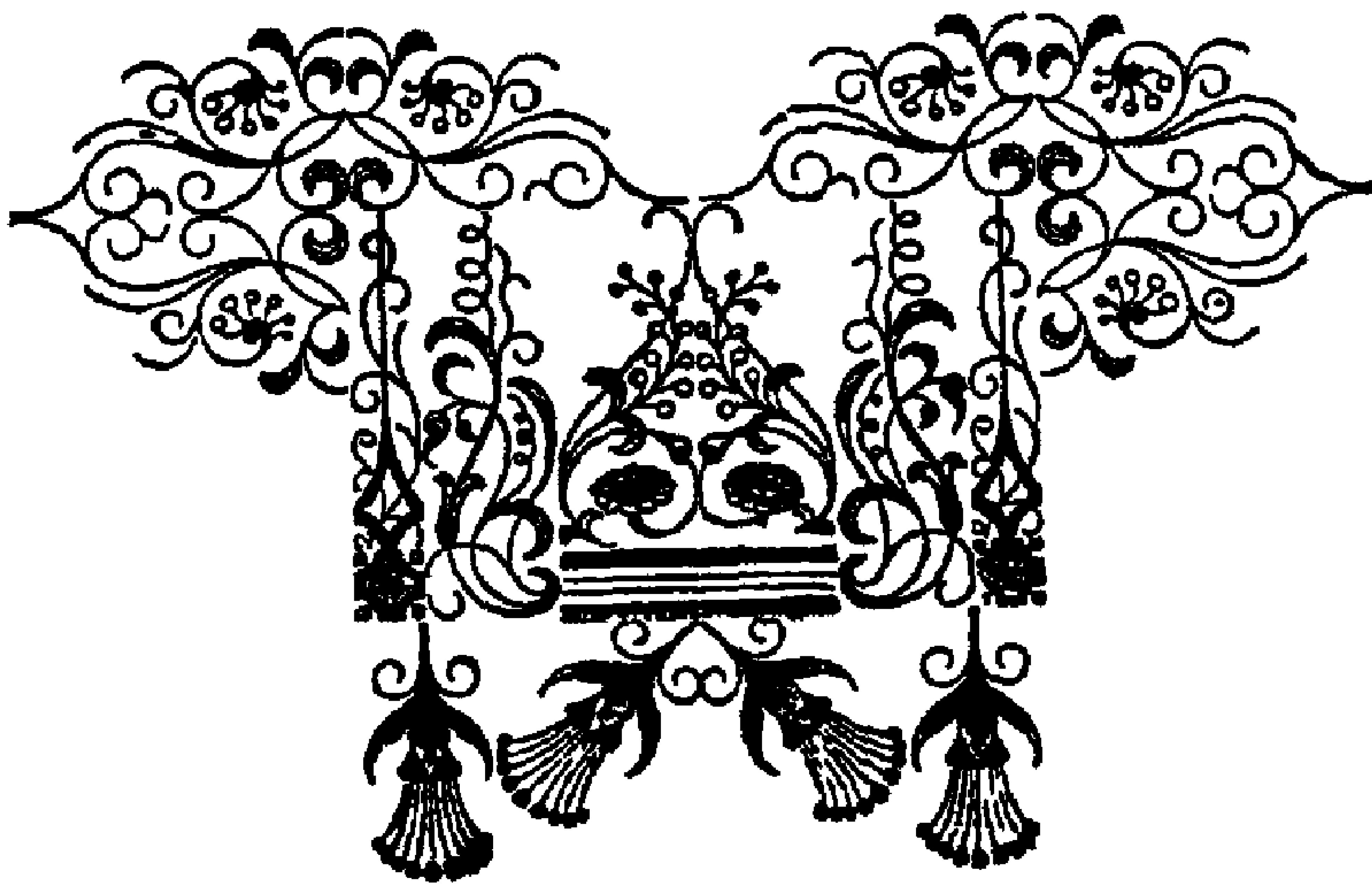
وكان كثيرا ما يوجه اليه بالامداح عالم المغرب و بليغه المغرب المثل المضروب في النظم والنثر ذو الوزارتين ابو عبد الله ابن الخطيب منها قصيدته السنية المشهورة التي مطلعها

الطلعن في سدف الفروع شموسا

ضحكن الظلام لها وكان عبوسا

وفيما ذكرناه كفايه

والحمد لله بدءا ونهاية



بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد

كتاب واسطة السلوك
في سياسة الملوك

تاليف الامام الملك الهمام الاسد
الضرغام امير المسلمين مولانا
موسى بن يوسف ابو حمو بن زيان
العبد الوادي رحمه الله تعلى

الحمد لله الذي لم يزل ولا يزال ۞ وهو الكبير المتعال
خالق الاعيان والاسرار ۞ ومكور الليل والنهار ۞ العالم
بالخفيات ۞ وما تنطوي عليه الارض والسماوات ۞ سوآء

عنده الجهر والاسرار * ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار * الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير * خلق الخلق بقدرته * واحكمهم بعلمه وخصهم بمشيئته * ودبرهم بحكمته * لم يكن له في خلقهم معين * ولا في تدبيرهم مشير * وكيف يستعين من لم يزل بمن لم يكن او يستظهر من يتقدس عن الذل بمن دخل تحت ذل التكوين * لا تخالطه الظنون * ولا تماثله العيون ولا تصوره الاوهام * ولا تحيط به الافهام * ولا يقدر قدره الانام * ولا يحويه مكان * ولا يقارنه زمان * من جعل نعمته على الخلق بما الهمهم عليه من الحق سابلة شايعة * ويسر طوايف من عباده لليسرى فاتت اليها مسارعة * وحظهم على الاخذ بالحسنى ولا احسن من نفوس ارشدت فاقبلت لاربها طالبة ولربها طائعة * ولا اسمى من همم نظرت بحسن السياسة * في تدبير الرياسة * التي هي لاسباب الملك جامعة * ولاسباب الهلك مانعة * واظهرت من معادنها درر الحكم * وغرر الكلم * لامحة لامعة * فاجتلت اقمارها طالعة * واجتنت ازهارها يانعة * وصلى الله على سيدنا محمد الكريم * المبعوث بالايات البينات ساطية ساطعة * والمعجزات المعجبات قاصمة لظهور الجاحدين قاطعة * الذي زويت له الارض فتدانت اقطارها وهي نائية شاسعة * واستاقت له المياه فبرزت بين اصابعه نابعة * امتثل السحاب امره فسبح باستسقائه دررا هامية هامعة * وحن الجذع له وكان

حينئذ لهذه الايات الثلاث ءاية رابعة * الى ما لا يحصى مما اتت به متواترات الاخبار * وصحيحات الاثار * ناصرة لنبوته الناصعة * صلى الله عليه وعلى ءاله وصحبه وعترته التي اجابت داعي الله خاشية خاشعة واذعنت لاوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانت من الاستبداد خالية وللانداد خالعة * صلاة ديمتها دايمة متتابعة * وسلم كثيرا انيرا * اما بعد فانه لما كانت الاولاد قطع الاكباد * وعماد الظهور * وشفاء الصدور * وثمار القلوب * وجلاء الكروب * وافضل بغية واجل مطلوب * واخلص محب واحسن محبوب * ودرة كل زين * وقرة كل عين * ووصلة للانساب وسلسلة التناسل والاعتقاب * وورثة الاباء * ومنشا الابناء * وسر الحياة وحياة العظام الرفات * يرغب فيهم الانبياء * ويعتد بهم الاولياء * قال الله عزوجل مخبرا عن نبيه زكرياء اذ دعاه فقال فهب لي من لدنك وليا يرثني ويرث من ءال يعقوب واجعله ربي رضيا * وجب ان تكون لهم الاباء مثل السماء الظليلة * والشمس المنيرة والسحب المنيلة * يتحفونهم بكل ادب وفضيلة * ويمنحونهم كل فائدة جليلة * وخير الاباء للابناء من لم تدعه المودة للتفريط في الحقوق * وخير الابناء للاباء من لم يدعه التقصير الى العقوق * وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الاولاد من رياحين الجنة وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنه وكان محبا في ولده سالم منشدا

* يلومونني في سالم والومهم * وجلدة بين العين والانف سالم *

وقال معلى الطاءي *

* وانما اولادنا بيننا * اكبادنا تمشي على الارض *
* ان هبت الريح على بعضهم * تمتنع العين من الغمض *

فراينا اولى ما نتحف به ولي عهدنا * ووارث مجدنا * والخليفة ان شاء الله تعلى من بعدنا * وصايا حكمية * وسياسة عملية علمية * مما تختص به الملوك * وتنتظم بها امورهم انتظام السلوك * ولذلك سميت هذا الكتاب بواسطة السلوك * في سياسة الملوك * ليكون اسمه يوافق مسماه * ولفظه يطابق معناه * ورتبناه ترتيبا * وبوبناه تبويبا

وجعلناه على اربعة ابواب * والله الموفق للصواب *

* الباب الاول *

في قواعد الملك والوصايا والاداب * والحكم المرشدة الى طرق الصواب *

* الباب الثاني *

في قواعد الملك واركانه * وما يحتاج الملك اليه في قوام سلطانه *

* الباب الثالث *

في الاوصاف التي هي نظام الملك وكماله * وبهجته وجماله *

* الباب الرابع *

في الفراسة * وهي خاتمة السياسة * فهذه عدة الابواب * والله الموفق *

* الباب الاول في الوصايا والاداب والحكم *
* التي ترشد الى طرق الصواب وفيه اربعة فصول *

* الفصل الاول *

* توصية ترشد الى الاتصاف بالعدل والتحلي بالفضل *

اعلم يا بني ان العدل سراج الدولة فلا تطفئ سراج العدل بريح الظلم * فان ريح الظلم اذا عصفت قصفت * وريح العدل اذا هبت ربت * ومن شروط الامارة العدل في الاحكام * والرفق بالانام * والتجنب عن الحرام * والصبر في الشدايد * والجري على احسن العوايد * فان صلاح الدولة بقواعدها * وفسادها بخرق عوائدها * يا بني البس ثياب العفة * وترد رداء الوقار * وتتوج بتاج الحياء * وتزي بزي السكينة * وتقلد بصارم العدل * وتحل بحلية الكرم * وتختم بخاتم الهيبة. يا بني الزم الصبر عند الشدة * والعفو عند المقدرة * واظهر المحبة لمن تحب * ولا تنفس البغض لمن تكره * يا بني اياك والاعجاب * فانه للملك خطأ غير صواب * ومن اعجب بنفسه * قرب من رمسه * يا بني اربعة لا يزول معها الملك حسن التدبير في الامور * والعدل في الخاصة والجمهور *

والاخذ بالحزم * والصبر في الازم * يا بني واربعة لا يثبت معها ملك سوء التدبير * ومخالفة النصيح والمشير * وخبث السريرة والنية * والجور على الرعية * يا بني ان الملك خليفة الله في ارضه * الموكل باقامة امره ونهيه * قلده بقلايد الخلافة * وجعله حصنا منيعا لذوي المخافة * وامره باقامة الشرايع * وسد الذرايع * ليقيم قسطاس الحق * في رعاية الخلق * واتاه الله من ملكه * وجعل الرعية تحت ايالته وملكه * فان اطاعه في ما قلده به * وانفذ الحق في حكمه ومذهبه * دام له الملك * ونجا من الهلك * وان خالف الحق ومال الى التقصير * لم يكن له من ولي ولا نصير * يا بني من تدرع بدرع العدل * وقي شر العدا * ومن تلبس بلبس الجور سقي كاس الردى * والعدل خير من ماء الحياة * والجور اشر شي يتقى * والعدل نعم ما يجتنى * والجور بيس ما يقتنى * والعدل كنز الامير * وحياة الغني والفقير * يا بني ولا تنس ذكر الله في سرك ولا في جهرك * ولا تدعه في جميع شانك وامرك * واجعله انسك وشعارك * وقوتك في ليلك ونهارك * ولا يشغلك ما تقلدت من امر الخلافة عن ذكر الله * لان كل شي باطل سواه * ورض نفسك للاذكار * وتوسل بربانيات الاشعار * وهاذا يا بني هو دابنا * والله حسبنا * وقد ذكرنا في ذلك قصايد * نتوسل بها لله عز وجل وعلا * ونشكره على ما انعم واولى * فمنها قولنا هذا الخبب البديع * الذي اشتهر في انواع التصدير والترصيع * وهو *

* دمع ينهل من المقل * لقبيح كان من العمل *
* وجوى في الصدر له حرق * فالقلب لذلك في شغل *
* ونهيت النفس فما قبلت * وتولى الصبر فما حيلي *
* فناس ركبوا التقوى ولقد * ركبت نفسي طرق الزلل *
* اباذني الوقر فما استمعت * والذنب تكاثر من خللي *
* ليلي سهر نومي فكر * دمعي درر برءي علل *
* نفسي ضجرت لما افتكرت * هلا نظرت ما يصلح لي *

* اثمي كثرا شيبي ظهـرا * وقـد اشتهرا والامـر جلي *
* في القلب شجى كيف المنجى * لمن الملجا بـارت حيـلي *
* من ينقذني من يسعدني * من يرحمني من يغفـرلي *
* الا مولى يسدي الطـولا * ربي الاعلى محيي الـدول *
* احياهـا بي وبـاعـوابي * وانـا الزابي والـدولـة لي *
* لي احياها لي انشاهـا * لي اعطـاهـا ازل الازل *
* الله قضى والحكم مضى * ولنا فرضا فـدعـوا عـذلي *
* فله الشكر وله الامـر * منه النصر لا من قبـلي *
* حملني الملك ومن يقـوى * يحمل ما فيه من الثقـل *
* الا بمعونة خالقنـا * مولي النعماء وخيـروابي *
* احمي المظلوم وانصـره * واقيم الحق بلا ميـل *
* انـزلت الناس منازلهـم * وتركت الظالم في وجل *
* احنـو للطفل كوالـده * واسوق الشيخ على مهـل *
* والرفق كذالك من شيمي * والعدل به اعطى امـلي *
* وانيـل القاصد حاجتـه * وانيـل المال بلا مسـل *
* وانـا للحرب كعنترهـا * وانـا في السلم اخو جـدل *
* خيلي للخير مـاجمـة * وكذا للشر ولا تسـل *
* وانـا موسى وابو حمـو * اصلح للملك ويصلح لـي *
* سيفي ان ملت بقائمـه * ادني المراق الى الاجـل *
* وكـذا كفـاي اذا انبسطت * من كان مقلا عـادملي *
* اهـل تلمسان بدولتنـا * كالشمس لدى برج الحمل *
* تـفنى الدنيـا ومحبتـهم * فينـا وحياتك لم تحـل *
* ولقـد بذلـوا في خدمتنـا * اقصى الغايات بلا كسل *
* فلهـم منا عدل ونـدى * ولنا منهم اقصى الامـل *
* فبفـضل الله ومنتـه * ارشدت الى اهدى السبل *
* وانـا ارجو من رحمتـه * ان يغفرلي يوم الخجـل *

* بعناية احمد سيدنا * وهو المبعوث في الملل *
* مبدي الاسلام ومظهره * علم التقوي خير الرسل *
يا بني فعلى هذا المنحى يكون سيرك * فيرجى من الله خيرك *

الفصل الثاني

توصية ترشد في تغليب العقل على الهوى

وتحض على ملازمة التقوى

اعلم يا بني ان العقل راحة النفس فاجعل عقلك راحة نفسك * وجالب انسك * واجعل العقل ميزان رايك * والفكرة مرءاة عقلك * واعلم ان الدنيا متقلبة فلا تغتر بغرورها * ولا تطمئن لسرورها * ولا تفرح لها اذا اقبلت * ولا تحزن عليها اذا ادبرت * يا بني ان الاغترار بالدنيا باطل * فاركب لها جواد الحق * واذا اعطيت ما يفنى فاشتر به ما يبقى * فان الدنيا منهج للاخرة * ومن يجعل الدنيا راس ماله كانت تجارته خاسرة * يا بني اربعة من علامات العقل اتباع المكارم * واجتناب المحارم * وملازمة التقوى * ومخالفة الهوى * واربعة تدل على عقلك * وتوجب المحبة لك * تاخير العقاب * وتعجيل الثواب * والنطق بالصواب * والصدق في الخطاب * يا بني ان الامير العاقل لا ينفذ فيه قدح اهل البغي * فمن انقطع اليه ولازمه * كالجوهر المضيء بنوره * لا تطفئه عواصف الرياح * ولا ينبغي للعاقل ان يجالس الاحمق فان مجالسته غرر * وابعاده عنك حذر * يا بني العقل شجرة من اشجار الانس فمن استظل بها ولازمها اجتنى منها ثمر المحبة يا بني اصمت عما يضرك * تبلغ ما يسرك * يا بني من يرحم يرحم * ومن يصمت يسلم * ومن يفعل الخير يغنم * ومن يقل الشر والباطل يأثم * ومن لا يملك لسانه يندم * يا بني اذا رايت سرك فشا في الناس فاخصص به اثنين من اصحاب سرك واحدا بسر دارك * والاخر بسر عدوك * ثم اغفل عنهما فما خرج من سريهما فهو صاحب الافشاء يا بني لا تكثر

من مجالسة النسآء ليلا يفسدن عقلك بعقولهن * ويسرق طبعك من طباعهن فانهن ناقصات عقل ودين * وان اشرن عليك بامر فخالفهن فيه لان عقول النسآء غير موافقة لعقول الرجال * فانك ان احسنت اليهن قابلن الاحسان بالاساءة * ومن ضعف عقولهن ان لا يفرقن بين المحسن والمسيء فاحذر مطاوعتهن واو كان فيهن مثل اخت ملك الخزر * وذلك ما حكى الفضل بن سهل قال كان عندي رسول ملك الخزر فكان يحدثني عن اخت للملك تسمى خاتون * قال اصابتنا سنة مجاعة شديدة احتدم علينا شرارها بحرارة المصايب وصنوف الافات ففزع الناس الى الملك فلم يدر ما يجيبهم به فقالت له خاتون ايها الملك ان الحزم علق لا يخلق جديده * ولا يمتحن عديده * وهو دليل الملك على استصلاح رعيته * وزاجر له عن استفسادها * ولقد لجات اليك رعيتك بفضل العجز عن الالتجاء الى من لا تزيده الاساءة الى خلقه عزا ولا ينقصه العود بالاحسان اليهم ملكا * وما احد اولى بحفظ الوصية من الموصي ولا بركوب الدلالة من الدال * ولا بحسن الرعاية من الراعي ولم تزل في نعمة لم تغيرها نقمة * وفي رضى لم يكدره سخط * الى ان جرى القدر * بما عمي عنه البصر * وذهل عنه الحذر * فسلب الموهوب * والسالب هو الواهب * فعد اليه بشكر النعم * وعذ به من فظيع النقم * فمتى تنسه ينسك ولا تجعلن الحيا من التذلل شركا بينك وبين الله فتستحق مذموم العاقبة ولكن مرهم ونفسك بصرف القلوب الى الافراد له بكنه القدرة * وبتبديل الشكوى في الدعآء بمحض الشكر له * فان الملك ربما عاقب عبده ليرجعه الى صالح عمل عن سيء فعل * وليبعثه على دؤوب شكر يحرز به فضل اجر * فامرها الملك ان تقوم فيهم فتنذرهم بهذا الكلام * ففعلت فرجع القوم عن بابه * وقد علم الله تعلى منهم قبول الوعظ في الامر والنهي * فحال عليهم الحول وما منهم مفتقد نعمة كان سلبها * وتواترت عليهم الزيادات بجميل الصنع فاعترف الملك لها بالفضل * فقلدها الملك * وجمع الرعية على

الطاعة لها في المحبوب والمكروه * فهذا فعل الله تعلى باعدائه لما شكروه * اعاد لهم من نعمه ما كان قد استرجع وزادهم من فضله ما تمنوه * فكيف بمَن يوحده ويومن به لو صدقت نياتنا وصحت كناين ضمايرنا يا بني فانظر هذه البلاغة من هذه الصبية * لما اعتقدت في المولى بحسن هذه الطوية * كيف حسنت احوال ابيها واحوال الرعية *

* الفصل الثالث *

* توصية ترشد الى حفظ المال * لبلوغ الغرض والامال *

اعلم يا بني ان المال به تدفع العدا * وحصن يتقى به من الردى * به تدفع الالام الاعراض * ويتوصل الى المقاصد والاغراض * وبه تستفتح الصياصي * وتستملك النواصي * ويقاد العاصي * ويستدنى القاصي * وبالمال تستعبد الرجال * وتبلغ الامال * وتذل به الرقاب * وتستفتح به الابواب * وتسهل الامور الصعاب * وتنال به الرغايب * وينجى به من المصايب * يا بني خير المال ما وقع به الانتفاع * وشر المال ما تركته للضياع * يا بني تقتير المرء على نفسه توفير منه على غيره * فاجمعه من مواضعه ووفره * ولم جبايته وثمره * وقومادته بالعدل * وتوسط في العطاء والبذل * وقد قال المتنبي *

* فلا تجعلن في المجد مالك كله * فينحل مجد كان بالمال عقده *
* ودبره تدبير الذى المجد كفه * اذا حارب الاعداء والمال زنده *
* فلا مجد في الدنيا لمَن قل ماله * ولا مال في الدنيا لمَن قل مجده *

يا بني استعن بثقات عمالك * على جمع مالك * فول الرفيق في الرعية * الجاري على السبيل السوية * تنل بذلك في الدارين الدرجة العلية * ولا يحملنك حب المال * على المسامحة في جور العمال * فانه اذا هلكت الرعايا * عدمت الجبايا * واذا عوملت الرعية بالرفق * كثر فيها النماء والرزق * يا بني خذ المال من حقه * وانفقه في مستحقه * تكن اعدل الناس * وافضل من ملك وساس * فما كان الرفق في شيء الا زانه * ولا كان الخرق في شيء الا شانه * يا بني حاسب

عمالك * يحفظوا مالك * يا بني وبالجملة فالمال اعظم الذخاير الفاخرة وبه تنال الدنيا والاخرة * يا بني عليك بالايثار مما افاء الله عليك من الانعام * خصوصا على حجاج بيت الله الحرام * وزوار قبر النبي عليه الصلاة والسلام * واجعلهم وسيلة يدعون لك في ذلك المقام * فان الدعاء هنالك مجاب * وليس بينه وبين الله حجاب * وقد نظمنا في الشوق الى ذلك المقام الشريف * والمحل الانور المنيف * قصيدة بعثنا بها مع رسالة رجاء للثواب * وتيسيرا للاسباب * وهي قولنا من وزن الخبب *

* نام الاحباب ولم تنم * عيني بمصارعة الندم *
* والدمع تحدر كالديم * جرح الخدين فيا ألمي *
* وزجرت النفس فما انزجرت * ونهيت القلب فلم يرم *
* ونذير الشيب لقد وافى * وحلول الشيب مع الهرم *
* والعمر تولى منصرما * داء للعمر المنصرم *
* وكذا الايام لها عبر * وليالي الدهر كما الحلم *
* والدار تغر بساكنها * ويح المغرور بها النهم *
* يا نفس خدعت بزخرفها * كم تغترين بها وكم *
* والعبد ببابك ملتزم * وبغير جنابك لم يحم *
* يا رب ذنوبي قد عظمت * فامنن بالعفو لمجترم *
* فالعفو الهي منك وان * الذنب وحقك من شيمي *
* شان المملوك الذنب وشا * ن المولى العفو عن الخدم *
* اني بذنوبي معترف * والخوف اشد من الالم *
* يا رب اذا لم تعصمني * مالي بذنوبي من عصم *
* كم اجني الذنب وتمهلني * وتقابل ذلك بالنعم *
* ولكم اعصيك وتسترني * يا ذا الافضال وذ الكرم *
* ما زلت بفضلك ترحمني * وتجود علي من القدم *
* يا رب انلني منك رضى * فرضاك الفوز لمغتنم *
* يا رب سالتك تغفرلي * بشفيع الخلق وكهفهم *

ادعوك الهي معتـــذرا * في جنح الليل وفي الظلـــم
قلبي انفطرا والدمع جرى * والركب سرى نحو العلم
قلب بنواه اسير هـــواه * فيا شرقاه الى الخيـــم
سرت الابل لما ارتحلـوا * فلبي حملوا في ركبهـــم
حملوا خلدي افنوا جلدي * تركوا جسدي رهن السقم
حط العشاق ركائبهـم * بين العلمين وبالحـــرم
وبقي المشتاق بحزنـه * في مغربه يبكي بـــدم
قد قيدني ما قادني * من حكم حكيم ذي حكم
وصروف الدهر تعارضني * عما ابغيه من القسم
ساروا والذنب قد اقعدني * فقرعت السن من النـدم
وبكيت الدمع على زلل * ومزجت الدمع بفيض دم
بدت الانوار على السمار * من الاقمار بذي سلم
زاروا الهادي بهوى بادي * وحدا الحادي عزما بهم
شدوا عزموا فازوا غنموا * لما قدموا لحمى الحرم
طافوا بالبيت وقد وقفوا * ودعوا اذ ذاك اربهم
غفرت بالبيت ذنوبهم * عند الاقرار بذنبهم
جسمي بتلمسان دنف * والقلب رهين بالحرم
ولاني اسير الخلق فـلم * استطع سفرا من اجلهم
فاقمت اصلح ما افسدت * بالغرب يد الفتن الدهم
وبعثت رسالة مكتئب * استشفع العرب مع العجم
ارجو في الحشر جوائزها * من خير وفي بالذمم
ندمي اذ لم اعمل قدمي * عوض القرطاس مع القلم
بدعا عيسى وبادريسا * يرجو موسى كشف الالم
ونخصك يا اسنى قمر * بصلاة فائقة العظم
وسلام يفضح كل شذى * يزري بالزهر المبتسم

فحذ يا بني على هذا المثال * وانسج على هذا المنوال * تسعد وترشد *

❋ الفصل الرابع ❋

❋ وصية ترشد الى حفظ الجيوش والاجناد ❋ والامراء والقواد ❋

اعلم يا بني ان الجيش انصار ❋ وبهم تستفتح الامصار ❋ فاحرز جيشك بمالك ❋ فهو اصلح لاحوالك ❋ ولا تقوعدوك بضعف انصارك ❋ فيعودوا اعوانا عليك يوم اعسارك ❋ فبالجيش تنال المقاصد ❋ وتستجلب الفوايد ❋ ويكبت العدو والمعاند ❋ والجيش ابهة الخلافة ❋ وحصن منيع من المخافة ❋ وهم سيوف الارهاب ❋ وحماة الطعان والضراب ❋ فمن كثرت اجناده ❋ عمرت بلاده ❋ وهابه اعداوه وحساده ❋ ومن كثر جيشه ❋ قل خوفه وطاب عيشه ❋ ومن قلت انصاره ❋ ضعف انتصاره ❋ ومن فرط في جيشه ❋ سقط عن عرشه ❋ واعان على نفسه اعداءه ❋ وشتت بالتضييع اراءه ❋ واعلم يا بني ان جيشك عزك ❋ وانصارك حرزك ❋ وهيبتك قوادك ❋ وحرمتك اجنادك ❋ وبجيشك تستقيم احوالك ❋ وينفذ امرك ومقالك ❋ فاستمل قلوبهم بودادك ❋ يدينون بجميل اعتقادك ❋ وافض عليهم اياديك ❋ ليعمر بهم ناديك ❋ واوف لهم بحقوقهم ❋ تامن من عقوقهم ❋ يا بني اكرام الجيش استعباد ❋ واهانتهم استبعاد ❋ واعلم ان افساد قلوبهم ❋ يوجب اظهار عيوبهم ❋ فلا تغضب كبيرهم ❋ ولا تحقر صغيرهم ❋ ونوه قوادهم ❋ وفضل انجادهم ❋ واعدل في ارزاقهم يتواطاون اليك باخلاقهم ❋ ولا تضيع لاحد فعلته ❋ ولا تحقر لخديم خصلته ❋ ولا تنس له سبقيته ❋ ولا تفسد في سبقيته نيته ❋ ولا تخلهم من احسانك ❋ وسايسهم سياسة على وفق زمانك ❋ وعليك بتفقد احوالهم والتفكر في مصالحهم ومآلهم ❋ فانك ان حفظت اجنادك ❋ حفظت رعيتك وبلادك ❋ وان اهملتهم خذلوك ❋ وان اعرضت عنهم ملوك ❋ واعلم يا بني ان الملك بلا جيش كالارض لا نبات لها والطاير لا ريش له والطاير لا ريش له يوشك ان يوخذ لحينه يا بني اياك والمخاطرة فانها غير محمودة الا في طلب الملك والسلطان فانها محمودة في هذا الشان ❋ لان الملك اذا خاطر بنفسه في طلب سلطانه ❋ واسترجاع بلاده واوطانه ❋ حمدت مخاطرته

في سره واعلانه * فانه ان نجح سعيه * وانتج رايه * نال غاية مطلوبه وبلغ نهاية مرغوبه * وان عاقه حلول منيته * دون بلوغ امنيته * فله في ذلك اوضح عذر * واجل ذكر * واعظم فخر * كما قال امرو القيس

* بكى صاحبي لما راى الدرب دونه * وايقن انا لاحقان بقيصرا *
* فقلت له لا تبك عينك انما * نحاول ملكا او نموت فنعذرا *

وقد خاطرنا نحن في ذلك * وسلكنا بحول الله احسن المسالك * واوردنا العدا موارد المهالك * وذلك لما هاجتنا الحمية * ودعتنا النفوس الابية * للانتصار لملكنا وسلطاننا * واستخلاص بلادنا واوطاننا * وردد ولتنا الى نصابها * واستخلاصها من ايدي غصابها * فطوينا المراحل * وحشنا الركائب والرواحل * ورحلنا مستعينين بالله سبحانه في كل سكنة وحركة * معترفين من الله عزوجل كل يمن وبركة * فكان ابتداء حركتنا السعيدة من تونس بالجد والاعتزام * عاملين على مدينة تلمسان حضرة اسلافنا الكرام * فارتحلنا من البلاد الافريقية * الى البلاد الجريدية * وكان عدونا السلطان ابو عنان ابن السلطان ابي الحسن بن عبد الحق المريني بالبلاد القسنطينية فبادرنا من حيننا اليه * برسم ان نشن الغارة عليه * ولم يكن بيننا وبينه الا مرحلة * وعصابتنا السعيدة اليه مقبلة * وعند ما علم باقبالنا * ونجدة حماتنا وابطالنا * وافق ذلك ان وقع بينه وبين قبيله الشتات والشنآن * وخشي الفضيحة في تلك الاوطان * فترك بقسنطينة قائدا من قواده * وحصة من اجناده * وعاد راجعا الى بلاده * وكذلك فعل بالمسيلة * ترك فيها شرذمة قليلة * فقصدنا الى ميلة لننتهز فيها الفرصة * ونوقع بتلك الحصة * فاستفتحناها من يومها * فاخذنا الشرذمة وعفونا عن قومها * ثم ارتحلنا الى الزاب * وفي صحبتنا جملة من الاعراب * من وجوه عرب رياح * المعروفين بالجلاد والكفاح * وهناك وصل الينا عربنا بنو عامر * ولاحت لنا الفتوحات والبشاير * فبادرنا حضرة ملكنا اجمل مبادرة * وخاطرنا في ذلك اعظم مخاطرة * ويسر الله لنا في الفتح اتم مياسرة * ونزلنا ساحتها ورياح النصر على راياتنا خافقة * ودلايل السعد تشهد مقدماتها ان نتايجها صادقة * فالفينا بها

ابن سلطان مرين * فازلناهم وساء صباح المنذرين * ليخرجوا عن بلادنا وميراث ءاباءنا واجدادنا * فابوا الا تماديا في عنادنا * فبرزوا الينا بظاهر مدينة تلمسان * في عدة نيف على الفين من انجاد الفرسان * يقدمهم المهدي بن السلطان ابي عنان * فلما التقى الجمعان * وشرعا في الضراب والطعان * راوا منا ما لا قبل لهم به * ولا طاقة امّن هو اشد منهم قوة واكثر جمعا بحربه * فاحجموا بعد الاقدام * وتزلزلت منهم الاقدام * وانهزموا هنالك اي انهزام * حتى كان البطل الشجاع من ابطالنا * يقدم منهم عشرة من امام * طعنا بالرمح وضربا بالحسام * كما قيل *

* وامر كان المصطلين بحره * وان لم تكن نار وقوف على الجمر *
* صبرنا له حتى تناهى وانما * تفرج ايام الكريهة بالصبر *

فنكصوا على اعقابهم * وسيوفنا متحكمة في رقابهم * ولجوا الى الفرار * وايقنوا بالتباب والتبار * وحل بهم الخسار والبوار * ولم ينفعهم التحصن بالاسوار * من شبا سمر الرماح وظبى بيض الشفار * وتركناهم الى غد ذلك اليوم * ابقاء منا على القوم * ولم تكتحل اجفانهم تلك الليلة بنوم * فلما كان من الغد افتتحناها عنوة عليهم * وخلصنا من جميع جهاتها اليهم * وذلك غرة ربيع الاول * من سنة ستين وسبعماية * فتشفعوا الينا بالفقهاء والصلحاء في الابقاء عليهم * وخلوصهم الى غربهم بجميع ما لديهم * فاسعفناهم بما طلبوا من العفو * وسوغناهم من الامان العذب والصفو * وذلك هو المعهود منا ومن اسلافنا الكرام * وخيرناهم بين الانصراف والمقام * فمن انصرف فمبلغ المراد والمرام * ومن اقام للخدمة المرضية فمرعي الذمام * ومحمول على ساعد البر والاكرام * كما قيل *

* جنحوا الى السلم التي سلوا بها * لما انبرى ليث الشرى ليصولا *
* وتوهموا شهب النجوم اسنة * وتخيلوا لمع البروق نصولا *
* جاءوا شروطا لم تكن محمولة * لاكن من خاف استخف ثقيلا *

فاستقللنا بحضرتنا العلية * والبلاد كلها مرينية * واستولينا على ما كان بتلمسان * واستقر لنا بها الملك والسلطان * ومرين محدقة بنا من كل جهة ومكان *

ليس بيننا وبينهم الا مسيرة يوم او نصف يوم * ومن شدة الحزم لم تكتحل اجفاننا بنوم * فلم نزل يا بني نستعمل معهم المحاولات والمكايد * وننصب لهم الاشراك بكل المراصد * الى ان استخلصنا جميع بلادنا من ايديهم * وجازيناهم على تعديهم * وذلك بين محاولة وقهر * ومساعدة دهر * وتاييد ونصر * ولقد دخلناها عليهم دون كثير جيش ولا مال * فبلغنا بالسياسة والمحاولة غاية الامال * الى ان صارت اموالنا اكثر من اموالهم * واحوالنا احسن من احوالهم * واعدادنا اكثر من اعدادهم * واجنادنا اكثر من اجنادهم * وبلادنا امهد من بلادهم * وقد شرحنا * جلية امرنا * وجل قصد خبرنا * في قصيدتنا الميمية التي سارت بذكرها الركبان * وافتخرنا ببلاغتها على جلة الاقران * وهي *

* جرت ادمعي بين الرسوم الطواسم * لما شحطتها من هبوب الرواكم *
* وقفت بها مستفهما لخطابها * واي خطاب للصلاد الصلادم *
* وسرت على جون اقب مضمر * كلمعة برق او كلمحة صارم *
* وجلت بطرف الطرف في عرصاتها * كجولة واه او كوقفة هائم *
* وصفقت ما بين الطلول خوامسي * وسالت سواقي الدمع مثل الاراقم *
* وقلت لصحبي لا تملوا من السرى * ولا يزدريكم في السرى لوم لائم *
* سلوا جلات الحي اين تحملوا * فقد عيل صبري بين تلك المعالم *
* ديار عهدنا هابها الشمل جامع * مع الغانجات الانسات النواعم *
* وكم ليلة بات السرور مساعدي * بسعدى وسلمى والمنى ام سالم *
* فعادت رسوم الدار بعد انيسها * هشيما ولا تخفى بقايا المراسم *
* وكم نسجتها من جنوب وشمال * وكم سجعتها من لغات الحمايم *
* كاني بهم والله يوم تحملوا * وحادي النوا يحدو هوادي الرواسم *
* قطعت الفيافي بالقلاص وانما * تجاب الفلا بالخف او بالمناسم *
* وقد خلتها بين الرياح زوابعا * تسابق في البيدا ظليم النعائم *
* مكحلة الاحداق فيها هشاشة * مهملجة الاطراف سود المباسم *
* ومعها اسود الحرب تطوي بها الفلا * يرون المنايا بعض تلك المغانم *

* وخضت الفيافي فدفدا بعد فدفد * لنيل العلا والصبر اذ ذاك لازمي *
* وكم ليلة بتنا على الجدب والطوى * نراقب نجم الصبح في ليل عاتم *
* على متن صهال اغر محجل * مديد الخطا لم يخش صعب الصلادم *
* تسربلت كردوسين من ءال عامر * ومن ءال ادريس الشريف ابن قاسم *
* رجال اذا جاش الوطيس تراهم * اسود الوغا من كل ليث ضبارم *
* وجبت الفيافي بلدة بعد بلدة * وطوعت فيها كل باغ وباغم *
* وجيت لارض الراب تذرف ادمعي * لتذكار اطلال الرسوم الطواسم *
* وشبكت عشري فوق راسي فلم اجد * بها مخبرا غير الربا والمعالم *
* وجاوزتها ما بين هوج هجائن * رقاق الهوادي عاليات القوائم *
* وجزت بارض الربع راغت باهلها * ببلقعة قفرا قفتها عزائمي *
* سالت ربوع الدار فيها فلم اجد * بها معلما ياتي الي بعالم *
* شددت عرى للنجع من كل جانب * وصيرتها مثل الرياح الرواكم *
* تخيلتها مثل القطا في مسيرها * وفوق ذراها كل شهم وحازم *
* وحفت بنا الابطال من كل جانب * تذكرها عهد الهوى بالصماصم *
* وجبت لوارقلا وجزت مصابها * ولا مخبرا غير الصلاد الاعاجم *
* وما زلت اطوي سهلها باكامها * واخطبها بين الربا والهضائم *
* قطعت الحمادي والسراب غديرها * على هيكل عبل الذراعين هاضم *
* مكر بيوم الحرب لا يشتكي الوبا * مفر اذا طالت عظام الهزائم *
* الى ان بدالي وادي زرقون ازرقا * وبانت عليه شاحبات الغياهم *
* طرقت برانسي واستفزيت بالكرا * وكم من ليال بتها غير نائم *
* وجددت في قصد السرايا مسربلا * بسير حثيث او سرى متداوم *
* وكم من فيافي قد قطعت اكامها * وكم نسمة جادت عليها نسائمي *
* وبين ضلوعي زفرة مستكنة * يصعدها فيض الدموع السواجم *
* وبتنا نسوق النجع في غيهب الدجى * وخرصاننا فيها كشهب عواتم *
* الى ملل ملنا وما ملت السرى * سرايا ركاب كالقسي السواهم *
* ولما بدالي غيهب القوم ظاهرا * وحيهم بين الطلال الغياهم *

* جبدنا سجا بيدا وجدت جيادنا * وجالت كما العقبان بين السغاهم *
* وضمر عناجيج على صهواتها * كرام سماح بالنفوس الكرائم *
* نطارد فيها الخيل بالخيل مثلها * فكان على الاعداء كر الهزائم *
* حملنا عليهم حملة مضرية * فولوا شرادا مثل جفل النعائم *
* فولت سويد ثم خاب مجيرها * وشيخ حماها في لججوج المصادم *
* وكم خلفوا ما بين بكر وبكرة * وكم غادة مائسة في الهدائم *
* وكم قبة طاحت وطاح اميرها * على الارض ما بين الصفا والرتائم *
* وجازت خيول للحجاز كانها * عقاب تمطى بين فرق الحمائم *
* فحاز الثنا فيها سفير بن عامر * كما حاز من قبل ذياب بن غانم *
* وطاحت على وادي ملال هشائم * من القوم صرعى للنسور القشاعم *
* فكانوا الى الطير العشيم فرائسا * وكانت على الاعداء شوم الذمائم *
* وهبت رياح النصر من كل جانب * وجاءت الينا مبهجات الغنائم *
* ولما قضيت الامر في الحرب منهم * رحلنا بعون الله نحو المعالم *
* وخضرا كبود قد تبدت هضابها * وهبت رياح عاطرات النواسم *
* درجنا الى درج ولاحت بشائر * بهلك الاعادي التاعسين الاثائم *
* الا ايها الناعي البشير الذي نعى * امير مرين حزت اسنى المقاسم *
* لقد قرب الله البعيد بهلكه * فبشراك بالخيرات يا خير قادم *
* ولاحت لنا فزتون فافترت المنى * الينا ابتساما بالثغور البواسم *
* وصارت اسود الغاب تاتي مطيعة * وعادت لنا الايام مثل المواسم *
* قطعنا الثنايا والخميس مسربل * صلاصله مثل الرياح القواصم *
* وجئنا وعرجنا على وادي يسر * وجزنا المخاضي كالليوث الضراغم *
* وفي يسر امالنا يسرت لنا * وجردت للاوطان فيها عزائمي *
* وبتنا وبات النوم غير مساعدي * واني على جد السرى جد عازم *
* وسرنا ضحى والنصر يخفر امامنا * برايات سعد فوقنا كالغمائم *
* قدمنا وكان الشيخ يرجو قدومنا * وكان على الاعداء شر المقادم *
* وصفوا صفوفا ثم صفت صفوفنا * وسالت دموع القوم مثل العنادم *

* وجالت ليوث الحرب بين صفوفها * وخط بها الخطي بين الحلاقم *
* ولاح شعاع الهند بين خميسها * كبرق تبدى بين درج الاراقم *
* سمونا الى اصطفطين واشتد بيننا * حروب تشيب الراس قبل الفطائم *
* كررنا عليهم كرة بعد كرة * وقد سعرت للحرب نيران جاحم *
* بضرب يزيل الهام عن مستقره * وطعن مضى بين الكلا والحيازم *
* فهذا اسير صفدته يد الوغا * وهذا قتيل في عجاج المصادم *
* فطوبى لعبد الواد عند ازدحامهم * لقد جدلوا في الحرب كل مزاحم *
* وجالت خيول العامرية فوقها * اسود الشرا في موجها المتلاطم *
* وعاد شعاع الشمس في الجو اصفرا * وجال ذباب السيف بين الغلاصم *
* جعلنا كراديسا على كل ربوة * وطالت رقاب الاسد تحت العمائم *
* شددنا عليهم شدة بعد شدة * فولوا فرارا والتجوا للمعاصم *
* وداروا باسوار المدينة كلها * كدور سوار فوق ابهى المعاصم *
* وقد برزت من خدرها كل غادة * درجن على الاسطاح درج الحمائم *
* وقد عاد ذاك الجمع منهم مكسرا * بجمع لنا بين الكتائب سالم *
* فرامت مرين الصلح بعد فرارها * وقد ظلموا عهدا ولست بظالم *
* فلا صلح حتى تضرم الحرب نارها * وتساقط الابدان تحت الجماجم *
* وتخلى من الاعداء دار عهدتها * مع الانسات الناعمات الكرائم *
* دخلت تلمسان التي كنت ارتجي * كما ذكرت في الجفر اهل الملاحم *
* وخلصت من غصابها دار ملكنا * وطهرتها من كل باغ وجارم *
* لقد اسلموها عنوة دون عدة * وقد طلقوها بالقنا والصوارم *
* ولم يغنهم ما شيدوا من معاقل * ولم يجدهم ما حصنوا من معاصم *
* ولا كثرة الجيش اللهام مدرعا * ولا ما اعدوا من قسي سواهم *
* اذا لم يكن للمرء سعد مساعد * فما يغني اعداد الجيوش الخضارم *
* نظمنا شتيت الملك بعد افتراقه * وكم بات نهبا شمله غير ناظم *
* شددنا له ازرا وشدنا بناءه * باوثق اركان واقوى دعائم *
* فصارت ملوك الارض تاتي مطيعة * الى بابنا تبغي التماس المكارم *

* وجآءت لنا من كل اوب ووجهة * تبايعنا طوعا وفود العمائـم *
* انا الملك الرابي واست بزابي * ولا كنني مفني الطغات الاعاظم *
* فقمنا بامر الله في نصر دينه * وفي كف ما قد احدثوا من مظالم *
* فلله منا الحمد والشكر دائما * وصلى على المختار من ءال هاشم *
فانظر يا بني ما قاسيناه في هذه الامور الشديدة * وما ضربناه لاعدآئنا من شدة الحرب ورقة المكيدة * الى ان تقضينا ابلغ السول * وتوصلنا بعناية الله تعلى الى اوفق مامول * فكذلك ينبغي لك ان تقتدي بكل افعالنا * وياول امرك الى ما ءال اليه مآالنا * تاخذ باليقضة والحزم * والرفق في بعض الامور وبعضها بالعزم * ولا تنيب عن يومك في امره غدا * اذا وجدت الفرصة من الاعدا * يا بني واجعل عزمك في الادب في الافعال * والصدق في جملة الاقوال * وان وعدت عدة فالواجب انك توفيها * ولا تكثر الضحك الا تبسما فان كثرة الضحك يميت النفس او تضنيها * يا بني وليكن مجالسك مجلس سكينة ووقار * ولا يجلس معك الا اناس اخيار * يا بني وانكن في هيئة جلوسك متربعا ولتكن حسن السمت * كثير الصمت * ولا تكثر التحرك ولا التقلب يمينا ولا شمالا * وليكن نظرك الى الناس نظرا خفيا * تلاحظهم بطرفك اختلاسا بحيث لا يشعرون بنظرك اليهم * فتعلم بذلك النظر ما يبدو على وجوههم من المسرة وغيرها * واما ركوبك يا بني فينبغي لك الا تكثر من الركوب الا في اوقات معلومة * لانك اذا اكثرت من الركوب ملك الناس * واذا اقللت من الركوب ذمك الناس * لانك اذا احتجبت عن الناس ظنوا انك مشتغل بالدنيا ولذاتها * وان اكثرت من الركوب كثرت مباشرتك للعامة واذا كثرت مباشرتهم الك ملوك وزهدوا في النظر اليك * وليكن ركوبك بسكون وسيرك بوءدة * ولا تلتفت في ركوبك يمينا ولا شمالا * لان الالتفات يمينا وشمالا دال على ضعف العقل * وكذلك التقلب في سرجك * والهمز الكثير في سيرك * واقصر عن الحديث في ركوبك * لا مع وزيرك ولا مع خاصتك * الا فيما تدعو الضرورة اليه في جميع ما ذكرناه * ولا تكثر اللعب في

الميدان * الا في اوقات لا يعاب عليك فيها اللعب * يا بني واذا فعلت فعلا حسنا فلا تكن شاكرا نفسك لغيرك * ولا تظهر الاعجاب بنفسك * وعليك بالزينة في جلوسك وركوبك * والتطيب والتجمل بالحسن من الثياب * فان ذلك مما يزيدك مهابة وجمالا في اعين الناس * يا بني واستعن على اعتدال مزاجك * وحفظ صحتك * بالتوسط في طعامك وشرابك * ولا تكن منهمكا في الاكل * ولا تاركا له بالكلية * ولكن بقدر معلوم في اوقات معلومة * فان ذلك احسن لحالك * واصلح لجسمك ولتاكل من الطعام ما تطيب به نفسك * ويعتدل به مزاجك * ولا تدخل الطعام على الطعام * يا بني ولا تكثر الدخول الى الحمام * فان الادمان عليه يضعف القوى * ويهرم الجسم * ويسرع بالشيب * ويضعف البصر * ولتاخذ من جميع الاشياء بقدر معلوم * يا بني واختر لنفسك طبيبا ماهرا * عاقلا اريبا فاضلا ثقة محبا ناصحا * ومع هذه الصفات لا تمكنه من نفسك * حتى لا يكون اعلم منك بنفسك * فان اتخاذ الطبيب فيه قوة للقلب * وراحة للنفس وهو وان كان له في الحكمة اوضح دليل * وكان كما وصفناه فهو في الحقيقة عليل * وانما الطبيب اله السماء فنعم الطبيب ونعم الوكيل * وقد قيل لابي بكر في مرضه اندعو لك طبيبا فقال الطبيب الذي امرضني ومع هذا فقد خلق الله الداء وخلق الدواء * وجعل الراحة على يد من يشاء * وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الذي انزل الداء انزل الدواء * يا بني ولا تامن على طعامك وشرابك الاحداث من النساء * ولا من يميل الى الاحداث منهن * لان الاحداث من النساء تدعوهن شراهة الصبا * الى ان يخلطن في طعامك وشرابك ما يرين انه ينفعهن ولا يضرك مما يستملن به قلبك * فيؤول امرهن الى ان يصنعن لك ما يضرك في طعامك * يا بني ولا تغفل عن تفقد قصرك * في ليلك ولا نهارك * ولا تامن عليه احدا غيرك * ولا تجعل لقصرك بابين * واقطع الداخل والخارج * ولا يدعوك حب النساء الى ان تكثر الولايم والاعراس * والتنزه وشبه ذلك * فان حب الاعراس

والولايم والنزهات * يدعوالى حب الشهوات * وحب الشهوات يدعوالى فساد العقل والدين * واذا فسد العقل والدين فسد الملك واختل نظامه * لانه بفساد العقل تفسد عليك امور دنياك * وسياسة ملكك * وبفساد دينك تفسد عليك آخرتك * يا بني اياك والغفلة في احوالك * ولا تكثر النوم في ليلك ولا في نهارك * واشتغل عن نومك بالفكرة * فان في الفكرة العبرة * وفي الغفلة الحسرة * وليكن قصرك يا بني محفوفا بالفتيان والحجاب * ولتكن فتيانك على باب قصرك من خارج * واسلك في تربيتهم احسن المناهج * فلا يطلعون على اسرار قصرك * ولا يتكشفون على مخبآت امرك * وليكن لك اعوان للانتقام ممن لزمه الادب من خدمك واهل قصرك * ولا يدخلون الا امامك * ولا ينتقمون من احد الا قدامك * وهلك خاصيتهم * لان لهم مهابة في الادب بالنسبة الى غيرهم * ولا تطلع احدا على قصرك * ولو انه اقرب اولادك اليك * واعلم يا بني ان احسن الاشياء واجلها وافضلها واكملها العفاف والصيانة * والحزم والديانة * وحسن الظن بالله * والتسليم لامر الله * يا بني اعمل بوصيتي تنجح * وجانب معصيتي تفلح * فانك ان عملت بوصيتي رجوت لسلطانك الدوام * ولخلافتك السعادة مدا الايام * والله خليفتي عليك * فيما دونته اليك *

* الباب الثاني في قواعد الملك واركانه * وما يحتاج الملك اليه في قوام سلطانه * وهي اربعة قواعد *

* القاعدة الاولى وهي قاعدة العقل *

اعلم يا بني انه لما خلق الله تعلى العقل قال له اقبل فاقبل ثم قال له ادبر فادبر * فقال الله تعلى وعزتي وجلالي لاجعلنك في احب الخلق الي * وعن ابي الدرداء رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا عمر ازدد عقلا تزدد من ربك قربا * وقال صلى الله عليه وسلم افضل الناس اعقلهم * وقال ابن عباس رضي الله عنه سالت عايشة رضي الله

عنها عن الرجل يكثر قيامه ويقل رقاده * وعن الرجل يكثر رقاده ويقل قيامه ايهما افضل * فقالت عايشة رضي الله عنها سالت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حاليهما فقال احسنهما لاحسن عقلا قالت قلت يا رسول الله انما سالتك عن عبادتهما قال انما ينظر الله لعقولهما فايهما افضل عقلا كان افضل في الدنيا والاخرة وعن ابن عمر رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تعجبوا من اسلام امرئ حتى تعرفوا عقدة عقله * وعن وهب بن منبه قال وجدت في بعض ما انزل الله تعالى على انبيائه ان الشيطان لم يكابد شيئا اشد عليه من مومن عاقل وانه يكابد مائة جاهل فيسخرهم ويركب رقابهم فينقادون له كيف شاء ويكابد المومن العاقل فيصعب عليه حتى لا ينال منه شيئا من حاجته والعقل غريزة يضعها الله تعالى حيث شاء وهو نور يقذفه الله تعالى في القلوب الفاضلة وهو ينقسم قسمين غريزي ومكتسب فالغريزي ما يقع به التمييز بين الصور المختلفة والحقايق * والتفريق بين اخلاق الخلايق * والمكتسب هو نتيجته وهو اصابة الفكرة * ونقافة المعرفة * وليس له حد ينتهي اليه لانه لا يتناهى ان اعمل * وينقص ان استهمل * وزيادته تكون باحد وجهين احدهما ان يقارنه من مبدا النشاة ذكاء وحسن فطنة * كما قال الاصمعي لاحد اولاد العرب ايسرك ان تكون لك مائة الف درهم وتكون احمق قال لا والله قلت لم قال اخاف ان يجني علي حمقي جناية فيذهب مالي ويبقى حمقي * فاستخرج هذا الصبي بذكائه ما يدق على من هو اكبر منه سنا * الوجه الثاني ما يحصل لذي التجارب من صحة الروية بطول ممارسته للامور * وتصاريف الدهور * كما قالت الحكماء التجربة مرآة العقل * والغرة ثمرة الجهل * ولذلك حمدت بعض اراء الشيوخ حتى قالوا الشيوخ اشجار الوقار وينابيع الاخبار * لا يطيش لهم سهم * ولا يسقط لهم وهم * واعلم يا بني انه بالعقل تتميز اصناف العوالم * وتقع التفرقة بين الاناسي والبهايم * وبالعقل يفصل بين الحق والباطل * والمفضول والفاضل * والعالم والجاهل * والجايز والمستحيل * والصحيح

والعليل * وبالعقل تكسب الفضايل * وتجتنب الرذايل * وبالعقل يعمل المرء لغده * ويجعل خاتم الملك في يده * وبالجملة بالعقل يقتنى المآثر الفاخرة * ويجمع بين الدنيا والاخرة * فاذا تقرر هذا فالملوك بالنسبة الى العقل على اربعة اقسام * ملك له عقل يصلح به دنياه واخراه * وملك له عقل يصلح به دنياه دون آخرته * وملك له عقل يصلح به اخراه دون دنياه * وملك له عقل لا يصلح به دنياه ولا اخرته * القسم الاول * وهو الملك الذي له عقل يصلح به دنياه واخراه يا بني وهذا هو العقل التام * الذي تميز به الخاص من العام * والسياسة الكاملة التي تعود بالمنفعة الشاملة * يا بني وعلامة المتصف به ان يكون في ما بينه وبين الله عز وجل حسن السريرة * وان يسير في الرعية باحسن سيرة * وان يكون حاكما على هواه * يوثر عقله على ما سواه * وان يحب لرعيته ما يحب لنفسه * وما يستجلب به الرعايا من لطف انسه * كما قال سالم بن عبد الله لعمر ابن عبد العزيز يا امير المومنين اجعل الناس ثلاثة كبيرهم ابا * واوسطهم اخا * واصغرهم ولدا * فبر اباك * واكرم اخاك * وارحم ولدك * فاذا كان الملك على هذه الخصال التي ذكرناها * والاوصاف التي بيناها * اقتضى لملكه الدوام * واجمع على محبته الخاص والعام * ورجي له النصر في كل مقام * وتسنى له الظفر بكل المرام * فان مات بقي ذكره دائما * والثناء عليه قائما * وهذا في الملوك كعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كان له عقل اصلح به دنياه واخراه * ونال من كليهما ما تمناه * فيروى انه كان له غلام يسمى درهما يحطب له فقال له ما يقول الناس يا درهم قال وما عسى ان يقولوا الناس كلهم بخير وانا وانت بشر قال وكيف ذلك قال اني عهدتك قبل الخلافة عطرا لباسا فاره المركب رطب الطعام فلما وليت الخلافة رجوت ان استريح واتخلص فزاد عملي شدة وصرت انت في بلاء ومحنة فقال له انت حر فاذهب عني ودعني وما انا فيه حتى يجعل الله لي فرجا ومخرجا * فهذا عمر بن عبد العزيز كان على هذه الحالة في خلافته من التقشف وضيق المعيشة مع اقامة الملك واجري على سبيل السوية

والنظر في امور الرعية * واجراء الخلافة على عوايدها الشرعية * ويروى انه كان في بني اسرآءيل رجل من العباد المبرزين في العبادة * الموصوفين بالزهادة * وكان اذا دعا ربه اجابه * واذا سال اعطاه واثابه * وكان سياحا في الجبال * قواما في الليالي * وكان الله تبارك وتعالى قد سخر له سحابة تسير معه حيث يسير * تنسكب عليه متى شآء من مآئها النمير * فيتوضا ويشرب الى ان عراه في بعض الاوقات فتور * وتشاغل بامور * فازال الله عنه سحابته * وحجب اجابته * فكثر اذ ذاك حزنه وتحييده * وطال كمده ووجيبه * وما زال يشتاق الى زمان الكرامة المنون بها عليه فيبكي ويتاسف * ويتحسر ويتلهف * فنام ليلة من الليالي فقيل له ان شئت ان يرد الله عليك سحابتك فصل الى الملك الفلاني في بلد كذا وكذا واساله ان يدعو لك فان الله عزوجل يردها عليك * ويسوقها اليك * قال فسار الرجل يقطع الارض حتى وصل الى البلدة التي ذكرت له في المنام * فدخلها وسال عن الملك فارشد الى قصره واذا عند باب القصر غلام قاعد على كرسي عظيم وعليه كسوة هائلة فوقف الرجل اليه * وسلم عليه * فرد عليه السلام وقال ما حاجتك قال انا رجل مظلوم جئت لارفع الى الملك نازلتي قال انه لا سبيل اليه لانه قد جعل لاهل المسائل يوما يدخلون فيه عليه وهو يوم كذا وكذا فسر راشدا حتى ياتي ذلك اليوم قال فانكر الرجل عليه حجبته عن الناس وقال كيف يكون هذا وليا من اوليآء الله تعالى وهو على مثل هذه الحال قال الرجل فلما كان اليوم الذي ذكر له البواب وصل فوجد عند الباب اناسا ينتظرون الاذن لهم بالدخول قال فوقف الى ان خرج وزير عليه ثياب عظيمة وبين يديه سدنته وعبيده فقال ليدخل ارباب المسائل قال فدخلوا ودخل العابد في الجملة فاذا الملك قاعد وبين يديه ارباب مملكته على مقاديرهم ومراتبهم فوقف الوزير وجعل يقوم واحد بعد واحد حتى وصلت النوبة الى العابد فلما قدمه الوزير نظر اليه الملك وقال مرحبا بصاحب السحابة اقعد حتى افرغ لك قال فتحير الرجل من قوله واعترف بمزيته وفضله فقضى الملك بين

الناس وفرغ منهم ثم قام فقام الوزرآء وارباب الدولة والملكة واخذ الملك
يد العابد وادخله الى قصره فوجد عند باب قصره اسود عليه ثياب وفوق
راسه اسلحة وعن يمينه وشماله دروع وترس فقام الى مولاه وفتح باب
القصر فدخل الملك وبيله صاحب السحابة فاذا بين يديه باب قصر
خلق بال ففتحه ودخل دارا في اقصى قصره فادخله الى بيت نظيف
ليس فيه الا سجادة وقدح للوضوء فجرد الملك ثيابه ولبس ثياب العبادة
ثم قعد واقعد العابد ونادى يا فلانة فقالت لبيك فقال لها اتدرين من
ضيفنا في هذا اليوم فقالت نعم هو صاحب السحابة فقال اخرجي لا عليك
منه فاذا امراته كانها الخيال * وكان في وجهها الهلال * عليها جبة
صوف وقناع صوف فقال الملك يا اخي انه كان لي في هذا الامر اباء
كرام يتداولون الملكة ويتوارثونها كابرا عن كابر الى ان ماتوا ووصل الامر
لي وبغض الله لي الدنيا فاردت ان اسيح في الارض واترك الناس
ينظرون لانفسهم فخفت عليهم من دخول الفتنة وتضييع الشرايع وتشتيت
شمل الدين فبايعوني مكرها فتركت امورهم على ما كانت عليه وجعلت
العبيد على الابواب ارهابا لاهل الشر وردا عن اهل الخير واقامة للحدود فاذا
فرغت من ذلك كله دخلت منزلي وازلت هذه الاثواب ولبست ما لا
اسال عنه وهذه ابنة عمي وافقتني على الزهادة والعبادة ونحن على هذه الحالة
منذ اربعين سنة ثم قال لي بت الليلة عندنا فبت عندهما ثم قاما يصليان
ويبكيان الى السحر * ولما كان عند السحر قال اللهم ان هذا يطلب
منك رد سحابته فارددها اليه قال وامنت الزوجة قال فاذا بالسحابة قد نشات
في السمآء فقالا لي البشارة قال فودعتهما وانصرفت والسحابة تتبعني فانا
بعد ذلك لا اسال الله تعالى بحرمتهما شيا الا اجابني فانظر يا بني هذا
الملك كيف كانت حالته في خلافته وصلاحه وحزمه وكفايته جمع
بعقله بين الدنيا والاخرة فكان ظاهره حسنا وباطنه احسن فهذا هو العقل
التام فكذالك ينبغي لك يا بني ان تكون فافهم * القسم الثاني *
وهو الملك الذي له عقل يصلح به اخرته دون دنياه * فهذا له عقل

ناقص وليس له سياسة يا بني وعلامته ان يشتغل بالعبادة * ويجعل ما يتعلق من امور خلافته كالزيادة * ولا يترفه في ملبس ولا مطعم * ولا يهتبل بامور رعيته ولا يهتم * ويشتغل باهل الصلاح ويفرط في الجيش والمال الذي بهما صلاح دنياه واخراه فصارت الولاة تاخذ ماله ولا شعور له بهم * وضاع جيشه بسببه لعدم نظره فيهم * فان دهمه عدو فلعدم نظره في ماله وجنده لا يجد ما يصادم به عدوه عن رعيته * وذلك مما يوول الى خراب ملكه * وتعجيل هلكه * لعدم اكتراثه بامور رعيته واتباعه * فما جنى على نفسه اعظم مما رجا في انقطاعه * وقد قال عمر رضي الله عنه ليس الرجل رجل الاخرة وانما الرجل رجل الدنيا والاخرة * وروي عن المامون انه انشله مروان بن ابي حفصة الشاعر هذا البيت *

* اضحى امام الهدى المامون مشتغلا * بالدين والناس بالدنيا مشاغيل *

فلم يلتفت اليه * ولا رفع راسه ولا عرج عليه * فقال مروان لعمارة بن عقيل ان امير المومنين لا يجيد النظر في الشعر فقال عمارة ومَن ذا الذي يكون اجود منه نظرا في الشعر والله انا لننشد اول البيت فيسبق الى آخره من غير ان يكون سمعه فقال مروان لقد انشدته بيتا اجدت فيه فلم اره رفع له راسا يعني البيت المتقدم فقال عمارة ما زدت على ان جعلته عابدا في محراب في يده سبحة فان كان امير المومنين مشغولا بالدين عن الدنيا فمَن يقوم بامر الدنيا وهو المقلد بامورها هلا قلت كما قال عمك جرير لعبد العزيز بن الوليد حيث قال *

* فلا هو في الدنيا مضيع نصيبه * ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله *

فانظر المامون كيف عاب المدح له بالاقتصار على امر الدين وترك ما قلد من امر الدنيا واجتهد يا بني ان تجمع بين الدنيا والاخرة *

* القسم الثالث * وهو الملك الذي له عقل يصلح به دنياه دون اخراه * فهذا يا بني له سياسة وعقل تام ويرجى ثبوت ملكه * وانتظام سلكه * لحسن سياسته التي يقيم بها امر رعيته * وان كان يظهر بخلاف ما في طويته * فامره راجع الى مولاه * في ما اسره واخفاه * فهو يجري في

الناس على عوايدهم المالوفة * واحوالهم المعروفة * وان احدث على رعيته
زيادة * لم يشعروا بها حتى كانها عادة * وذلك من لطف سياسته *
وحسن تدبيره ورياسته * يعامل رعيته بما يجذب به نفوسهم * ويوجب
الفتهم وتانيسهم * ويصلح امورهم * ويحوط خاصتهم وجمهورهم * هذا وان كان
قد ضيع امر آخرته * واصلح دنياه بحسن محاولته * فيرجى له دوام
دولته وبقآء مملكته * ودليل هذا انتظام ملك فارس وغيرهم * لسياستهم
مع كفرهم * وكثير من ذلك موجود * في جميع الوجود * كابي جعفر المنصور
فانه اصلح دنياه * واتبع في خلافته هواه * ولم يعتبر في اكثر اموره اخراه *
ومن احواله مع ابن ابي ذيب وملك بن انس وابن سمعان ما يروى
ان ملك بن انس قال رقا الملاقون والمشاؤون بالنميمة عني الى ابي
جعفر المنصور بكلام كان قد حفظ علي فاتاني رسوله ونحن بمنى وذلك
بعد مفارقتي له وخروجي من عنده فلما اعلمني الرسول بذلك لم اشك انه
القتل ففرغت من عهدي واغتسلت وتوضات ولبست ثياب كفني وتحنطت
ثم هبطت فدخلت السرادق وهو قاعد على فراش قد نظم بالدر والياقوت
الاحمر والزمرد الاخضر * حكي انه كان من فرش هشام بن عبد الملك
كان قد اهداه له صاحب القسطنطينية لا يعرف ثمنه ولا يدرى ما
قيمته والشموع تحترق بين يديه وهو ينظر في صحيفة بيديه وابن ابي
ذيب وابن سمعان قائمان امامه فلما ان صرت حوله سلمت
فرفع راسه فنظر الي وتبسم وهو شبه المغضب ثم رمى بالصحيفة واشار
الى موضع عن يمينه اقعد عليه فلما جلست واخذت مقعدي وسكن روعي
رفعت راسي انظر نلقاءي فاذا بواقف عليه درع وبيده سيف قد شهره
وهم اجمعون قد اصغوا اليه ورمقوه بابصارهم خوفا ان يامر في احد فيجده
غافلا ثم التفت الينا فقال اما بعد فقد بلغ امير المومنين عنكم معشر الفقهآء
ما قد اشحن صدره وضاق به ذرعا وكنتم احق الناس بالكف من السنتكم
واولى الناس بالطاعة والمناصحة في السر والعلانية قال ملك قلت
يا امير المومنين قال الله تعالى يايها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبإ

فتبينوا ان تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين * فقال ابو جعفر على ذلكم فتكلموا اي الرجال انا عندكم من ايمة العدل ام من ايمة الجور فقلت يا امير المومنين انا متوسل اليك بالله العظيم ومحمد عليه السلام وبقرابتك منه الا اعفيتني من الكلام في هذا فقال قد اعفاك امير المومنين ثم التفت الى ابن سمعان فقال له ايها القاضي اي الرجال انا عندك ناشدتك الله تبارك وتعالى قال ابن سمعان انت والله يا امير المومنين خير الرجال بك يحج الى بيت الله الحرام ويجاهد العدو وتامن السبل ويامن الضعيف من ان ياكله القوي وبك قوام الدين فانت خير الرجال واعدل الايمة * ثم التفت الى ابن ابي ذيب فقال له ناشدتك الله اي الرجال انا عندك قال انت والله عندي شر الرجال لانك استاثرت بمال الله ورسوله وسهم ذوي القربى واليتامى والمساكين واهلكت الضعيف واتعبت الاقوياء في اموالهم وسفكت الدماء في غير حقها فما حجتك عند الله غدا بين يديه عز وجل فقال ابو جعفر ويحك اتغفل انظر ما امامك قال نعم قد رايت اسيافا وانما هو الموت ولا بد منه فما لا بد منه عاجله خير من آجله قال مالك ثم خرجوا وجلست فقال لي اني لاجد رائحة الحنوط عليك فقلت اجل لما نمى اليك عني ما نمى ثم جاءني رسولك في الليل لم اشك انه القتل فاغتسلت وتحنطت ولبست ثياب كفني فقال ابو جعفر سبحان الله ما كنت لاسلم الاسلام واسعى في نقضه وهدمه او ما تراني واقفا في اقامة اود الاسلام وعز الايمان عائذا بالله مما قلت يا اباعبد الله انصرف راشدا مهديا الى مصرك وان احببت ما عندنا فنحن لا نوثر عليك احدا ولا نعدل بك مخلوقا فقلت ان يجبرني امير المومنين على ذلك فسمعا وطاعة وان يخيرني اخترت العافية ولزوم هذا المحل الكريم فقال ما كنت لاجبرك ولا اكرهك انقلب معافى مكلوا قال قال فانقلبت فبت ليلي فلما اصبحنا امر ابو جعفر بصرر دنانير في كل صرة خمسة الاف درهم ثم دعا برجل من شرطه فقال له تقبض هذا المال وتدفع الى كل رجل منهم صرة وارع ما اقول لك اما ملك بن انس

فان اخذها فسيله لا جناح عليه في ما فعل * وان اخذها ابن ابي ذيب
فاتني براسه وان تركها فهي عليه عافية * وان يكن بن سمعان يردها
فاتني براسه وان اخذها فسيله فنهض بها الى القوم فاما ابن سمعان
فاخذ وسلم * واما ابن ابي ذيب فرد فسلم * واما انا فكنت والله محتاجا
اليه فاخذتها ثم رحل ابوجعفر الى العراق وكعبد الملك بن مروان
وتجرمه وتوليته الحجاج بن يوسف على العراق فمن دهائه ان العامة
تنسب الظلم الى الحجاج لا اليه واما الخاصة فلا ترد اللوم الا عليه وما
سفك الحجاج من الدماء فانما هو في الحقيقة على يديه وكذلك حصار مكة
وهدم الكعبة فالحجاج سيئة من سيئات عبد الملك فهولاء اصلحوا
دنياهم وغفلوا عن اخراهم فينبغي لك يا بني ان تتحلى بحسن سياستهم *
وتتجنب ما احدثوه من ظلم في رياستهم * القسم الرابع *
ملك له عقل لا يصلح به دنياه ولا آخرته * فهذا يا بني له عقل
ناقص ولا سياسة له وعلامته ان يجور على رعيته ويسيء اليهم * ويحدث
الحوادث عليهم * ويحسن لمن اساء ويسيء لمن احسن * ويبطن
خلاف ما اظهر ويظهر خلاف ما ابطن * هذا مع انهماكه في لذاته *
واستغراقه في شهواته * واشتغاله في جميع اوقاته * وتقليد الامور غير
مستحقيها * وتوليتها غير اهليها * وهذه افعال الشياطين * لا افعال السلاطين *
وشيم الفتاك * لا سير الاملاك * وهذا غلب هواه على عقله * فظهر في
تصرفه من الفساد ما انكر من فعله * وجنايته على نفسه وعلى رعيته *
اضرت باولويته واخرويته * فهذا ولو رئي انه عاقل * فليس له في
الحقيقة عقل ولا سياسة لفساد دنياه وآخرته ويرى انه بلغ من دنياه
طائلا وهذا كالوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان فانه كان كبير
الهتار * خالعا في الانهماك العذار * سيء السيرة خبيث السريرة * جانيا
على اهله * مسيئا في فعله * احدث في قريش الاحداث العظيمة * واخذ
فيهم بالماثر الذميمة * هتك حرمهم * وخفر ذممهم * وسفك دماءهم *
وخرب علياءهم * وكان لا يرعوي لعذل عاذل * ولا يثني عنانا لقول

قايل * الى ان اقعده هتكه * وساء به فتكه * فانتثر سلكه * فمن اشتهاره في المدام * وانهماكه مع الندام * انه سمع عن ابن شراعة الكوفي وكان منهمكا كثيرا * وفاتكا شهيرا * فبعث اليه من الكوفة وعند ما وصل اليه * وتمثل بين يديه * قال له يا ابن شراعة ما ارسلت اليك ان اسالك عن كتاب الله ولا سنة نبيه * فقال له المنهمك والله لو سالتني عنهما لوجدتني حمارا * قال انما ارسلت اليك لاسالك عن القهوة * فقال انا دهقانها الخبير * ولقمانها الحكيم * وطبيبها الماهر * فاجابه بما يقبح ذكره * ويطوى نشره * فلما كثر تخلعه وانهماكه * واطراحه لسياسة الخلافة وانتهاكه * اجمعوا على قتله وسفك دمه * وولوا الخلافة ابن عمه * فكانت خلافته عاما واحدا وشهرين وعشرين يوما وهذا ايضا كالامين بن هرون الرشيد فانه كان ضعيف الراي ناقص العقل فليس للسياسة غير محسن للرياسة قدمه اخوه هرون * على اخيه المامون * لشرف امه زبيدة * ولجلالة خاله عيسى بن جعفر وتعصب بني هاشم * وكان الرشيد اعرف بمن هو اولى منهما بالتقديم لاكنه غلب عليه وفي ذلك يقول الرشيد *

* لقد بان وجه الراي لي غير انني * غلبت عن الراي الذي كان احزما *
* وكيف يرد الدر في الضرع بعد ما * توزع حتى صار نهبا مقسما *
* اخاف التواء الامر بعد استوائه * وان ينقض الحبل الذي كان ابرما *

ولم يتول الخلافة هاشمي ابن هاشمية بعد الحسن بن علي بن ابي طالب رضي الله عنه غير الامين حكي ان امه رات في الليلة التي علقت به كان ثلاث نسوة دخلن عليها فدنت احديهن فوضعت يدها على بطنها * ثم قالت ملك ضخم * عظيم البذل * ثقيل الحمل * نكد الامر * ثم قامت الثانية ففعلت مثل فعل الاولى * وقالت الثالثة ملك عظيم الاتلاف * كثير الخلاف * قليل الانصاف * قالت ام جعفر فانتبهت وانا فازعة * فلما كان في الليلة التي وضعت فيها محمد الامين دخلن علي في الصورة التي وردن علي فيها فقعدن عند راسي فقالت احديهن

شجرة نضرة * وريحانة عطرة * وروضة زهرة * وقالت الثانية عين غدقة * قليل لبثها * سريع فناوها * عاجل ذهابها * وقالت الثالثة عدو لنفسه * ضعيف بطشه * سريع غشه * مزال عرشه * فاستيقظت من نومي * وانا فزعة فاخبرت بذلك بعض قهارمتي * فقال هو بعض ما يطرق النايم * فلما تم فصاله اخذت مرقدي فدخلن علي ومحمد امامي في مهد فوقفن على راسي واقبلن على ولدي فقالت احديهن ملك جبار * متلاف مهدار * بعيد الاثار * سريع العثار * ثم قالت الثانية ناطق مخصوم * ومحارب مهزوم * وراغب محروم * وقالت الثالثة احفروا قبره * وشقوا لحده * واعدوا جهازه * وقربوا اكفانه * فان موته خير من حياته * وكان المامون هذا ضعيف العقل ذكر ابراهيم بن المهدي قال استاذنت على الامين وقد اشتد عليه الحصار من كل جهة فابوا ان ياذنوا لي في الدخول الى ان كابرت ودخلت فاذا هو قد قطع دجلة بالشباك وكان لها مخترق في وسط القصر وفي المخترق شباك حديد فسلمت عليه وهو مقبل على الماء والخدم والغلمان قد انتشروا في البركة وهو كالوالة فقال لي وقد ثنيت السلام عليه لا توذني يا عمي قد ذهبت مقرطتي من البركة الى دجلة والمقرطة سمكة كانت صيدت له صغيرة فقرطها بحلقتي ذهب فيهما حبتا جوهر فخرجت وانا ءايس من فلاحه * فلا ينبغي لك يا بني ان تكون مثل هولاء الذين افسدوا ءاخرتهم ودنياهم بفساد نياتهم وشهواتهم *

* القاعدة الثانية وهي قاعدة السياسة *

اعلم يا بني ان اصل السياسة التدبير * ولا يكون التدبير الا بفكر صايب سليم لانه من تفكر تدبر * ومن تدبر تخير وتحذر * وكاد الحذر ان ينجي من القدر * ومن حسنت سياسته * عظمت رياسته * والفكرة مرءاة تريك حسنك من قبحك * فلا تهجم على امر الا بعد فكرة وروية * ولا تنفذ الا عن بصيرة * لان من طال تفكره حسن تدبره * ومن ركب العجلة لم يامن الكبوة والزلة * الا في انتهاز الفرصة * او ازالة الغصة * ومن نظر في العواقب * امن من المصايب * ومن لم يستعمل فكرته * في ما عليه

ولم مانت فطنته * وطالت حسرته * وعميت بصيرته * فقدم النظر الصحيح قبل افعالك * فهو انجح لاحوالك * فاذا تقرر هذا عندك * فاعلم يا بني ان الملك بالنسبة الى السياسة على اربعة اقسام *

* القسم الاول * ان تكون سياسة الملك عن تدبير سديد * وراي مصيب رشيد * اعلم يا بني انه ينبغي لك ان تتدبر في وزرائك وجلسائك وكتابك وفقهائك وقضاتك واعوانك وعمالك وقوادك واجنادك فاما وزراءك يا بني فيجب عليك ان تختار وزيرا كبيرا * مهذبا خطيرا * بالامور بصيرا * يجمع من محمود الخلال * ثمانية من الخصال * وهي ان يكون من خيار قومه وعترته * وكبير عشيرته وبيته * وان يكون وافر العقل * عاريا عن الجهل * حاضر الذهن * سريع الفهم * راجح الراي محمود السعي * محبا ناصحا * ودودا صالحا * شجاعا في المهمات * وعند نزول الملمات * حسن الصورة فصيح اللسان * بديع العبارة بليغ البيان * كثير المال * غير ذي حاجة ولا اقلال * اما كونه من خيار قومه وعشيرته * فلانه يكون محافظا على بيته ومروته مجانبا للنقايص والشبهات * متنزها عن المعايب في جميع الحالات * واما كونه وافر العقل * واضح الفضل * فلانه يكون محافظا على سرك اذا اودعته سرك * مدبرا على ما يعود عليك بالمصلحة دهرك * صادقا في خبره وخبره * غير مغتاب لاحد ولا ساع في ضرره * وفي العهد * جيد التعهد * لان الوزراء ابواب الملوك منها يتوصل الى الخير * وبها يتقى من الضير * واما كونه يا بني حاضر الذهن * سريع الفهم * فلان لا يدخله في تصرفاته وهم * وليفهم الاشياء بادنى اشارة * ويتفطن للامور بغير عبارة * واما كونه يا بني محبا في سلطانك * فلان يكون ناصحا في خدمتك مقبلا على شانك * فلا يغش سلطانك لمحبته فيك * بل يتبع غرضك ويوفيك * ولا يدخل عليك الا بجلب مسرة * او دفع مضرة * واما كونه يا بني راجح العقل والراي * فلان يسعى في المصالح بجده وحزمه احسن سعي * وان اشكل عليك شيء من ارائك * ردك بحسن مشاركته الى ما يصلح رايك *

وربما كان في بعض الاحيان في رايك تقصير * فيصلح عليك هذا الوزير بحسن التدبير * وينبهك على الغلط في التقدير * واما كونه شجاعا عند نزول المهمات * فلانه يجزي عنك في الحركات * ولا ياجئك في الحروب الى الملاقاة الا في الامور العظيمة * والخطوب الجسيمة * التي لا بد فيها من حضور السلطان * بجميع الابطال والشجعان * واما كونه كثير المال والثروة * فليستغني بثروته عن الطمع والرشوة * فيكثر به الانتفاع * وتقل منه الاطماع * واما كونه حسن السيرة فصيح اللسان * فلانه جمال ملكك * وترجمانه الواضح البيان * فاذا كملت هذه الاوصاف في الوزير * وصلحت به امور المملكة في القليل والكثير * كان لك في الوزارة اقوى نصير * وانصح مشير * وانتظم به الملك * انتظام السلك * ودل ذلك على عقلك حين استوزرته في ما رايته من تقديمه للوزارة ودبرته * ومع ما ذكرنا من الاختيار * فلا تخله من الاختبار * وعند الامتحان * يكرم المرء او يهان * فقد راينا من الوزراء من تنبسط الدنيا لديه * فتختل هذه الاوصاف عليه * لطلبه للذاته * واتباعه لشهواته * واخلاده لراحاته * فاذا كان الوزير لا يكترث بالدنيا ولا يتبع فيها الهوى * فذلك نعم الوزير * والمباهى به والظهير * وانما قلنا ينبغي للوزير ان يكون احسن فطنة وسياسة ورايا من الملك لان الملك يسوس من دونه من رعيته * واما الوزير فانه يسوس من فوقه * وهو الملك ومن دونه * وهم الرعية فيحتاج الى فضل سياسة * وحسن فطنة وعقل * فاما سياسته لمن فوقه وهو الملك فيحتاج لما يقابله به وما يوافق غرضه * ويصلح عليه احواله * وما يتقرب به الى سلطانه * واما سياسته لمن دونه * فيحتاج بها الى من يسوسهم باحسن السياسات * وبما يحفظ رتبته عند سلطانه لان الوزير لا بد له من اعداء وحساد على منزلته وطالبين لمرتبته فيحتاج الى التحرز منهم بحسن السياسة فهو بين امرين خوف من فوقه وهو الملك ومن دونه ممن يطمع في مرتبته * ويرغب في منزلته * فاما خوفه ممن فوقه * فانه يخشى ان يقع في مشبهات تسقطه عند

سلطانه * واما خوفه ممّن دونه فانه يخاف ان يفتروا عليه بعض الافتراءات * ويأتوا عليه بالبهتان والاقوال الكاذبات * ومن اعجب الاشيآء ملك صالح ووزير طالح * او ملك طالح ووزير صالح * ومثل هذين كمثل المآء والنار * كل ما انبته الماء من العشب والكلا احرقته النار بحرها * لانه كلما عمل احدهما خيرا افسده الاخر بشره والوزير الصالح وان كان ملكه طالحا انفع واحسن من الوزير الطالح * اذا كان ملكه صالحا * لان الوزير يباشر الاشيآء جليلها وحقيرها وعظيمها وخطيرها * ويصلح على سلطانه * في سره واعلانه * لان الملك لا يصله من الامور الا ما يوصله اليه وزراءه وخاصته وما يريدون ان يوصلوه اليه فلذلك كان الوزير الصالح * خيرا من الملك الصالح * ومثل هذا يسمى بالناصح وقد قالت الحكماء مثل السلطان كمثل الطبيب والرعية كالعليل * والوزير كالسفير بين الطبيب والعليل * فان كذب السفير * بطل التدبير * وكما ان السفير اذا اراد ان يقتل احدا من المرضى وصف للطبيب نقيض دائه * فاذا سقاه الطبيب على نحو ما وصف له السفير هلك * وكذلك الوزير اذا نقل للملك ما ليس في الرجل يقتله الملك فمن هنا شرطنا ان يكون الوزير عاقلا نصوحا صدوقا الى ما قدمناه من الاوصاف ومثل الملك الصالح والوزير السوء الذي يمنع خير الملك الناس ولا يمكنهم من الدنو منه كالماء الصافي يكون فيه التمساح لا يستطيع المرء دخوله وان كان سابحا وللمآء محتاجا * ومن لم تكن فيه خمس خصال لم يرج لشيء من امور الدنيا والاخرة * الحسب في اصله * واللين في خلقه * والكرم في طبعه * والنبل في نفسه * والخوف من ربه * فمن كان من الوزراء جامعا لهذه الامور * كان في سياسته ودهائه كوزير سابور * يحكى انه لما عزم سابور بن هرمز على الدخول لبلاد الروم متنكرا متجسسا نهاه نصحاؤه وحذروه التغرير بنفسه في امر يمكنه ان يستنيب فيه فعصاهم وكان يقال * اشقى الناس وزراء الاحداث من الملوك وعشاق الفتيات من النسآء وكان يقال * انما عسر صرف الاحداث عن غي الهوى

الى رشد الراي لامرين احدهما قوة سلطان الشهوات عليهم * والثاني ان التجارب لم ترض عقولهم على مخالفة هواهم * وذو الحنكة بخلاف ذلك ثم ان سابور توجه نحو بلاد الروم * واستصحب وزيرا كان له ولابيه من قبله * وكان شيخا ذا دهاء وحزم * وسداد راي * وحنكة وبصر بالديانات واللغات * وتبحر في العلوم * وخبرة بالمكايد * فسلم اليه سابور جميع ما يظن انه به اليه الحاجة او تدعو اليه داعية * وامره ان ينحاز عنه في قرب ومراعاة لجميع احواله في نهاره وليله وتوجها نحو الشام * فتزيا ذلك الوزير بزي الرهبان * وتكلم بلسان الجلالقة * وتحرف بصناعة الطب الجراحي * وكان معه الدهن الصيني * الذي اذا دهنت منه الجراح * برئت واندملت في الحال * قال محمد بن ظفر عفا الله عنه * قد رايت جماعة ذكروا انهم راوا هذا الدهن المذكور * وحدثني بعضهم * انه امتحنه بان شرح اللحم ودهنه منه فالتام مكانه فكان ذلك الوزير في مسيره نحو بلاد الروم وبعد ما دخلها يداوي الجراحات بادوية يضيف اليها شيئا يسيرا من ذلك الدهن فتبرى جراحتهم بسرعة واذا عني باحد من ذوي الاقدار داواه بذلك الدهن صرفا فيبرى مكانه ولا ياخذ على المداواة اجرا فانتشر له في بلاد الروم ود وصيت بالعلم والزهد وكان يقال من غرس العلم اجتنى النباهة * ومن غرس الزهد اجتنى العزة * ومن غرس الاحسان اجتنى المحبة * ومن غرس الفكرة اجتنى الحكمة * ومن غرس الوقار اجتنى المهابة * ومن غرس المداراة اجتنى السلامة * ومن غرس الكبر اجتنى المقت * ومن غرس الحرص اجتنى الذل * ومن غرس الطمع اجتنى الخزي * ومن غرس الحسد اجتنى الكمد * وكان يقال الامم على اختلاف اديانها وازمانها وبلدانها متفقة على حمد اخلاق اربعة العلم * والزهد * والاحسان * والامانة * قيل فانطلق سابور ووزيره منفردين الا ان الوزير يراعي احوال سابور اشد المراعاة فلم يزالا على ذلك حتى طرقا جميع الشام وتجاوزا الدرب وقصدا القسطنطينية فقدماها فذهب الوزير الى البطرك وتفسير هذا الاسم ابو الاباء فاستاذن عليه فاذن له

وسالہ عما يريد فاخبرہ انہ هاجر من ارض الجلالقة ليتشرف بخدمتہ و يدخل في اتباعہ واهدى اليہ هدية نفيسة حسن موقعها من البطرك فقربہ واكرمہ واحسن نزلہ والحقہ ببطانتہ واختبرہ فوجدہ لبيبا ممتعا فاعجب بہ غاية الاعجاب وجعل الوزير يتامل اخلاق البطرك ليصحبہ بما يوافقہ و ينفق بہ عندہ ويحسن موقعہ منہ وكان يقال اذا اردت ان تصحب رئيسا فانظر ما ذا يستميلہ و ينفق عندہ من الالات فان كنت مطيقا للعمل بها في طلب اقبالہ عليك وحظوتك عندہ فاقدم عليہ والا فروض نفسك على ذلك حتى تعلم انها قد اطاقتہ واحكمتہ فتقدم على بصيرة قيل فلما تامل وزير سابور اخلاق البطرك وجدہ مائلا الى الفكاهة معجبا بنوادر الاخبار فاخذ الوزير في اتحافہ من ذلك بكل نادرة غريبة * وملحة عجيبة * فلم تطل المدة في صحبتہ حتى حلي بعينہ وصار الصق بہ من شعرات قصہ * وجعل مع ذلك يعالج الجرحى ولا ياخذ على ذلك عوضا فعظم قدرہ في الناس ووسعتہ القلوب وكان يقال اذا كانت القلوب مجبولة على مقة المحسنين وكانت المحبة رقا والاحرار يكرهون الاسترقاق فالحر على الحقيقة من فدى نفسہ من رق المحسنين بمكافاتهم على احسانهم جهدہ حتى اذا لم يستطع فليرق نفسہ لهم معذورا * وجعل الوزير يتعهد احوال سابور في كل وقت الى ان صنع قيصر وليمة وحشد اليها الناس على طبقاتهم وتهدد من تخلف عنها فاراد سابور حضورها ليطلع على هيئة قيصر وهمتہ في قصرہ وذخائرہ فنهاہ وزيرہ عن الغرر بنفسہ فصاد وتزيا بزي وظن انہ يستر بہ امرہ ودخل دار قيصر مع من حضر الوليمة وقد كان قيصر لما بلغہ ما ايد اللہ بہ سابور من لطف الفطنة وعظم الهمة وشدة الباس في حال صباہ حذرہ حذرا شديدا فبعث الى حضرتہ بمصور ماهر فحكى صورة سابور في مجلسہ وحال ركوبہ وغير ذلك من ضروب الاحوال التي شاهدہ المصور عليها وقدم بتلك الصور الى قيصر فامر قيصر بان تصور تلك الصور على فرشہ وستورہ وفي الات اكلہ وشربہ فصنع ذلك على ما امر بہ ورسمہ ولما دخل سابور دار قيصر واستقر

في مجلسه وطعم مع من حضر ذلك المجلس اوتوا بالشراب في كئوس البلور والذهب والفضة والزجاج المحكم وكان في المجلس رجل من حكمآء الروم ودهاتهم ذو فراسة صادقة فلما وقعت عينه على سابور انكره وجعل يتامل شخصه ونظرته واشارته فراى عليه مخايل الرياسة فطفق يستنشقه ولا يصرف بصره عنه فاتي ذلك المتفرس الرومي بكاس فيه صفة سابور فتاملها فانطبعت في نفسه مثالا لذلك الشخص الذي انكره وغلب على ظنه انه سابور فامسك القدح في يده امساكا طويلا ثم قال رافعا صوته ان هذه الصورة التي في هذا القدح تخبرني خبرا عجيبا فقيل له ما الذي تخبرك به هذه الصورة فقال تخبرني هذه الصورة ان الذي هي مثال له معنا في مجلسنا هذا ونظر الى سابور وقد تغير حين سمع مقالته فحقق ما ظنه به واعاد القول فبلغ كلامه قيصر فادناه وساله فاخبره ان سابورا معه في مجلسه واشار اليه فامر قيصر بالقبض على سابور فقبض عليه وقرب من قيصر فساله عن نفسه فتعال بضروب من العلل فقال ذلك المتفرس لا تقبلوا قوله فهو سابور لا محالة فامر قيصر بقتله ليرعبه بذلك فاعترف لهم بانه سابور وكان يقال ان قلوب الحكمآء تستشف الاسرار * من لمحات الابصار * وطال ما دلت اوايل المبصرات * على اواخر المنتظرات * وقيل كما ان الابصار مراءي تنطبع فيها المشاهدات اذا سلمت من صدء الافات * فكذلك العقول مراءي تنطبع فيها الغايات * اذا سلمت من صدء الشهوات * وقيل من الادلة على مكاشفة الله القلوب * ببعض الغيوب * ان الانسان قد يتوقع الشيء على نحو ما يقع منه فقد يرى الانسان الانسان فيحبه لغير احسان فرط منه اليه * او يبغضه لغير اساءة جناها عليه * ثم يكون منه الاحسان او الاساءة قيل ولما اعترف سابور بصدق ذلك المتفرس حبسه قيصر مكرما وامر فجعلت له من جلود البقر صورة بقرة كاعظم ما يكون من البقر وطبقت عليها الجلود سبع طبقات واتخذ لها بابا من اعلاها في ظهر الصورة يدخل اليها ويخرج منها وجعلت فيها كوة من اسفلها في موضع المبال وامر بسابور

فجمعت يداه الى عنقه بجامعة من الذهب ذات سلسلة ليمكنه معها تناول ما يصلحه من طعام وغيره وادخل سابور في جوف تلك الصورة وهذا بعد ان حشد قيصر جنوده واستعد لغزو بلاد الفرس ووكل بتلك الصورة التي سجن بها سابور مائة رجل من ذوي الباس والقوة يحملونها دولا بينهم وجعل على كل خمسة منهم رئيسا يضبط امرهم وصرف امر جميعهم الى المطران ومعنى هذا اللقب صاحب البلد الا انها رياسة دينية وهو خليفة البطرك فكانت تلك الصورة التي فيها سابور تحمل بين يديه فاذا نزل العسكر انزلت الصورة المذكورة في متوسط العسكر وضربت عليها قبة تسترها واطاف بها خمسون من الموكلين بها ورؤساؤهم معهم وضربت حولها عشر قباب مستديرة بها وكان في كل قبة خمسة ورئيسهم معهم وضربت للمطران قبة بمجاورة قبة سابور وضربت خارج القباب كلها خيمة يصنع فيها طعام الموكلين بقبة سابور على حسب اقدارهم ومراتبهم وسار قيصر محتفلا في جنوده وقد عزم على اخراب بلاد الفرس وتعفية معالم ذكرهم لعلمه الا دافع يدفعه عنهم وكان يقال الحزم التزام مداجاة العدو ما دامت لدولته ريح اقبال كما ان العجز اضاعة الفرصة فيها اذا ادبرت دولته وركدت ريح اقباله وكان يقال العاقل لا يكون في سلطان ملك اجتمعت فيه خصلتان الانهماك في اللذات واضاعة الفرص وكان يقال تميز الملوك عن السوقة انما يكون بفضيلة الذات * لا بفضيلة الالات * وفضيلة ذات الملك بخمس خصال * رحمة تشمل رعيته * ويقظة تحوطهم * وصولة تذب عنهم * ولبابة يكيد بها الاعداء * وحزامة ينتهز بها الفرص * فهذه فضيلة الذات واما فضيلة الادوات فاتخاذ المباني الوثيقة العلية * والملابس الانيقة السرية * والذخيرة النفيسة السنية * والمطاعم اللذيذة الشهية * والمراكب الشريفة البهية * فهذه فضيلة تفضل بها هذه الادوات على ما هو دونها من اجناسها * فيكون للقصر فضل على غيره من القصور * وللثوب فضل على غيره من الثياب * وللذخيرة فضل على غيرها من الذخاير * وللطعام فضل على غيره من الاطعمة * وللدابة

فضل على غيرها من اللذات * فالفضيلة لهذه الاشيآء لا لمالكها قيل فلما سار قيصر بجنوده ومعه سابور على الهيئة التي ذكرناها قال وزير سابور للبطرك * ان مما استفدت بخدمتك والقرب منك الرغبة في صالح الاعمال وانه لاعمل انفس من تنفيس كربة عن مجهود وجر نفع الى مضطر وقد علمت كفايتي في معاناة الجرحى وان نفسي لتنازعني الى صحبة الملك قيصر في سفره هذا فلعل الله ان يستنقذ بي نفسا صالحة يترحم علي من اجلها ويقدس قلبي بخدمتها ويحفظني لها * فكره البطرك ذلك وقال له قد علمت اني لا استطيع فراقك ساعة فكيف تطالبني بالسفر البعيد عني ما ظننت انك تلقاني بما اكرهه وتسومني ما يشق علي احتماله كما لم اظنك توثر شيئا من الاشياء على القرب مني والتحبب الي فقد ازلتني عن حسن ظني بك ولم يزل الوزير يضرع الى البطرك ويتملقه ويقرب له العود الى ان سمح له بذلك فاذن له وزوده وكتب معه كتابا الى المطران يخبره فيه انه قد بعث اليه بسويداء قلبه وسواد بصره فليحله من نفسه باعلى المراتب وليستضيء به في ما اشكل عليه * فقدم الوزير على المطران فعرف حقه وانزله معه في قبته وجعل زمام امره ونهيه بيده * وجعل الوزير يتنفق عند المطران بما يعجبه ويستميله بما يميل اليه ويطربه كل ليلة باخبار ممتعة رافعا بها صوته ليسمع سابور حديثه فيتسلى بذلك ويدس في احاديثه ما يحب ان يعلمه سابور من الاخبار ويفطنه له من الاسرار فكان سابور يجد لذلك اعظم راحة * وكان الوزير قد اعد لخلاص سابور انواعا من المكايد رتبها واسسها عند ما قدم على المطران وكان يقال من ظن من الملوك ان لفطنته فضيلة على فطنة وزيره فقد غلط وان اضاف الى هذا الغلط مخالفة الوزير لم يفلح وانما كانت فطن الوزراء اثقب من فطن الملوك لان الملوك يتفقهون ابدا في سياسة من دونهم من الرعايا لا غير والوزراء يتفقهون في سياسة الملوك وسياسة الرعايا فهم اشبه شيء بالجوارح التي تصيد وتفترس وتصيدها ايضا جوارح اشد منها فهي اعرف الجوارح بمكايد الاحتراس *

ومكايد الاكتساب وكان يقال احسن الوزراء حالا من اعد لكل امر يجوز وقوعه ويمكن كونه عدة فاذا وقع الامر قابله بما كان اعد له واسوا الوزراء حالا من توكل على لطف فطنته وقوة حيلته ودربة ممارسته فترك الاعداد للامور قبل نزولها ثقة بنفسه وانما هو في ذلك بمنزلة من ترك تزوير القول واعداده وتوريته توكلا على فصاحة لسانه وقوة بديهته وحسن ارتجاله فيوشك ان يستولي عليه العي والحصر في بعض مقاماته وهو بمنزلة من ترك حمل السلاح توكلا على قوة بدنه وشجاعة قلبه فيوشك ان يظفر به عدوه في بعض المواطن قال وكان من المكايد التي اعد وزير سابور انه امتنع من مواكلة المطران وزعم انه لا يريد ان يخلط بالطعام الذي زوده البطرك طعاما غيره لما يرجوه من بركته وبركة الاغتذآء به فكان اذا حضر طعام المطران اخرج هو من ذلك الزاد فانفرد بالاكل منه فلم يزل قيصر سائرا بجنوده حتى بلغ ارض فارس فاكثر فيها القتل والسبي وتعوير المياه وقطع الشجر واخراب القرى والحصون * وهو مع ذلك يواصل السير مبادرا ليستولي على دار ملك سابور ويباعت من بها من رؤساء الفرس قبل ان يملكوا عليهم رجلا ولم يكن للفرس هم الا الفرار بين يديه والاعتصام منه بالمعاقل * فلم يزل قيصر على ذلك حتى اتى مدينة سابور وقراره ومحل ملكه * وهي المسماة بجندي سابور فاحاط بها جنوده ونصب عليها المجانيق ولم يكن عند من بها من عظمآء الفرس حيلة في دفعه باكثر من ضبط الاسوار * والقتال عليها وكل هذا قد علمه سابور على التفصيل بما يفهمه اياه وزيره ويدسه في احاديثه من الاشارات والرموز والكنايات وكان سابور لم يسمع منه كلمة منذ سجنه قيصر في تلك الصورة فلما عرف سابور ان قيصر قد نقلت وطئته على اهل جندي سابور وقد ثلم الاسوار بالمجانيق واشرف على افتتاح المدينة عيل صبره وساء ظنه بوزيره وجزع ويئس من النجاة مما هو فيه فلما جاءه الموكل به بطعامه وشرابه قال له ان هذه الجامعة قد نالت مني منالا ضعفت عن احتماله فان كنتم تريدون بقآء نفسي فنفسوا عني منها واجعلوا

بينها وبين عنقي ويدي خرقا من الحرير فجاء الموكل بطعامه الى المطران فاعلمه بمقالة سابور وسمعه وزير سابور فعلم ان سابور قد جزع وساء ظنه وفطن لما قصد سابور فلما جن الليل وجاس لمسامرة المطران قال له لقد ذكرت الليلة حديثا عجيبا ما ذكرته منذ كذا وكذا سنة ولوددت اني كنت حدثت به البطرك قبل سفري عنه فقال المطران اني ارغب اليك ان تحدثني به الليلة ايها الحكيم الراهب قال الوزير حبا وكرامة ثم اندفع يحدثه رافعا صوته ليسمع سابور فقال له انه كان عندنا بجيلقية فتى وفتاة في نهاية الحسن والظرف اسم الفتى ما معناه عين اهله واسم الفتاة ما معناه سيدة النار وكانا زوجين موتلفين متحابين لا يبتغي احدهما بالاخر بدلا وان عين اهله جلس يوما مع اصحابه يتحدثون فتذاكروا النساء الى ان وصف احدهم امراة بالجمال البارع والظرف الرايع اسمها ما معناه سيدة الذهب فوقع بقلب عين اهله ميل اليها فسال الواصف لها عن منزلها فذكر له انها بقرية غير قرية عين اهله ففكر عين اهله في امرها وخامره حبها وطمحت نفسه اليها طموحا شديدا وكان يقال العقل كالبعل والنفس كالزوجة والجسم كالبيت لهما فاذا كان سلطان العقل على النفس مبسوطا اشتغلت النفس بمصالح الجسم كاشتغال المراة التي قهرها بعلها بمصالح نفسها وبيتها وولدها وبعلها فصلحت الجملة * واذا كان السلطان للنفس على العقل كان سعي النفس فاسدا ونزعاتها مذمومة كفعل المراة التي قهرت بعلها قيل فانطلق عين اهله الى القرية التي تسكن بها سيدة الذهب وطلب منزلها حتى عرفه ولم يزل يتردد اليه حتى رءاها فراى منظرا عظيما عجيبا ولم تكن احسن من امراته ولا كنه كان يقال من ضرورة النفس ان تحن الى التنقل في الاحوال اذ كانت نقلت بالتركيب الى عالم الكون والفساد ثم تنقل بالتفريق الى عالم الفساد وما افتتح امره واختتم بالنقله فاليق الاحوال بتوسطه النقلة ونازعت عين اهله نفسه الى الاستكثار من روية سيدة الذهب فلزم المعاودة الى منزلها والتمتع بتاملها حتى فطن له بعلها

وكان جافيا غليظ الطبع قاسي القلب شديد البطش يسمى الذئب فرصد عين اهله حتى مر به فلما رءاه وثب عليه فقتل فرسه ومزق ثيابه وتعتعه وعنف عليه واستعان باصحاب له فاحتملوا عين اهله وادخلوه الى دار الذئب وربطوه الى سارية في بيت من بيوتها ووكل به الذئب عجوزا قطعاء اليد جدعاء الانف عوراء العين شوهاء الحالة فلما جن الليل اوقدت تلك العجوز نارا بالقرب من عين اهله وجعلت تصطلي فتذكر عين اهله ما كان فيه من السلامة والرفاهية والعز فزفر زفرة عالية فاقبلت عليه العجوز وقالت له ايها الفتى ما ذنبك الذي اوردك موارد الذلة والشدة * فقال عين اهله ما علمت ان لي ذنبا فقالت العجوز هاكذا قال الفرس للخنزير فلم يصدقه الخنزير ثم باحثه عن امره فظهر على ما خفي عنه وعلم صدق ظن الخنزير فقال عين اهله للعجوز ان رايت ان تحدثيني بذلك وكيف كان فانك تحسنين الي به فقالت العجوز ذكر ان فرسا كان لرجل من الشجعان فكان يكرمه ويحبه ويحسن القيام عليه ويعلله لمهماته ولا يصبر عنه ساعة وكان يخرج به في الغدوات الى مرج فيزيل عنه سرجه ولجامه ويطيل رسنه فيتمرغ ويرعى حتى ترتفع الشمس فيرده وانه خرج يوما الى المرج ونزل عنه فلما استقرت قدمه على الارض نفر الفرس وجمح ومر يعدو بسرجه ولجامه فطلبه الفارس يومه كله فاعجزه وغاب عن عينه عند غروب الشمس فرجع الفارس الى اهله وقد يئس من الفرس ولما انقطع الطلب عن الفرس واظلم عليه الليل رام ان يرعى فمنعه اللجام ورام ان يتمرغ فمنعه السرج ورام ان يستقر على احد جنبيه فمنعه من ذلك الركابان فبات بشر ليلة * ولما اصبح ذهب يبتغي فرجا مما هو فيه فاعترضه نهر فدخله ليقطع الى ضفته الاخرى فاذا هو بعيد التعر فسبح فيه وكان حزامه ولببه جلدا لم يبالغ في دبغه فلما خرج من النهر اصابت الشمس الحزام واللبب فيبسا واشتدا عليه فورم لبابه ومحزمه واشتد الضرر عليه الى ما به من الجوع فلبث كذلك اياما الى ان ضعف عن المشي لذهاب قواه فاقام في موضعه ذلك فمر به خنزير فهم بقتله ثم

عطفه عليه ما رءاه به من الضعف فساله عن خبره وحاله فاخبره بما هو فيه من اضرار اللجام واللبب والحرام وساله ان يصطنع عنده معروفا ويخلصه مما ابتلي به فساله الخنزير عن الذنب الذي استحق به تلك العقوبة فزعم الفرس ان لا ذنب له * فقال له الخنزير كلا بل انت كاذب في زعمك او جاهل بجرمك فان كنت يا فرس كاذبا فما ينبغي لي ان انفس عنك خناقا ولا اطلب فيك اجرا وانه كان يقال اذا رايت نفسا قد تشبث بها عالم الفساد فكلها اليه فانه اللايق بها لفساد تركيبها والدليل على فساد تركيب نفس الكذاب انها مضطربة معرضة عن الحقيقة في الحوادث ونزاعة الى العدم المحض فيتصور العدم وجودا والباطل حقا وتصور ذلك في نفس المغتر بها الراكن الى قولها وكان يقال احذر مقارنة ذوي الطباع المرذولة ليلا تسرق طباعك من طباعهم وانت لا تشعر وكان يقال لا تطمع في استصلاح الرذل والحصول على مصافاته فان طباعه اصدق اليه منك فلن يترك طباعه لك * ثم قال الخنزير وان كنت يا فرس جاهلا بجرمك الذي استوجبت به هذه العقوبة فجهلك بذنبك اعظم منه فمن جهل ذنوبه واصر عليها لم يرج فلاحه وكان يقال احذر الجاهل فانه يجني على نفسه واست احب اليه منها وكان يقال ما شيء اشبه بالكذب من الجهل وذلك لان الكذاب يتناسى الصورة والقضية المحسوستين ويتخيل الكذب الذي هو ضدها حتى ينطبع ذلك في عقله ويترك الصواب عمدا الى غيره * والجاهل يرى الاشياء على خلاف ما هي عليه فيرى القبيح حسنا والحسن قبيحا * وانما الفرق بين الجاهل والكذاب ان الكاذب ياتي ما يعلم خطاه فيه والجاهل لا يعلم ذلك فهو على نفسه وعلى غيره اشد جناية من الكذاب فقال الفرس للخنزير ينبغي لك ان لا تزهد في اصطناع المعروف فقال الخنزير اني لست بزاهد في ذلك ولكنه كان يقال العاقل يتخير لمعروفه كما يتخير الباذر لحبوبه الذي يبذر ما زكى من الارض * فحدثني يا فرس عن ابتداء امرك في ما نزل بك وعن حالك قبل ذلك لاعلم من اين دهيت

فحدثه الفرس بجميع امره وكيف كان عند فارسه وكيف فارقه وما لقي في طريقه الى حين اجتماعه بالخنزير فقال له الخنزير قد ظهر لي انك جاهل بجرمك وان لك ذنوبا ستة * اولها خذلانك فارسك الذي احسن اليك واعدك للمهمات * والثاني كفرك لاحسانه * والثالث اضرارك به في طلبك * والرابع تعديك على ما ليس لك وهو السرج واللجام * والخامس اساءتك لنفسك بتعاطيك التوحش الذي لست له اهلا ولا لك عليه مقدرة * والسادس اصرارك في نفسك على ذنبك وتماديك في غوايتك فقد كنت متمكنا من العود الى فارسك والاستقالة من فرط جهلك قبل ان يوهنك اللجام بالجوع واللبب والحزام بالضبط فقال الفرس للخنزير اما اذ عرفتني ذنوبي وايقظتني لما كنت ذاهلا عنه محجوبا بحجاب الجهل فانطلق الان ودعني فاني مستحق لاضعاف ما انا فيه فقال له الخنزير اما اذ اعترفت وفطنت لهذا القدر ولمت نفسك ووبختها واخترت لنفسك العقوبة على جهلها واستعملت الحكمة التي وعيتها فانك حقيق بان ينفس عنك وقيل ان الاب لوقا كتب على باب بيته لن ينتفع بحكمتنا الا من عرف نفسه ووقف بها عند قدرها فمن كان بهذه الصفة فليدخل والا فليرجع حتى يكون بهذه الصفة ثم ان الخنزير قطع عذار اللجام فسقط وقطع الحزام فنفس عن الفرس * قال فلما سمع عين اهله ما خاطبته به العجوز قال لها صدقت في ما نطقت وضربت لي مثلا كشف لي عن جلية امري وافدتني حكما لا كفاء لها وادبتني فتادبت ووعظتني فاتعظت ثم حدثها حديثه ورغب اليها في ان تمن عليه بالاصطناع وتطلقه كما فعل الخنزير بالفرس فقالت العجوز انك غر لا بصيرة لك باكثر الامور * وان الذي سالتني لا يمكنني فعله الان ولعلي ان اجد لك فرجا ومخرجا مما انت فيه فعليك بالصبر واسكتت العجوز عن مخاطبته قال فلما انتهى الوزير في حديثه الى هذه الغاية اقبل على المطران وقال له انني احس في راسي صداعا وفي اعضائي فتورا ولا يمكنني الليلة اتمام الحديث ولعلي ان اكون في الليلة القابلة نشيطا

الى ذلك قديرا عليه فاكمل مسرتك باكماله ونهض الى مضجعه فجعل سابور يتصفح حديث وزيره ويتامل الامثال التي رصعه بها ففهم ان الوزير كنى عنه بعين اهله لانه ملك فارس * وكنى عن مملكته واقليم بابل بسيدة النار لان رعيته يعبدون النار * وكنى عن بلاد الروم بسيدة الذهب * وكنى عن قيصر بالذيب الذي ذكرانه بعل سيدة الذهب * وكنى عن اخذ قيصر له بقبض الذيب على عين اهله وقصد بما ضرب له من الامثال الحكمية تاديبه على شرهه وتغريره بنفسه ومخالفته نصحاءه وكنى عن نفسه وحاله وعجزه وحزنه وذله في خدمة المطران وطلبه مرضاته وتملقه بالعجوز القطعاء الجدعاء العوراء المشوهة الخلق وعرفه انه لا يمكنه تخليصه في ذلك الوقت وانه ساع في خلاصه فسكنت نفس سابور لما فهم ذلك وعاودته ثقته بوزيره واستروح ريح الفرج ولبث بذلك ليلته وغدها الى الليلة القابلة فلما تعشى المطران واخذ مقعد المسامرة قال لوزير سابور ايها الراهب الحكيم اخبرني ما كان من امر عين اهله وكيف كانت عاقبة شدته وهل خلصته العجوز من وثاق الذيب فان نفسي الى علم ذلك متطلعة واراك الليلة صالح الحال قال الوزير سمعا لقولك وطاعة لامرك ثم اقبل عليه يحدثه فقال ان عين اهله اقام على حالته موثقا طول ليلته تلك فلما اصبح دخل الذيب فتهدده بالقتل وزاده الى وثاقه قيدا ثقيلا وخرج عنه فقطع عين اهله نهاره ذلك بالاماني فلما جنه اليل قلق واستوحش فبكى وانتحب وجاءت العجوز فاضرمت نارا قريبا منه وجلست تصطلي ثم اقبلت على عين اهله فقالت له تعزواصبر واذكر مصايب الناس فتاس بهم ولا تذهل عن النعمة العظمى في حفظ نفسك فقال لها عين اهله لقد صدق القايل هان على الطليق ما لقي الاسير فقالت له العجوز ايها الفتى ان حداثة سنك قصرت بك عن كثير من ادراك الحقايق افتسمع حديثا لك فيه سلوة قال نعم فانعمي علي به فقالت العجوز ذكران تاجرا كان له ابن ليس له ولد غيره وكان شديد المحبة له والتشغف به فاتحفه بعض معارفه

بغزال شرخ صغير فعلق به قلب الولد ولد التاجر فكان لا يفارقه وجعل اهل الغلام على ذلك الغزال حليا نفيسا وارتبطوا له شاة ترضعه حتى اذا اشتد الغزال وشدن نجم قرناه فقال الغلام لاهله ما هذا في راس الغزال قالوا قرناه فاعجبه سوادهما و بريقهما فقيل للغلام انه سيكبران ويطولان. حتى يكون صفتهما كيت وكيت فقال الغلام لابيه احب ان ارى ضبيا له قرنان كبيران فامر ابوه فصيد له ضبي ثني السن قد استكمل قوة ونموا فاعجب به الغلام واكرمه اهله وحلوه وانسوه فانس والف الغزال الضبي لمجانسة الطبيعة فقال الغزال للضبي ما ظننت قبل ان ارى ان لي في الارض شكلا ثم لما رايتك وقع في نفسي ان لي اشكالا سواك فقال له الضبي نعم ان اشكالك لكثيرة فقال له الغزال اين هي فاخبره الضبي بتوحشها وانفرادها في فلوات الارض فرارا من الناس وحدثه عن مراتعها ومواردها وازدواجها وتناسلها فارتاح الغزال لما سمع من الضبي وتمنى ان يراها فيكون معها فقال له الضبي هذه منية لا خير لك فيها وانت قد نشات في رفاهية من العيش وامنة لا تعرف غيرها ولو حصلت في ما تمنيت لندمت وكان يقال الاماني في الشدة ارتياح وفي الرخاء جماح فلا ينبغي ان ياذن العاقل لنفسه من الاماني الا في المقدار الذي يونس الوحشة و ينفس الكربة فان استيلاء الاماني على النفوس كتامر السفل الذين يعيدون الرؤوس اعجازا والاعجاز رؤوسا ويسعون في قلب الاعيان وتغيير صورة الصواب * فقال الغزال للضبي لا بد لي من اللحاق باشكالي فلما راى الضبي ان الغزال غير منته وخاف عليه ان يقطع به قبل بلوغ ما تمناه لانه غرلا يعرف التحرز من مكايد الانس لم يجد بدا من اتباعه والكون معه ليقضي حق حرمة القته اياه فرصد حينا يمكنه فيه الفرار وخرجا جميعا حتى لحقا بالصحراء فلما عاينها الغزال فرح ومرح وذهب يعدو لا يثنيه شيء فسقط في اخدود ضيق قد قطعه السيل فانشب فيه وانتظر ان ياتيه الضبي ليخلصه فلم ياته فبقي هنالك واما ولد التاجر فانه لما اصبح عدم الغزال والضبي فجزع لفقدهما واشفق ابوه عليه

فاستدعى كل من يعاني الصيد بذلك البلد فعرفهم بالقصة وكلفهم بالصبي والغزال ووعد من وجدهما وعدا مرغوبا فيه فانبثوا في سهل الارض وحزنها يطلبون ذلك وركب التاجر دابته وفرق اتباعه على ابواب المدينة ينتظرون من ياتي من الصيادين وانطلق هو وعبدان من عبيده حتى اتوا الصحراء فراى على بعد رجلا مكبا على شيء بين يديه فاسرع نحوه فاذا هو صياد قد اوثق صبيا وهو يريد ذبحه فتامله التاجر فاذا هو ذلك الصبي الذي يطلبه فخلصه من يد الصايد له وامر عبديه ففتشاه فوجدا معه الحلي الذي كان على الصبي فساله كيف ظفر بالصبي واين وجده فقال اني بت في الصحراء اتصيد ونصبت شركا وكنت قريبا منه فلما اصبحت جاء هذا الصبي ومعه غزال فمر الغزال يعدو ويمرح في جهة غير جهة الشرك وجاء هذا الصبي حتى دخل في الشرك فاخذته وقصدت به المدينة فلما بلغت هذا الموضع ظهر لي انني مخطي في ادخالي الصبي المدينة حيا لعلي انه ان ريء طولبت بما كان عليه من الزينة فرايت ان اذبحه وادخل به لحما فهذا خبري فقال له التاجر لقد جنى عليك شحك الخيبة والحرمان فماذا عليك لو اطلقته فذهب الصبي وحصلت انت على حليه وزينته ولقد صدق القايل لا يدخل الشره مدخلا الا اعقبته الحرمة ولا يدخل البخل مدخلا الا اعقبته الحسرة الا ترى ان من جلبه البخل والشره على اكل اللقمة التي عافتها نفسه كان متعرضا للمحرمة بتهوع ما اكله والحسرة عليه عند مفارقته ثم ان التاجر بعث بالصبي الى ولده مع احد عبديه وقال لذلك الصياد ارجع معي فارني الجهة التي رايت الغزال سعى نحوها فرجع الى تلك الجهة وجعل الصياد يفتش ويشرف على المواضع المرتفعة ومشى التاجر على رسله فسمع نزيف الغزال وهو صوته فصاح به التاجر فصوت واتبع التاجر الصوت حتى قام عليه واذا هو في اخدود اي شق في الارض متشبا فيه فاخذه ونادى الصياد فوهب له دراهم وصرفه ورجع التاجر بالغزال الى ولده فكملت مسرة الغلام وجعل الغزال يتجنب الصبي اذا

رءاه ولا يالفه كما كان واذا حصل معه في موضع نفر منه اشد النفار
فتنغصت مسرة الغلام لذلك وجهد اهله بكل حيلة ان يجمعوا بين الغزال
والصبي على حال الفة وسكون فلم يقدروا على ذلك فبينما الغزال يوما
قايم في بيت اذ دخل عليه الصبي فعنفه وعاتبه على نفاره منه وطول
هجرته له * فقال له الغزال انسيت غدرك بي احوج ما كنت الى عونك
واوثق ما كنت بنصرك فقال له الصبي اني لم اغدرولم اخن ولكن عدم
رسوخك في علم التجربة اوقعك في تهمة البري واني لم اتاخر عن
تخليصك مما حصلت فيه الّا مضطرا الى التاخر عنك عاجزا عن المبادرة
اليك وقص عليه قصته وانه حصل في شرك الصياد فعلم الغزال عذره
وعادا الى تالفهما قال فلما سمع عين اهله حديث العجوز وفهم ما ارادت
من ذكر عجزها عن تخليصه امسك عن خطابها قيل فلما انتهى وزير سابور
من حديثه الى هذا الحد سكت فقال له المطران ايها الحكيم الراهب
ما هذا السكوت لعلك تريد ان تاخر اخباري بما كان من عاقبة عين
اهله وما لقي من الذئب وما صنعته معه العجوز * فقال الوزير اني لعازم
على ذلك ولكن عجزت لفتور اجله في اعضاءي فقال المطران لا تفعل فان
ذلك يسوءني ويشق علي فاحمل على نفسك الليلة ايها الحكيم فاني
راغب في تانيسك معي باحاديثك الحسان فقال الوزير افعل ذلك طلبا
لمرضاتك ولو علمت ايها المطران ما ادخرت لك من عجايب الاخبار *
ودقايق الاثار * وغرايب الاسمار * لعجبت من ذلك غاية العجب ثم
اندفع يحدثه فقال ان عين اهله لما سمع حديث العجوز وفهم ما ارادته
منه امسك عنها وبات ليلته تلك باسوا حال ولما اصبح دخل عليه الذئب
فنال منه وتعتعه وعنفه وتهدده بالقتل وزاده قيدا الى قيده وعرفه الا ناصر
له عليه ولا مخلص له من يديه وخرج عنه فجعل يعلل نفسه بقية نهاره
وبينها الفرج فلما اقبل عليه الليل استوحش واحتوشته الافكار المرمضة
وانتظر ان تجلس اليه العجوز او تحادثه فلم تفعل وجعلت العجوز تكثر
الدخول والخروج الى البيت الذي فيه عين اهله ولا تستقر فيه فساءه

ظن عين اهله وايقن بالهلكة وما شك ان الذيب يقتله تلك الليلة فاقبل على البكاء حتى ذهب صدر من اليل ثم قال للعجوز مالك لا تونسينني الليلة بحديثك ولا تجلسين الي فجلست اليه وقالت له اما كان في رويتي قطعاء جدعاء مشوهة عوراء سيئة الحال ما يحملك على التاسي فتاخذ في الشكر لله على سلامة نفسك ومعافاتك من بلاء هو اعظم من بلائك حتى قلت هان على الطليق ما لقي الاسير ولو اعتبرت باطن حالي بما ظهر لك منها لعلمت ان اسري اشد من اسرك فاستمع الي احدثك حديثي اعلم ايها الفتى اني كنت زوجا لبعض الفرسان وكان الي محسنا وبي رفيقا ولي محبا فكنت معه في ارغد عيش واهناه فلبثت بذلك مدة طويلة وولدت له اولادا ذكورا واناثا فكبروا في رفاهية ونعمة فغضب الملك على زوجي لامر كان منه فقتله وقتل ذكور اولادي وباعني انا وبناتي مفترقات فاشتراني هذا الفارس الذي عدا عليك واحتملني الى هذه القرية واساء الي وكلفني من العمل ما لا اطيقه واكثر معاقبتي على غير ذنب لما طبع عليه من القسوة والفظاظة فسالت من ارى ان يرفق بي واستعنت عليه باخوانه ومن يكرم عليه ليخفف عني او يبيعني فلم يزده السوال والشفاعات الا قسوة علي واضرارا بي فلبثت بعد ذلك سبع سنين ثم فررت منه فتبعني فادركني فجدع انفي ثم عاود قسوة علي واضرارا بي وعاودت مسئلته والاستشفاع اليه وهو مقيم على سوء رايه في فكملت بذلك سبع سنين اخرى ثم فررت منه فظفر بي ففقا عيني ثم عاود عسفي فكملت سبع سنين اخرى ثم فررت منه فظفر بي فقطع يدي وقال لي انما بقي من اعضايك التي انتفع بها عينك ويدك فان فررت بعد هذا قطعت رجليك معا وابقيتك انتفع بعينك في الحراسة ويدك في العمل واقسم على ذلك بغليظ الايمان وعاود عسفي ومضرتي وقد عزمت على ان اخلصك الليلة واقتل نفسي بيدي طلبا للراحة مما انا فيه ولقد رايتني اكثر الدخول اليك والخروج عنك وانما ذلك لحيرتي وجزعي من الموت وقد طابت نفسي على الموت ثم انها فتحت قيود عين اهله وقطعت وثاقه وتناولت

سكينا فقال لها عين اهاه لئن تركتك تقتلين نفسك لقد شركت في دمك وانتزع السكين من يدها وقال لها قومي اذهبي معي لكي ننجو معا او نعطب معا فقالت له ان كبر سني وضعف حالي ليمنعاني من اتباعك والهرب معك فقال لها ان الليل متسع والموضع الذي ناتن اذا وصلنا اليه قريب وبي قوة على حملك فقالت العجوز اما اذ عزمت على هذا فانني لا احوجك الى حملي ما دامت بي مسكة وخرجا معا فلم ينقض الليل حتى بلغا الى حيث امنا فجزاها عين اهله خيرا بما صنعت واتخذها اما يسمع لها ويطيع فهذا ما بلغني من ذلك فقال المطران ما اعجب احاديثك ايها الحكيم ولقد وددت ان لا افارقك وان سفري هذا يطول لتطول متعتي بك ويعظم حظي من انسك ولقد استعذبت مفارقة الاهل والوطن لقربك ونهض كل واحد منهما الى مضجعه وبات سابور يتصفح حديث وزيره ويتامل امثاله ففهم ان الغزال مثل لسابور وان الصبي مثل للوزير وان خروج الصبي مع الغزال الى الصحراء وحصول الغزال في الاخدود مثل لصحبة سابور ووزيره حتى حصل سابور في حبس قيصر وان نفار الغزال من الصبي مثل لسوء ظن سابور بوزيره لتاخره عن استنقاذه وعرف ان الوزير قد عزم على تخليصه والخروج به الى المدينة ليلا وان المدينة قريب منهما وانه يحمله ان عجز عن المشي * فايقن سابور بقرب الفرج ولما كانت الليلة القابلة تلطف وزير سابور حتى دخل الخيمة التي يطبخ فيها الطعام للمطران وللموكلين بحفظ سابور على حال خلوة واحتراس فالقى في جميع الاطعمة مرقدا قوى الفعل ولما حضر المطران لطعامه انفرد الوزير باكل زاده على ما جرت به عادته فلم تكن الا ساعة حتى استحوذ المرقد على جميعهم فانفردوا منجدلين في مواضعهم صرعى على مراصدهم ومضاجعهم وبادر الوزير ففتح باب المقصورة على سابور واستخرجه وازال الجامعة من عنقه ويديه وتلطف حتى اخرجه من عسكر قيصر وقصد به جندي سابور وهي مدينة ملكه فانتهيا معا الى سورها فصرخ بهما الموكلون بحراسة السور فتقدم الوزير اليهم وامرهم بخفض اصواتهم وعرفهم

بنفسه واعلمهم بسلامة ملكهم فابتدروا وادخلوهما المدينة.فقويت نفوس اهلها وامرهم سابور بالاجتماع وفرق فيهم السلاح وعهد اليهم ان ياخذوا اهبتهم فاذا ضربت الروم نواقيسهم الضرب الاول خرجوا من المدينة الى مقربة من عسكر الروم وقاموا على تعبية وتاهب حتى اذا ضربت النواقيس الضرب الثاني حملوا باجمعهم كل فرقة على من يليها فامتثلوا امره فانتخب سابور كتيبة عظيمة وقام معهم فيما يلي الجهة التي تلي قيصر فلما ضربت النواقيس الضرب الثاني حملوا من كل جهة وقصد سابور اخبية قيصرولم يكن الروم متاهبين لعلمهم بضعف الفرس عن مقاومتهم وانهم قد بنوا ابواب مدينتهم فما شعروا حتى دهتهم الفرس واخذ سابور قيصر اسيرا وغنم جميع عسكره واحتوى على خزاينه ولم ينج من جنوده الا الشديد وعاد سابور الى قرار ملكه وقسم الغنايم بين اهل عسكره وافاض الصلات على جميع من في مدينته بقدر احوالهم واحسن الى حفظة ملكه وشرفهم وفوض جميع امره الى وزيره الذي تخلصه ثم احضر قيصر فاكرمه ولاطفه وقال اني مبق عليك كما ابقيت وغير مجازلك بضيق محبسي ولاكني ءاخذك باصلاح جميع ما افسدت من جميع ممالكي فتبني ما هدمته وتغرس مكان كل نخلة قطعتها من بلادي زيتونة وتطلق كل من في مملكتك من اسارى الفرس فضمن له قيصر ذلك كله ووفى له به ولما انتهى في الاصلاح الى بناء ما انثلم من سور مدينة جندا سابور قال سابور لقيصر انما تبنيه من تراب بلادك فامر قيصر رعيته من الروم بحمل التراب من بلادهم الى جندا سابور فرقع لهم ما انثلم من سورها ولما اتم لسابور ما اراد من ذلك كله احسن اليه واطلقه الى دار مملكته بعد ان قال له خذ اهبتك واستعد عدتك فاني غاز ارضك عما قريب فتامل يا بني حسن محاولة هذا الوزير وارتكابه في استخلاص سلطانه كل امر خطير، واجتهد على ان تجد ما يقاربه في الدهاء والتدبير وكوزير جذيمة الابرش وهو قصير بن سعد والزبا بنت مليح وكيفية ذلك ما رواه هشام بن محمد الكلبي عن ابيه قال كان جذيمة ابن ملك ملك على الحيرة وما

حولها من السواد ملك ستين سنة وكان به وضح في بدنه اي برص وكان شديد السلطان قد خافه القريب والبعيد فتهيبت العرب ان تقول الابرص فقالت الابرش فغزا مليح بن البراء وكان ملكا على الحضر وهو الحاجز بين الروم والفرس وهو الذي ذكره عدي بن زيد في قوله *

* واخو الحضر اذ بناه واذ * دجلة تجبى اليه والخابور *

فقتله جذيمة وطرد الزباء الى الشام فالحقت بالروم وكانت عربية اللسان حسنة البيان شديدة السلطان كبيرة الهمة قال بن الكلبي ولم يكن في نساء عصرها اجمل منها وكان اسمها فارعة وكان لها شعر اذا مشت سحبته من ورايها واذا نشرته جللها فسميت الزباء وبعث عيسى ابن مريم عليه السلام بعد قتل ابيها فبلغت بها همتها ان جمعت الرجال وبذلت الاموال وعادت الى دار ابيها ومملكته وازالت جذيمة الابرش عنها وبنت على مراقي الفرات مدينتين اثنتين متقابلتين من شرقي الفرات فكانت اذا ارهقها الاعداء اوت اليهما وتحصنت بهما وكانت قد اعتزلت الرجال فهي عذراء بتول وكان بينها وبين جذيمة بعد الحرب مهادنة فحدث جذيمة نفسه بخطبتها فجمع خاصته فشاورهم في ذلك وكان له ابن عم يقال له قصير بن سعد وكان عاقلا لبيبا وكان صاحب امره وعميد دولته فسكت القوم وتكلم قصير فقال ابيت اللعن ايها الملك ان الزباء امراة قد حرمت الرجال فهي عذراء بتول لا ترغب في الرجال ولا غرض لها في جمال ولا مال ولها عندك ثار * والدم لا ينام وانما تاركتك رغبة ورهبة والحقد داء في سويداء القلب له كمون ككمون النار في الحجر ان قدحته اورى وان تركته توارى وللملك في بنات الملوك الاكفاء متسع ولهن فيه مقنع وقد رفع الله قدرك عن الطمع فيمن هو دونك وعظم شانك فما احد فوقك * فقال له جذيمة يا قصير الراي ما رايته والحزم فيما قلته ولكن النفس نواقة * والى ما تحب وتهوى مشتاقة * ولكل امري قدر * لا مفر منه ولا حذر * فوجه اليها خاطبا وقال ايت الزباء واذكر لها ما يرغبها في وتصبو اليه فجاءها خطبته فلما سمعت كلامه

وعرفت مراده قالت انعم بك عينا وبما جئت به وله واظهرت السرور والرغبة فيه واكرمت مقدمه ورفعت موضعه وقالت قد كنت اضربت عن هذا الامر خوفا ان لا اجد كفوا والملك فوق قدري وانا دون قدره وقد اجبت الى ما سال ورغبت فيما قال ولولا ان السعي في هذا الامر بالرجال اجمل لسرت اليه ونزلت عليه واهدت اليه هدية سنية ساقت العبيد والاماء والكراع والسلاح والاموال والابل والغنم وجملة من الثياب والعين والورق فلما رجع اليه خطبتها اعجبه ما سمع من الجواب وابهجه ما راى من اللطف وراى ان ذلك لحصول رغبة فاعجبته نفسه وسار من فوره في من يثق به من خاصته واهل مملكته وفيهم قصير خازند واستخلف على مملكته ابن اخيه عمرو بن عدي اللخمي وهو اول ملوك الحيرة من لخم وكان ملكه عشرين ومائة سنة وهو الذي اختطفته الجن وهو صبي صغير ورد وهو قد شب وكبر فقالت امه التنقوه للطوق فقال خاله جذيمة شب عمرو عن الطوق فذهبت مثلا فاستخلفه وسار الى الزباء فلما كان في بعض الطريق نزل فتصيد واكل وشرب واستعاد المشورة والراي في اصحابه فسكت القوم وافتتح الكلام قصير فقال ايها الملك كل عزم لا يويد بحزم فالى افن ما يكون فلا تثق بزخرف قول لا محصول له ولا تعقد الراي بالهوى فيفسد * والحزم بالمنى فيبعد * والراي عندي للملك ان يتعقب امره بالتثبت وياخذ حذره بالتيقظ ولولا ان الامور تجري بالمقدور لعزمت على الملك عزما لا يفعل واقبل جذيمة على الجماعة فقال ما عندكم انتم من الامر فتكلموا بحسب ما عرفوا من رغبته في ذلك وصوبوا رايه وقووا عزمه فقال جذيمة الراي مع الجماعة والصواب ما رايتم فقال قصير القدر سابق الحذر * ولا يطاع لقصير امر * فارسلها مثلا وسار جذيمة فلما قرب من بلاد الزباء وديارها ارسل اليها يعلمها بمجيئه فرحبت وقربت واظهرت السرور والرغبة فيه وامرت ان يحمل اليه الانزال والعلوفات وقالت لجندها وخاصة اهل مملكتها وعامة اهل دولتها ورعيتها تلقوا سيدكم وملك دولتكم وعاد الرسول بالجواب بما راى وسمع فلما عزم جذيمة ان يسير دعا

قصيرا فقال انت على رايك قال نعم وقد زادت رغبتي فيه ثم قال قصير ليس للامور بصاحب من لم ينظر في العواقب وقد يستدرك الامر قبل فواته وفي يد الملك بقية هو بها مسلط على استدراك الصواب فانك وثقت بانك ذو ملك وسلطان وعشيرة ومكان والقيتها في يد من لست تامنا مكره وغدره فان كنت ولا بد فاعلا ولهواك تابعا فاعلم بان القوم ان تلقوك غدا فرقا وساروا امامك وجاء قوم وذهب قوم فالامر بعد في يدك والراي فيه اليك * وان تلقوك زردقا واحدا فاقاموا لك صفين حتى اذا توسطتهم انقضوا عليك من كل جانب واحدقوا بك فقد ملكوك وصرت في قبضتهم وهذه العصى لا يشق غبارها وكانت لجذيمة فرس تسبق الطير وتجاري الرياح يقال لها العصى فاذا كان كذلك فتجلل ظهرها فهي ناجية بك ان ملكت ناصيتها فسمع جذيمة كلامه ولم يرد جوابا وسار وكانت الزباء لما رجع رسول جذيمة من عندها قالت لجندها اذا اقبل جذيمة غدا فتلقوه بجملتكم وقوموا صفين من عن يمينه وعن شماله فاذا توسط جمعكم فتقوضوا عليه من كل جانب حتى تحدقوا به واياكم ان يفوتكم وسار جذيمة وقصير عن يمينه فلما لقيه القوم تلقوه زردقا واحدا فاقاموا له صفين فلما توسط القوم انقضوا عليه من كل جانب انقضاض الاجدل على فريسته واحدقوا به وعلم انهم ملكوه وكان قصير يسايره فاقبل عليه وقال صدقت يا قصير فقال قصير ايها الملك ابطات بالجواب حتى فاتك الصواب فارسلها مثلا قال كيف الراي الان قال هذه العصى فدونكها لعلك تنجو فانف جذيمة من ذلك وسارت به الجيوش فلما راى قصير ان جذيمة قد استسلم للاسر وايقن بالقتل جمع نفسه وسار على ظهر العصى واعطاها عنانها وزجرها فذهبت تهوى به هوي الريح فنظر اليه جذيمة وهي تتطاول به فقال ما خاب من ركب العصى * واشرفت الزباء من قصرها وقالت ما احسنك من عروس تجلى علي وتزف الي حتى دخلوا به على الزباء ولم يكن معها في قصرها الا جوار ابكار اتراب وكانت جالسة على سرفرها وحواليها الف وصيفة كل وصيفة لا تشبه صاحبتها في خلق

ولا زي وقالت لوصايفها خذوا بيد سيدكن وبعل مولاتكن فاخذن بيله واجلسنه على الانطاع بحيث تراه ويراها وتسمع كلامه ويسمع كلامها ثم امرت الجواري فقطعن رواهشه ووضعت له طستا ليسيل دمه فيه فقطرت قطرة على النطع فقالت لجواريها لا تضيعوا دم الملك فقال جذيمة لا يحزنك دم اضاعه اهله فلما مات قالت والله ما اوفى دمك ولا اشفى قتلك ولاكنه غيض من فيض ثم امرت به فدفن وكان قد استخلف على مملكته ابن اخيه عمرو بن عدي وكان يخرج كل يوم الى ظهر الحيرة يطلب الخبر ويقتفي الاثر من خلفه فخرج ذات يوم فنظر الى فارس تهوي به فرسه هوي الريح فقال اما الفرس ففرس جذيمة واما الراكب فكالبهيمة لامر ما جاءت العصى فاشرف عليهم قصير فقالوا ما وراءك فقال سعى القدر بالملك الى حتفه * على الرغم من انفي وانفه * فاطلب بثارك من الزباء * فقال عمرو واي ثار يطلب من الزباء وهي امنع من عقاب الجو فقال قصير قد علمت نصحي لخالك وكان الاجل رايك واني والله لا انام عن الطلب بدمه ما لاح نجم وطلعت شمس او ادرك به ثارا او تخترم نفسي فاعذر ثم انه عمد الى انفه فجدعه ثم لحق بالزباء مفارقا من عمرو بن عدي فقيل لها هذا قصير ابن عم جذيمة وخازنه وصاحب رايه قد جاءك فاذنت له فقالت ما الذي جاء بك الينا يا قصير وبيننا وبينك دم عظيم يقطر فقال يا ابنة الملوك العظام لقد اتيت فيه ما ياتي مثلك في مثله ولقد كان دم الملك يطلبه حتى ادركه وقد جئتك مستجيرا من عمرو بن عدي فانه اتهمني بخاله وبمشورتي عليه بالمسير اليك فجدع انفي واخذ مالي وحال بيني وبين عيالي وتهددني بالقتل واني خشيت على نفسي فهربت منه اليك وانا مستجير اليك ومستند الى كنفك وعزك فقالت اهلا وسهلا بك * لك منا امن الجوار وذمة المستجير وامرت به فانزل واجرت عليه الانزال ووصلته وكسته واكرمته وزادت في اكرامه فاقام مدة لا يكلمها ولا تكلمه وهو يطلب الحيلة عليها وموضع الفرصة منها وكانت ممتنعة بقصر مشيد على باب

نفق تعتصم به فلا يقدر عليه احد فقال لها ان لي بالعراق مالا كثيرا وذخاير نفيسة مما تصلح للملوك فان اذنت لي في الخروج الى العراق واعطيتني شيئا انعلل به في التجارة واجعله سببا في الوصول الى مالي اتيتك بما قدرت عليه من ذلك فاذنت له واعطته مالا فقدم العراق ببلاد كسرى فاطرفها والطفها من كل طريفة وزادها مالا الى مالها كثيرا وقدم عليها به فاعجبها ذلك منه وسرها وترتب له عندها منزلة وعاد الى العراق ثانية فقدم باكثر من ذلك طرفا من الجواهر والبز والخز والقز والديباج وزاد مكانه منها وازدادت منزلته عندها ورغبتها فيه ولم يزل قصير يتلطف حتى عرف موضع النفق الذي تحت الفرات والطريق اليه ثم خرج ثالثة فقدم باكثر من الاولين طرايف ولطايف فبلغ مكانه منها وموضعه عندها الى ان كانت تستعين به في مهماتها واستامنت اليه وعولت عليه في امورها وكان قصير رجلا حسن العقل والراي لبيبا اديبا فقالت له يوما اني اريد اغزو البلد الفلاني من ارض الشام فاخرج الى العراق وايتني بكذا وكذا من السلاح والكراع والعبيد والثياب فقال قصير ولي في بلاد عمرو بن عدي الف بعير وخزانة سلاح فيها كذا وكذا وما يعلم بها عمرو ولو علم لاخذها واستعان بها على حربك وكنت اتربص به المنون وانا اخرج متنكرا من حيث لا يعلم فاتيك بها مع الذي سالت فاعطته من المال ما اراد وقالت يا قصير الملك يحسن بملك وعلى يد مثلك يصلح امره ولقد بلغني امر جذيمة وان ايراده واصداره كان اليك وما تقصر بك عن شيء تناله يدي ولا يقعد بك عن حال تنهض به فسمع كلامها رجل من خاصة قومها فقال اسد خادر وليث نادر قد تحفز للوثبة ولما راى قصير مكانه منها وتمكنه من قلبها قال الان طاب المصاع وخرج من عندها فاتى عمرو بن عدي فقال اصبت الفرصة من الزباء فانهض فعجل الوثبة فقال له عمرو قل اسمع ومر افعل فانت طبيب هذه القرحة فقال الرجال والاموال فقال حكمك فيما عندي مسلط فعمد الى الفي رجل من فتاك قومه وصناديد اهل مملكته فحملهم على الف بعير في

الغراير السود والبسهم السيوف والسلاح والجحف وانزلهم في الغراير وجعل رؤوس المسوح من اسافلها مربوطة من داخل وكان عمرو فيهم فساق الخيل والكراع والعبيد والسلاح والابل جملة فجآءها البشير وقال قد جاء قصير ولما قرب من المدينة حمل الرجال في الغراير متسلحين بالسيوف والجحف وقال اذا توسطت الابل المدينة فالامارة بيني وبينكم كذا وكذا فاخترطوا المرابط فلما قربت العير من مدينة الزبآء كانت الزبآء في قصرها فصعدت الى اعلى متنزه فيه فرات الابل تتهادى باحمالها فارتابت بها وقد كان وشي بقصير اليها وحذرت منه فقالت للواشي به اليها ان قصيرا اليوم منا وهو ربيب هذه النعمة وصنيعها وقد تغذى بلبن هذه الدولة وهو اليوم شمسها وفريدها وانما يبعثكم على ذلك الحسد وان ليس فيكم مثله فقدح مارات من كثرة الابل وعظم احمالها في نفسها مع ما عندها من قول الواشي به اليها فقالت *

* اری الجمال مشيها رويدا * اجندلا يحملن ام حديدا *
* ام صرفانا باردا شديدا * ام الرجال جثما قعودا *

ثم اقبلت على جواريها وقالت ان الموت الاحمر في الغراير السود فذهبت مثلا حتى اذا توسطت الابل من المدينة وتكاملت القى اليهم الامارة التي كان عرفهم فاخترطوا رؤوس الغراير فسقط الى الارض الفا دارع بالفي باتر وتنادوا يا لثار القتيل غدرا وخرجت الزبآء للموضع تريد النفق فسبقها اليه قصير فحال بينها وبينه فلما رات ان قد احيط بها وهلكت التقمت خاتما في يدها تحت فصه سم ساعة وقالت بيدي لا بيد عمرو فارسلتها مثلا وقيل انه لحقها وجللها بالسيف وخط قصير قبر جذيمة وضرب عليه فسطاطا وبناه وكتب على قبره *

* ملك تمنع بالعساكر والقنا * والمشرفية عزة ما توصف *
* فسعت منيته الى اعدائه * وهو المتوج والحسام المرهف *

فهذا يا بني كان وزيرا محبا في سلطانه ناصحا له في جميع شانه راعيا لحقه وذممه * اخذا بثاره ودمه * وكالوزير المقطوع اليدين يروى

ان ملكا من الملوك المتقدمين كان له وزير ناصح * وخديم صالح * رضي بهلاك نفسه في حياة سلطانه * وابقائه على جيشه وبلاده واوطانه * وكيفية ذلك ان الملك كان له عدو ينافسه ويعاديه * ويطالبه ويشانيه * وكان اكثر منه مالا وجيشا * وسطوة وبطشا * فتحرك العدو عليه * يريد اهلاكه اذا توصل اليه * فلما اتصل بالملك الاضعف ان الملك الاقوى تحرك عليه * وعلم انه لا يقدر على رده اذا وصل اليه * تحدث مع وزيره في شان عدوه * ومخافته من سطوته وعتوه * فقال الوزير للملك الاضعف * ايها الملك اشير عليك براي فيه سلامتك وسلامة جيشك وبلادك * وهلاك نفسي في طاعتك * قال وما راي فيه اتلافك نفسك بسديد * قال نعم في صلاحك رشيد * قال اخبرني قال ايها الملك انا وزيرك المشهور * القايم بامرك في الغيبة والحضور * يعرفني هذا الملك بالنصاحة لك * والاخذ فيما يبلغك املك * واني اشير عليك ان تقطع رواهشي * وتجليني عن البلاد * وتخرج اهلي وولدي وتتركهم في بعض بلادك * وتجري عليهم في خفية جزيل نعمتك وارفادك * حتى اقضي لك مآربك * واصد عنك طالبك * فقال له الملك لا يهون علي هذا ولا افعله بك * ولا اسعفك في هذا بمطلبك * واقسم عليه الملك ان لا يفعل ثم ان الوزير اقسم وقال لئن لم تفعل بي هذا لافعلنه بنفسي * ففعل به الملك ما اراد من قطع يديه * ونفيه من بلاده * واخراج اهله وحاشيته واولاده * فما لبث الوزير ان لحق بالملك القاصد لسلطانه * وهو قادم على اول اوطانه * فتصله قبل دخوله للبلاد * وهو في جمهور اعداده والاحشاد * فلما قدم عليه الوزير في اسوء حاله وملاقاة اهواله * وقطع رواهشه واوصاله * تاسف له تاسفا شديدا * وزاده ما اصابه حنقا وتنكيدا * وقال له لم فعل بك سلطانك هذه الفعلة * ومثل بك هذه المثلة * فقال ايها الملك انه اتهمني بخدمتك * واني كنت السبب اليه في حركتك وعزمتك * فقال له الملك اذا ظفرت به لاردن عليك اموالك * واحسن جميع احوالك * واردك اكرم وزراءي علي * واقربهم مني والي * ولاكن

ايها الوزير كيف الحيلة الى اخذ ملكك الذي عذبك * ومكر بك وانصبك * ومثل بك هذه المثلة وغدر * قال له ايها الملك انا اعرف اخباره * وعلى ما هو معتمد وان اخفى عني اسراره * قال اخبرني قال ايها الملك عزم على انه اذا اخذت بلاده * وتشتت اجناده وقواده * يفر الى حصنه الحصين * الذي له في تحصينه جملة من السنين * الذي كان اعده * ويتحصن به لما فيه من العدد والعدة * والذي اشير به عليك * واتقرب به في الخدمة اليك * ان تاخذ حصنه الحصين * ومقر امنه الامين * فاذا احتويت على ما في حصنه من الذخاير والاموال * وحلت بينه وبين جانه الابطال * رجعت لاخذ بلاده * واستوليت على عدده واعداده * فقال له الملك وكيف ذلك * قال تسير بجملة جيشك واعدادك * وذلك بان تعمل زاد عشرين يوما لكافة اجنادك * وانك تقطع المفاوز المعطشات * والمهامه الموحشات * وانا معك حتى تاخذ جميع ما في حصنه * وتحول بينه وبين امنه * قال وكان هذا الوزير الافطع عارفا بمسالك الصحاري * والجوب في الاقطار والبراري * وكان قد رغب هذا الملك في الاموال والذخاير * والاثاث والعدد المشاهر * الى ان اسعفه بالمسير الى الحصن الذي ذكر له * وتاتي له فيما عوله واملة * فامر الملك جيشه بعمل الازواد * والتهيء لذلك والاقتصاد * فاتخذ اهل العسكر زاد عشرين يوما من الماء والطعام * ودخلوا الصحاري والوزير يتقدمهم من امام * الى ان اوغلهم في البراري المعطشات * والمهامه الموحشات * التي لا يرجى للمنقطع بها حياة * الى ان نفدت الازواد * وهلكت الاجناد * اقبل الملك على الوزير يسئله عن الحصن المذكور * ومتى ينصل به جيشه المغرور * فقال له الوزير والله لا اعلم له حصنا الا بلده الذي هو فيه * واني غدرتك في موضع لا يمكن رجوعك الى تلافيه * قال فقتله الملك لحينه * ومات هو وجيشه بعطشه وتوهينه * فكان في هلاكه حياة سلطانه * وفي قطع رواهشه ابقاء اوطانه * وعزة اهله واخوانه * وهكذا ينبغي للوزير الناصح لسلطانه * ان يكون مثل هذا

الوزير في جميع شانه * يا بني واذا لم تجد وزيرا جامعا لهذه الاوصاف التي قدمناها * والخصال المحمودة التي ذكرناها * فاختر من تكون فيه خصلتان * جامعتان لتلك الخصال الثمان الاولى ان يكون محبا في ما يصلح حالك في دنياك واخراك * والثانية ان يكون ذا راي سديد في شدتك ورخاك * واما جلساوك فاعلم يا بني انه يجب عليك ان تتخير لنفسك جلسآء روسآء من قومك ذوي عقول وافرة * واذهان ثاقبة حاضرة * فصحآء اللسان * نصحآء في السر والاعلان * يجانبون مخالطة الناس * ويعظمونك اذا اظهرت لهم البسط والايناس * فاذا اتصفوا بهذه الصفات * وتميزوا بهذه السمات * تباهت بهم الخلافة * وزادتهم رفعة وانافة * وينبغي لك ان تختبر احوالهم * وتمتحن اقوالهم وافعالهم * فان مات وزير من وزرائك اخترت وزيرا منهم * لسبق معرفتك بما انطوت صدورهم عليه وما تقدم منهم وما صدر من النصيحة عنهم فتجعله مكانه * وتشد به ازر الملك واركانه * فمن وجدته منهم بعد الاختبار * مذيعا للاسرار * غير واف للعهد * ولا مبرم للعقد * وصدرت منه نميمة او غيبة * او ظهرت عليه زلة او ريبة * ابعدته عن منزلة الرفعة والايناس * وجعلته كساير الناس * وقد قال بعض الملوك لجلسائه * جنبوني ثلاثة لا تمدحوني فاني اعرف بنفسي منكم * ولا تكذبوني فانه لا راي لكذوب * ولا تغتابوا عندي احدا فتفسدوا قلبي عليكم وقال بن عباس مجالسة العقلاء تزيد في الشرف والعقل يا بني وينبغي لجلسائك ان يحفظوا اسرارك ولا يذيعوا اخبارك * فانهم خاصتك الاصفيآء * وبطانتك الخلصآء * ومن فسدت بطانته كان كمن غص بالمآء يا بني جالس الفضلاء * وشاور العقلاء * وخذ الراي مع النصحآء * واقتد بذوي التجارب النبلاء * وجانب مجالسة الجهلاء * فانه من اخذ الراي مع من لا يفقه الحديث كمن قدم الطرف للبهايم يا بني واما كتابك فلتتخير منهم لسرك كاتبا من وجوه بلدك * موفيا لغرضك ومقصدك * فصيح اللسان * جريء الجنان * بليغ البيان * عارفا بالاداب * سالك طرق الصواب * بارع

الخط * حسن الضبط * عالما بالحل والربط * كاتما للاسرار * متحليا بحلى الوقار * ذا عقل وافر * وفهم حاضر * وذهن ثاقب * وفكر صايب * حلو الشمايل * موسوما بالفضايل * جميل الهيئة واللباس * والموالاة للناس * لان الكاتب عنوان المملكة * وبه تتبين الامور المشتبكة * ومن كتابك يستدل على عقلك * ويعترف بمعرفتك وفضلك * فهذا اقل ما يشترط في الكاتب * ويكون في حقه وحقك من الواجب * فانه اذا كان الكاتب بهذه المثابة * صلح ان يكون اهلا للكتابة * وان اخل بهذه الشروط * كان جديرا بالتاخر والسقوط * لاخلاله بكتابته * وعدم اصابته * وكان ذلك وصما في حق مخدومه * ودليلا على جهله في تقديمه * يا بني واما صاحب اشغالك * وضابط اعمالك * فلتتخيره من وجوه بلدك الاخيار * وكفاة الحساب والنظار * ويكون ذا ثقة وامانة * وعفة وصيانة * وصلاح وديانة * وحزم وكفاية * وضبط ودراية * عدلا في احواله * صادقا في اقواله * عارفا بانواع الخوارج والجبايات * ضابطا للزمام والحسبانات * ويكون ذا مال ويسار * واثاث وعقار * فاذا كان على ما وصفناه من افعاله * كان محافظا على بيته وديانته وماله * ويكون محبا في سلطانك * آخذا بالنصح في جميع شانك * لان مالك ومجابيك تحت نظره * وعلى يده التصرف فيها في ورده وصدره * يا بني واما فقهاؤك فلتتخير لنفسك فقيها عالما نبيها موسوما بالصلاح * سالكا طرق الرشاد والفلاح * يرشد الى الهدى * ويهدي الى الرشاد * ويسدد الامور ويامر بالسداد * ليبين لك ما اشكل عليك من الاحكام * وما تاتيه من الحلال وتدعه من الحرام * وما تقف عنده من الامور الشرعية * التي هي قوام الملك والرعية * وما يصلح لك من الامور الدنيوية والاخروية * ويتخولك بالموعظة ويذكرك احوال الاخرة * ولينبهك من سنة الغفلة يا بني واما قضاتك فيجب عليك ان تتخذ قاضيا من فقهائك افضلهم في متانة الدين * وارغبهم في مصالح المسلمين * لا تاخذه في الحق لومة لائم * ولا يسمع لظلامة ظالم * ولا يغتر برشا * ولا يعلق دلوه منه برشا *

يساوي بين الشريف والمشروف * والقوي والضعيف * عالما بتنفيذ الاحكام * مفرقا بين الحلال والحرام * قاضيا بالعدل * آخذا بالفضل * موجزا منجزا في الفصل * والفصل * يا بني واما اعوانك فلتتخير لنفسك عونا تجعله مقدما على اعوانك * ومتصرفا في امور سلطانك * يصرف شرطه بين يديه * فيما لا يمكن توصله اليه * ويتولون الانتقام ممن سخطت عليه * وينبغي ان يكون ذا دربة وشدة * وكفاية ونجدة * مبادرا لامتثال الاوامر * متيقظا لما تريد منه في الباطن والظاهر * عارفا بتصرفاتك واخلاقك * في حالتي ترفقك وارهاقك * فربما غضبت على من لا تريد ان يدركه عقابك * بل يزجره تخويفك وارهابك * فليتثبت في امره * ولا يعجل عليه من فوره * الى ان تسكن من غضبك * ويكون ذلك من حسن تصرفه في قضاء اربك * ويجب عليه ان يكون مرتقبا لبابك * شديد المحبة في جنابك * يا بني واما قوادك فلتتخير قوادا من انجاد جندك زعماء صادقين في محبتك وافين بعهدك ذوي حزم وكفاية ومعرفة ودراية * لا يصلون الى الرعية بمضرة ولا باذاية * بل يسدون الثغور * ويصدون العدو المحذور * ويحوطون البلاد * ويمنعونها من كل باغ وعاد * وساع في الفساد * فتكون بهم مطمئن الخاطر * آمنا في الباطن والظاهر لسدهم الثغور المخوفات * وكفهم الاكف العاديات * واجزائهم عنك في المضلات * بحيث اذا بعث العدو جيشا لفساد البلاد * قابلته بقايد من هولاء القواد * مثل ما فعل الامين حين بعث علي بن عيسى بن ماهان قايدا على مائتي الف فقابله المامون بطاهر بن الحسين قايدا اعتنه في ثلاثة عشر الفا وقد كان كتب اليه كتابا يقول فيه اني وجهت اليك بجراب من سمسم لا يحصي جنودي الا من يحصي ما فيه قال فكتب اليه المامون عندي حمام يلتقط ذلك السمسم في يوم واحد فلما دنا علي بن عيسى بن ماهان من طاهر بن الحسين قال ولد علي بن عيسى لوالده يا ابت تحرز من طاهر فانه رجل خبيث قال انما يتحرز الرجال من اقرانها وسترى طاهرا اذا وقعت عينه علي كيف ياتيني مستامنا فلما تجمعا في

ارض واحدة خرج طاهر في جملة خيل ووقف في موضع يشرف فيه على عسكر علي بن عيسى بن ماهان فراى ما ملا الارض من الجيوش وهاله كثرة ذلك فالتفت الى هرثمة وقال ما ترى هذا جمع لا قبل لنا به فقال له هرثمة الراي ما ترى فقال طاهر اما انا فوالله لا رجعت الى صاحبي مهزوما ابدا حتى اموت ولاكني اجعلها جاهلية واضرب في عسكرهم ومن تابعني من اصحابي حتى اموت او يفتح الله لي قال هرثمة وانا افعل مثل فعلك فرجعا الى عسكرهما وانتخبا منه نحو الستمائة ثم اقتحما بهم عسكر علي بن عيسى وجعل يشق بهم الناس حتى وصل مضرب علي ابن عيسى بن ماهان فخرج اليه عبد اسود لعلي بن عيسى كان من انجد الرجال فدافع عن علي فجمع طاهر يديه على قايم سيفه وضرب به الاسود فسمي بذي اليمينين ثم اقتحم على علي فقتله فلما قتله وانفصل جمع علي منهزما اتبعه هو واصحابه نحو من ستة ايام يقتلونهم في كل موضع ومشى طاهر بن الحسين وهرثمة حتى نزلا على الامين ببغداد فحاصراه فلما ضيقا عليه الحصار كتب الامين الى طاهر * الحمد لله الذي يرفع من يشاء بقدرته * ويضع من يشاء بحكمته * الذي يعطي ويمنع * ويقبض ويبسط * احمده على نوايب الزمان * وخذلان الاعوان * وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله خيرة آل * اما بعد فقد رايت من الصلاح الخروج الى اخي من هذا السلطان فاني ارى الملك حظا له دوني وهو المحكم في امري فاعطني الامان على نفسي وامي وولدي وحاشيتي حتى اخرج اليك على حكم اخي راضيا بجوره من عدله وانتقامه من عفوه فقال طاهر هيهات هلا كان هذا قبل ضيق الخناق * وتفرق الفساق * فلما يئس الامين من طاهر كتب اليه اعلم يا طاهر انه ما قام لنا قايم قط في حق قيامه لنا او لاخذنا الا كان السيف جزآءه منا فانظر لنفسك او دع وقد علمت ما فعل ابو سلمة الخلال من اول هذا الامر وما كان من ابي العباس له وما كان من ابي مسلم صاحب الدعوة وعلى اي شيء انقضى امره مع ابي جعفر والسفاح قال طاهر وقد كان قوم يضعفون عنده الامين اما والله

لقد قذف في قلبي نارا من الخوف لا يطفيها امن ابدا وكان يقرا كتاب الامين على اهل خراسان ويقول ليس بمضعف * ولاكنه مخذول ولما يئس الامين من طاهر خاطب هرثمة يطلب منه الامين فهبط فقتله طاهر بن الحسين وبعث براسه للمامون * ويقال ان ارسال طاهر بن الحسين لقتال علي بن ماهان انما كان عن راي دوبان الحكيم الهندي وكان دوبان هذا من رجال كلهسان قد وجهه ملكه هدية الى المامون * وكتب اليه اني وجهت اليك بهدية ليس في الارض اسنى منها ولا ارفع ولا افخر ولا انفع فعجب المامون من ذلك وقال لوزيره الفضل بن سهل سل الشيخ ما عنك فساله فقال ماثم عندي اكثر من علم قال واي شيء علمك قال راي ينفع * وتدبير يقطع * ودلالة تجمع * فلما اجمع راي المامون على علي بن عيسى بن ماهان والي العراق قال له الشيخ راي وثيق * وامر رقيق * وحزم مصيب * وملك قريب * والسير ماض * فاقض ما انت قاض * فقال من نوجه من القواد * فقال الشيخ الفتى الاشهر * الطاهر الاطهر * يسير ولا يعثر * قوي مردوب * مقاتل غير مغلوب * قال فكم نوجه معه من الخيل * قال اربعة ءالاف * من الاسياف * لا تنقص في العدد * ولا تحتاج الى مدد * فوجه طاهر بن الحسين * فقال في اي وقت يخرج * فقال مع طلوع الفجر * يجتمع اليه الامر * ويصير الى النصر * نصر سريع * وقتل ذريع * النصر له لا عليه * ثم يرجع الامر اليك لا اليه * فظهر طاهر بن الحسين على علي بن ماهان واستولى على عسكره * فامر المامون لدوبان بمائة الف فلم يقبلها وقال ايها الملك ان ملكي لم يوجهني لانقص مالك وساقبل ما يفي بهذا المال او يزيد * قال وما هو قال كتاب يوجد بالعراق * فيه مكارم الاخلاق * وعلوم الاوفاق * من كتب عظيم الفرس * فيه شفاء النفس * من صنوف الاداب * مما ليس في كتاب * ولا عند عاقل لبيب * ولا فطن اديب * يوجد في خزاين * تحت ابواب المداين * فيقاس بالذرعان * في وسط الايوان * لا زيادة ولا نقصان * فاحفر المدر * واقلع الحجر * فاذا وصلت الى الساحة فاقلعها تجد الحاجة * ولا تلزم

لغيرها * فيلزمك غب ضيرها * فارسل المامون الى ايوان كسرى فحفر في
وسطه فوجدوا صندوقا صغيرا من رخام اسود عليه قفل منه فحمل الى
المامون فقال لدوبان اهلك بغيتك قال نعم ايها الملك قال خله وانصرف
فتكلم الشيخ ونفخ في القفل فانفتح فاخرج منه خرقة ديباج فنشرها فسقط
منها اوراق فعدها مائة ورقة ولم يكن في الصندوق شيء غيرها فاخذ
الاوراق وانصرف الى منزله قال الفضل ابن سهل فجئته وسالته فقال
هذا كتاب جاوبدان جرد تاليف كنجور وزير الملك انوشروان فطلبت
منه شيئا فدفع الي ورقات وترجمها لي الخضر بن علي ثم اخبرت المامون
فقال احمل الي الورقات فحملتها اليه فقراها فقال هذا والله الكلام لا ما
نحن فيه من لي السنتنا في فجوات اشداقنا ولولا ان العهد حبل طرفه
بيد الله وطرفه بايدينا لاخذته منه فهكذا ينبغي لك يا بني ان تتخير
قوادك * وتستعين بهم على امور عمالتك واجنادك وبلادك * فان ظفرت
برجل مثل طاهر بن الحسين فاحرص عليه * وجدد كل يوم الاحسان
اليه * ولا تبخل عنه بفضيلة * واسمع منه واقض امورة ان اتاك في
وسيلة * وكذلك مشورة الشيخ الفرسي على امير المومنين المامون * بتوجيه
طاهر بن الحسين لقتال علي بن عيسى بن ماهان * حين اراد الامين سفك
دمه وقتله وعدمه * وتلخيص معنى ذلك ان الامين محمدا بن هرون
الرشيد لما عزم على انتزاع الخلافة من اخيه المامون وكان المامون اذ ذاك
واليا على خراسان اقامه فيها ابوه الخليفة هرون وكان له من الاولاد
اربعة الامين والمامون والقاسم والمعتصم وكان المامون احب اليه لفرط
ذكائه ونجابته وقصد ان يجعله ولي عهده فلم تمكنه والدة الامين زبيدة
فكتب رقعة واخذ فيها خط العلماء والاعيان وجعل فيها ولي عهده الامين
وان يستقل المامون بولاية خراسان ثم يكون الخليفة من بعد الامين وان
يستقل القاسم بالجزيرة والثغور ثم يكون الخليفة من بعد المامون وامر بوضع
هذا الكتاب في داخل الكعبة المشرفة ليعمل به وليلا يغيرة احد * ولما
قسم الدنيا بين هولاء الثلاثة قال بعض العقلاء لقد القى باسهم بينهم

وغاية ذلك تنصر بالرعية ومن الحكمة العجيبة انه لم يذكر ابنه المعتصم لكونه كان اميا فساق الله تعلى الخلافة اليه من بعدهم وجعل الخلفآء كلهم من نسله ولم يجعل من نسل غيره من اولاد الرشيد خليفة فلما مات هرون الرشيد وافضت الخلافة لوالد الامين قصد ان ينقض تلك البيعة ويجعل الخلافة من بعده لابنه موسى فكتب لاخيه المامون يستدعي حضوره ويذكر حاجته الى لقائه لامر مهم لا يتسع لذكره الكتب واكد في تعجيل قدومه وكان للمامون جواسيس ببغداد عند الامين فكتبوا اليه بحقايق الامور ولما وصل كتاب الامين الى اخيه كتب المامون اليه معتذرا بان مملكته مجاورة لممالك الكفرة ولا يامن غايلتهم وان قصده العزم لحفظ الثغور الاسلامية فارسل الامين ثانيا في تاكيد طلبه فاعتذر اليه ففطن كل منهما بما في ضمير الاخر واشتهر الخبر بين الخواص والاعيان فارسل الامين واتى بالورقة المعلقة في البيت الحرام واخفاها وعقد بيعة الخلافة لابنه موسى وهو صغير وعزل المامون والقاسم وجهز جيشا عظيما كما ذكرنا لحرب اخيه المامون وقدم عليه الامير علي بن عيسى بن ماهان وكان علي هذا قد ولي خراسان مرة وبسط العدل فيها والمعروف مع اهلها واخبر المامون انه اذا قدم خراسان لم يختلف عليه فيها اثنان فاضطرب امر المامون لذلك وعلم عجزه عن مقاومة علي بن عيسى وركب الى متنزه له ليشاور خاصته في تدبير الامر مع اصحابه وحاشيته فعرض له شيخ هرم مجوسي من الفرس فناداه باللغة الفارسية مستغيثا به من مظلمة نالته فرق له المامون وامر بان يحمل على دابة ويسير معهم الى المتنزه ليسمع شكواه بنفسه فلما استقر المامون بذلك الموضع ودخل عليه وزراؤه وخواصه وادخل المجوسي ايضا وجلس في طرف المنزل فشرع المامون في الحديث مع وزرآئه والمامون يرى ان ذلك الشيخ لا يحسن العربي وقد تعب من الحركة وربما لا يحسن الشكاية في ابتدآء الامر لهيبة المجلس فتركه ليطمئن قلبه ويسكن جاشه وشرع مع وزرآئه في التدبير فقال بعضهم الراي ان نجمع عسكرا من غير اهل خراسان ممن لا يعرف عليا بن

عيسى المذكور وقال ءاخر الراي ان تخلع نفسك وتوافق اخاك على مراده وانت معذور في ذلك لانك مكره وقال ءاخر الراي ان نجمع اهل نجدتنا ونقصد بهم بعض بلاد الكفار فنشحها ونستقر فيها وقال ءاخر الراي ان نستعين بملك الترك لانه في جوارنا ونعتمد عليه ونستعين على اخيك الغادر القاطع فهذا امر لم تزل الملوك تفعله اذا دهمها ما لا قبل لها به * فلما سمع المامون هذه المقالة ركن اليها وعول على هذا الراي ثم فكر فقال كيف اجعل للترك على حرب المسلمين سبيلا وقال لاصحابه قوموا عني فنهضوا اجمعين والتفت فراى الشيخ الفارسي فقربه ورفق به وساله عن امره وما قصد اليه على لسان ترجمان اقامه له فقال الشيخ بلسان عربي ايها الامير اني جئت لحاجة فعرض لي دونها ما هو ءاكد منها واولى بالعناية فقال له المامون قل ما احببت سالكا سبيل الادب فقال الشيخ ايها الامير اني دخلت عليك وانا غير متصف بالمحبة لك ثم القى الله في قلبي من المحبة للامير ما ملاه وانه كان يقال الرق ثلاثة انواع فاولها واشدها استيعابا للباطن والظاهر رق الاختراع وهو الرق لله سبحانه صانع الاشياء ومخترعها والثاني رق الاصطناع وهو رق المنعم عليه للمنعم والثالث رق الاتباع وهو صنفان احدهما رق الحب وهو اقربهما الى رق الاختراع لان له سلطانا مبسوطا على الظاهر والباطن والثاني رق الرعية لراعيها والعبيد لساداتها وانا اخبر الامير اعزه الله انه قد تظافرت له علي ثلاث قوى من الرق رق الحب ورق الاصطناع ورق الاتباع * فان راى الامير اعزه الله ان يوسل وسيلتي ويصدق املي ويسعف طلبتي فيلحقني باهل اختصاصه ويكرمني بمكاثرة اوليائه ونصحائه فعل ذلك متطولا به غير محتاج اليه وان عبده ليرجو ان تصادف الصنيعة منه شاكرا والاختصاص به مشفقا ناصحا * فقال له المامون ما دينك ايها الشيخ فقال مجوسي فاطرق المامون مفكرا فيما تكلم به فقال الشيخ لا يصدن الامير حقارة قدري عنه * فانه كان يقال لا تحقرن من الاتباع احدا فانك تنتفع به كائنا من كان وهو احد رجلين اما شريف فتجمل به واما وضيع

فيحمي عرضك ويصون مروتك على اني لست اعني بحقارة قدري عند الامير حقارة اخلاق ولا حقارة اعراق * فاما اخلاقي فامتحانها بيد الامير واما اعراقي فاني برهمي من ولد البرهمي سيد ملوك الفرس المتوسط بينها وبين اول الاوايل وانما اعني حقارة ديني وكوني في عقد ذمة وصغار جزية * فقال المامون ما بنا عنك ايها الشيخ من رغبة وان انتقلت من ذمتنا الى ملتنا التحفناك شعارا * فقال الشيخ ان الباعث من نفسي الى ما دعاني الامير اليه لشديد ولكني لا افعله في مقامي هذا ولعلي افعله فيما بعد ثم قال ايأذن لي الامير ان اتكلم فيما فاوض الان وزراءه فيه فقال له المامون نعم * فقال الشيخ سمعت ما اشار اليه وزراء الامير وكل منهم مجتهد في الاصابة ولست ارضى شيئا مما ذهبوا اليه فقال له المامون اطلعنا على رايك فقال الشيخ اني اجد في الحكم التي ورثها اباءي عن اباءهم انه ينبغي للعاقل اذا دهمه ما لا قبل له به ان يلزم نفسه التسليم للحكيم قاسم الحظوظ ولا يضيع مع ذلك نصيبه من الدفاع بحسب طاقته فانه ان لم يحصل على الظفر حصل على العذر فقال المامون ايها الشيخ انه كان يقال لا راي لكذوب وقد سمحت انفسنا لك بالثقة من غير امتحان وما ذاك لاختيارنا اضاعة الحزم ولاكنا احببنا ان نذيقك ثمرة حبنا بالمكاشفة الدالة على القبول وها نحن نخبرك ان هذا المتوجه الينا يعني علي بن عيسى هو املك بالبلد منا ثم لا يمكننا مقاومته لو اردنا ذلك واهدرنا الاموال فقال الشيخ ايها الامير ينبغي ان تمحو هذا الامر من قلبك بالجملة وان لا تصغي الى من ينطق به فانه كان يقال ما اكثر من كثره البغي ولا اقوى من قواه الظلم ولا املك من ملكه الغضب وها انا احدثك عن من ان حذوت مثاله الت ماله * فقال له المامون هات * فقال الشيخ ان الخنشوار ملك الهياطلة لما اسر فيروز بن يزدجرد ملك فارس واراد اطلاقه اخذ عليه عهدا ان لا يغزوه ولا يقصده بمكروه ووضع في اقصى تخوم ارض الهياطلة صخرة واخذ على فيروز عهدا ان لا يتجاوز تلك الصخرة ولما استوثق الخنشوار من فيروز بما اخذ عليه من عهود المسالمة اطلقه فحين

رجع فيروز الى دار ملكه داخلته الحمية والانفة فعزم على غزو الخنشوار واطلع وزراءه على ذلك فحذروه النكث وخوفوه عاقبة البغي وما ردعه ذلك عما هم به فاذكروه العهود التي اخذها عليه الخنشوار فقال لهم اني انما حلفت ان لا اتجاوز تلك الصخرة وانا ءامر بحملها على فيل فتكون بين يدي جنودي لا يتجاوزها احد منهم فلما راوا ان الهوى وقف به على حد الرضى بهذا القول علموا انقياد عقله لشهوته فامسكوا عنه واعتقدوا ان لا يراجعوه في ذلك وكان يقال ان الهوى صدا يعلو العقل فلا تنطبع معه صور الحقايق وكان يقال ما لم يبلغ الهوى حد اللجاج فهو نشوة السكر فاذا بلغ اللجاج فذلك زين السكر وقوة سلطانه وكان يقال لا ترشد تابع الهوى في حال استيلاء الشهوة والغضب عليه لانها حال احتجاب عقله وذلك ان الهوى املك بالنفس لتقدم سلطانه عليها فاما سلطان العقل فطاري مستفاد * وللعقل حجابان وهما الشهوة والغضب فلا يزال العقل ناظرا الى الهوى قاهرا له ما لم يحجبه غضب او شهوة فحينئذ ينبسط سلطان الهوى وينفذ حكمه * قال فجمع فيروز مرازبته وهم اربعة يتبع كل مرزبان خمسون الف مقاتل كان كل واحد منهم ضابطا لربع من ارباع مملكة بابل وامرهم بالتجهيز لحرب الهياطلة ففعلوا وسار فيروز نحو الخنشوار في جيوش يظن ان لا غالب لها وكان الخنشوار يضعف عن مقاومة مرزبان من مرازبة فيروز وانما كان ظفره بفيروز اولا بمكيدة ليس هذا موضع ذكرها * وقد كان موبذان موبذ ومعنى هذا اللقب حافظ حفظة الدين وهو عند الفرس كالنبي قال لفيروز حين راى عزمه على غزو الخنشوار لا تفعل ايها الملك فان رب العالم يمهل الملوك على الجور ما لم ياخذوا في هدم اركان الشريعة فاذا اخذوا في ذلك لم يمهلهم وان العهود والمواثيق ركن من اركان الشريعة فلا تعرض له بسوء فلم يلتفت فيروز الى هذه المقالة وركب راسه في معصية نصحائه وكان يقال * يستدل على ادبار الملك بخمسة امور احدها ان يستكفي الملك الاحداث ومن لا خبرة له بالعواقب * والثاني ان يقصد اهل مودته بالاذى *

والثالث ان ينقص خراجه عن قدر ماونة ملكه والرابع ان يكون تقريبه وابعاده للهوى لا للراي والخامس استهانته بنصايح العقلاء واراء ذوي الحكمة وكان يقال من عصى نصيحا فقد استفاد عدوا * وكان يقال انما يكون قبول الصواب ورده بحسب قوة التخيل الفكري وضعفه فمن قوي تخيل فكره فهو في سلطان الراي غالبا * ومن ضعف تخيل فكره فهو في سلطان الهوى مغلوبا وعلى حكم هذا القانون فمن عدم الفكرة في الامور التحق بالبهايم * قال الشيخ الفارسي وان فيروز سار قاصدا نحو الخنشوار حتى انتهى الى الصخرة التي نصبها علما لتخوم ارضه واستحلف فيروز الا يجاوزها فامر فيروز بقلعها وحملها على فيل وان يكون الفيل الذي يحملها بين يدي عسكر فيروز ونهى ان يتجاوز ذلك الفيل احد من العسكر فما ابعد عن ذلك الموضع الذي كانت الصخرة فيه حتى جاءه رجل من ثقاة اصحابه فاخبره ان اسوارا عظيم القدر من اساورته قتل رجلا مسكينا ظلما وعدوانا وجاء اخو ذلك المسكين المقتول فاستغاث بفيروز وتظلم من الاسوار قاتل اخيه فامر له فيروز بمال ليرضيه به من دم اخيه فابى قبول المال وقال لا يرضيني الادم قاتل اخي فامر فيروز بطرده فانطلق من فوره الى ذلك الاسوار الذي قتل اخاه فشد عليه بخنجر في يده فلما راه الاسوار حرك فرسه هاربا بين يديه وانتهى الخبر الى فيروز فتعجب من ذلك فنزل وزير من وزراء فيروز عن دابته وتقدم بين يدي دابة فيروز فسجد له فساله فيروز عن امره فذكر له انه يريد الخلوة به في مهم عرض له فامر فيروز فضرب له فسطاط فنزل فيه واذن لذلك الوزير فدخل عليه وامره بذكر ما عنده فقال له ايها الملك السعيد ملكت الاقاليم السبعة وعمرت عمر يدي راسف في مثل عزته وقوته لقد ظهرت عناية اول الاوايل بك بما ضربه لك من المثل في امر هذا الاسوار اذ كان اسوارا نجدا هرب بين يدي مسكين في يده خنجر وما ذاك الا لبغيه وتعديه فقال له فيروز انه لم يفر منه لعجزه عنه بل لخوفه منا ولم يكن ليفعل تلك الفعلة القبيحة ثم يشفعها بمثلها فقال الوزير ايها الملك ارايت ان دعوته الى

ذلك المسكين ومبارزته وامتنه من سطوتك فظهر ذلك المسكين عليه اما تعلم ان هذا مثل ضرب لك قيم العالم فقال الملك لافعلن ذلك ثم انه احضر الاسوار فامنه وامره بمبارزة ذلك المسكين الثاير باخيه فاجاب الى ذلك وجمع عليه سلاحه وركب فرسه واتي بذلك المسكين فعرضت عليه مبارزته فاظهر الرغبة فيها والحرص عليها فخوف من الهلاك فلم يخف فقيل له اما ترى درعه وسلاحه وفرسه اما سمعت بفروسيته ونجدته واقدامه انك مهلك نفسك ومستميت ولا اثم علينا فيك * فقال لهم المسكين دعوني واياه فانه على فرس الغرور وانا على فرس البصيرة وهو لابس درع الشك وانا لابس درع الثقة وهو مقاتل بسيف البغي وانا مقاتل بسيف الحق * فقال الوزير لفيروز ايها الملك ان كلام هذا المسكين ابلغ في المثلية والموعظة من ظفره بهذا الاسوار فصن اسوارك واستبق نفسه ولا تعرضه للهلكة بلقآء هذا المسكين واعمل في رضى هذا المسكين بالاحسان اليه فان لم يرضه الّا القصاص فاقض له بالعدل المالوف منك واستدم عناية الاول الاخذ بناصيتك بعدايتك بالحق الذي يرضيه العمل به ويسخطه اجتنابه فقال فيروز لا بد من ان اخلي بينهما وانظر الى ما يكون منهما ان كان المسكين يختار ذلك ويرغب فيه فاعادوا عرض مبارزة الاسوار على المسكين فاصر على الرغبة فيها والحرص عليها وخوفوه الهلاك فلم يزده تخويفهم الّا جراة واقداما فقيل للاسوار القه ولا تجبن عنه فحمل كل واحد منهما على الاخر فالتقيا وقبض المسكين على شكيمة فرس الاسوار وضربه الاسوار بالسيف ضربة تطاطا لها المسكين فاصاب ذباب السيف اليته فاثر فيها اثرا ليس بالكبير ثم ثار اليه المسكين فضربه بالخنجر في عنقه وجذبه فصرعه ثم ضربه وهو ملقى ضربة اخرى فادخل من الدرع حلقات في جوفه وقضى عليه فبات فيروز تلك الليلة في موضعه ذلك يفكر فيما ياتيه من الامر ثم انه استقاد لهواه فنفذ لوجهه * وكان يقال اول الهوى هون * وءاخره هوان * وكان يقال الهوى طاغية فمن ملكه اهلكه وكان يقال الهوى كالنار اذا استحكم اتقادها عسر اخمادها وكالسيول اذا

اتصل مدها * تعذر صدها وكان يقال ليس الاسير من اوثقه عداه اسرا *
انما الاسير من اوثقه هواه قهرا وارهقه خسرا قال الشيخ ولما علم الخنشوار
قصد فيروز اليه لحربه حمل نفسه على التثبت ووكل الامر الى الاول الاخذ
وساله ان يغضب لعهوده ومواثيقه التي لم يرع فيروز حقها ولا خاف تبعة
نكثها واخذ مع ذلك بحظه من الحزم وسد ثغوره وجمع اليه جنده واعد
للقاء فيروز عدته وامهل حتى وطي فيروز كثيرا من ارضه وتوسط مملكته
وعاث في بلاده وساء على رعيته اثره فنهض اليه ففاجاه وصدقه الجلاد
فانكشف فيروز منهزما واسلم من كان في يديه فقتل الخنشوار رجاله
وغنم امواله وامعن في طلب فيروز حتى ظفر به فقتله واسر اهل بيته
وحماة اصحابه فكانت العاقبة له قال فلما سمع المامون بما ضرب له
الشيخ الفارسي من المثل القويم اقبل عليه مستبشرا وقال قد سمعنا مقالتك
فصادفت منا قبولا لها وشكرا عليها وسرورا بها فما ذا ترى فيما دعوتك
اليه من توحيد الله عزوجل الذي اجزل من العقل حظك وفتق بالمعرفة
فكرك وانطق بالحكمة لسانك وقطع بمحمد صلى الله عليه وسلم عذرك
فقال الشيخ اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمدا رسول الله * فسر
المامون باسلامه واجزل صلته وقرب منزلته فالحقه بخاصة اوليائه واصحابه
وامره بملازمة بابه فما لبث الا اياما قلايل حتى لحق بربه * وعمل
المامون برايه فانجح الله عمله وبلغه من الخلافة ما امله * فهكذا يا بني
ينبغي ان يكون فوادك * يا بني واما عمالك فلتتخير منهم العارفين بجباية
الخراج * واهل البصر بالالقاب التي اليها الاحتياج * ويكونون ذوي حزم
وكفاية * ودربة ودراية * وضبط وامانة * وفضل وديانة * لا يضيعون
اعمالك المخزنية * ولا يضرون في ذلك الرعية * ويحتاطون في الحالتين
جريا على السبيل السوية * يا بني لا تطمئن الى العمال * وان اظهروا
لك التقشف والاقلال * وتلبسوا بالعبادة والزهادة في الحال * وقد جرت
عادة الخلفاء والملوك باختبار العمال * في جبايات الاموال * كما يروى
ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب الى ابي موسى ان ياتيه بعماله

وكان واليا على العراق * قال الربيع بن زياد الحارثي وكنت عاملا لابي موسى الاشعري على البحرين فامر عمر رضي الله عنه بقدوم العمال عليه وان يستحلفوا جيعا فلما قدمت المدينة اتيت يرفى مولى عمر رضي الله عنه فقلت يا يرفى مسترشد وابن سبيل اخبرني في اي الهيئات يحب امير المومنين ان يرى عماله فاوما الى الخشونة فاتخذت مطرفين ولبست جبة صوف ولففت عمامتي على راسي على غير استوآء فدخلنا على عمر بن الخطاب رضي الله عنه وصففنا بين يديه فصعد فينا وصوب فلم ياخذ عينه غيري فدعاني فقال من انت قلت الربيع بن زياد الحارثي قال وما تتولاه من اعمالنا قلت له البحرين قال وكم ترزق قلت له الفا قال كثير فما تصنع بها قلت اتقوت ببعضها واعود على اقاربي فما فضل عنهم فعلى فقرآء المسلمين قال فلا باس عليك عد الى مكانك من الصف فرجعت الى موضعي وصعد فينا وصوب فلم تقع عينه الّا علي فدعاني ثانية فقال لي كم سنك قلت خمس واربعون قال الان استحكمت امرك ثم دعا بالطعام واصحابي حديثو عهد بلين العيش وقد تجوعنا فاتي بخبز واعضآء بعير فجعل اصحابي يعافون اكله وجعلت ءاكل فاجيد وانا انظر اليه يلحظني من بينهم ثم سبقت مني كلمة تمنيت اني سخت في الارض ولم اقلها فقلت يا امير المومنين ان الناس يحتاجون الى اصلاحك فلو عمدت الى طعام الين من هذا فزجرني ثم قال كيف قلت قلت يا امير المومنين لو امرت بقوتك من الطحين ان يخبز لك قبل ارادتك اياه بيوم ويطبخ لك اللحم كذلك فيوتى بالخبز لينا وباللحم غريضا فسكن غضبه ثم قال هاهنا غرت قلت نعم. فقال يا ربيع انا لو شئنا لملانا هذه الرحاب من سلايق وسنابك يعني خبز الحواري ولاكني رايت الله تعالى عير قوما بامر فعلوه فقال عز من قايل اذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ثم امر عمر رضي الله عنه ابا موسى الاشعري باقراري على عملي وان يستبدل باصحابي وروى البخاري ان رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل رجلا يقال له ابن الانبية فلما جآء قال يا رسول الله

هذا لكم وهذا اهدي لي فغضب النبي صلى الله عليه وسلم فقال ما بال الرجل نستعمله على عمل من اعمالنا فيقول هذا لكم وهذا اهدي لي افلا قعد في بيت ابيه وامه فينظر هل يهدى له قال ملك رحمه الله وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يشاطر العمال فياخذ نصف اموالهم وانما شاطرهم حين ظهرت لهم اموال لم تكن لهم قبل الولاية * قال ابو هريرة لما عزلني عمر عن البحرين قال لي اخذت مال الله فقلت ما اخذت مال الله فقال من اين اجتمعت لك عشرة الاف درهم قلت خيلي تناتجت وعطايا تلاحقت وتجارة تداركت قال اد الشطر فلما صليت الصبح استغفرت لامير المومنين فقال لي بعد ذلك الا تعمل لنا قلت لا قال قد عمل من هو خير منك يوسف صلوات الله عليه قلت ان يوسف نبي وانا ابن اميمة اخشى ان تشتم عرضي وتضرب ظهري وتاخذ مالي ودعا عمر رضي الله عنه بالحرث بن وهب حين عزله فقال ما قلاص واعبد بعتها بمابتي دينار قال خرجت بنفقة معي فتجرت بها فقال انا والله ما بعثناكم بالتجارة في اموال المسلمين ادها قال اما والله لا عملت لك عملا بعدها ابدا قال انتظر حتى استعملك قال وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه الى عمرو بن العاصي وكان عامله على مصر من عبد الله عمر ابن الخطاب الى عمرو بن العاصي اما بعد فانه بلغني انه فشت لك فاشية من خيل وابل وبقر وعبيد بك قبل ذلك ولا مال لك فاكتب الي من اين اصل هذا المال فكتب اليه عمرو لعبد الله عمر امير المومنين من عمرو بن العاصي فاني احمد الله اليك الذي لا اله الا هو فانه اتاني كتابك تذكر فيه فاشية ما قبلي وانك تعرفني ولا مال لي قبل ذلك فاعلم يا امير المومنين اني ببلد السعر به رخيص واني اعالج من الحرفة والزراعة ما يعالجه الناس وفي رزق امير المومنين سعة وبالله الذي لا اله الا هو لو رايت خيانتك حلالا ما خنتك فاقصر اليك ايها الرجل فان لنا احسابا هي خير من العمل لك ان رجعنا اليها عشنا بها ولعمري ان عندك مالا يدوم معيشته ولا يذم فاني كان ذلك ولم يقبح فعلك ولم يشركك

في عملك فكتب اليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه اما بعد فاني
والله ما انا من اساطيرك التي تسطر ونسقك الكلام في غير موضع وما يغني
عنك ان تزكي نفسك وقد بعثت اليك محمدا بن مسلمة فشاطره مالك
فانكم ايها الرهط الامرآء جلستم على عيون الاموال ثم لم يعوزكم عذر
تجمعون لابنآئكم وتمهدون لانفسكم اما انكم لتجمعون النار وتورثون النار
والسلام * فلما قدم محمد بن مسلمة على عمرو بن العاصي قدم له عمرو طعاما
كثيرا فابى محمد من اكله فقال عمرو تحرمون طعامنا فقال لو قدمت
الي طعام الضيف لاكلته ولكنك قدمت طعاما اراه تقدمة شر والله لا
اشرب عندك المآء فاكتب لي كل شيء هو لك ولا تكتمه ففعل وشاطره
في جميع ماله حتى نعليه اخذ احداهما وترك الاخرى فغضب عند ذلك
عمرو وقال قبح الله زمانا عمل فيه عمرو لعمر والله اني لاعرف الخطاب
يحمل على راسه حزمة الحطب وعلى ابنه مثلها وما منهما الّا عليه نمرة لم
تبلغ رسغيه وبالله ما كان العاصي ابن وايل يرضى ان يلبس الديباج
مزررا بالذهب فقال له محمد اسكت عمر والله خير منك واما ابوك وابوه
ففي النار لولا الزمان الذي سبقته فيه لالفيت معتقل شاة يسرك غزرها
ويسوءك بكيها فقال عمرو هي عندك امانة اكتمها عني وبعث معاوية
الى عمر بن الخطاب وهو وال على الشام بمال وادهم وهو القيد وكتب الى
ابيه ابي سفيان ان يدفع المال الى عمر والادهم فخرج الرسول حتى قدم
على ابي سفيان بالمال والادهم فذهب ابو سفيان بكتاب معاوية والادهم
الى عمر وحبس المال عند نفسه فلما قرا عمر الكتاب قال اين المال ابا
سفيان قال كان علينا دين ومئونة ولنا في بيت المال حق فاذا اخرجت
لنا شيئا فاحتسبنا به فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه اطرحوه في
الادهم حتى ياتي بالمال فلما راى ذلك ابو سفيان ارسل في المال فاتي به
وامر عمر باطلاقه من الادهم فلما رجع الرسول الى معاوية قال ارايت امير
المومنين اعجب بالادهم قال له نعم وطرح فيه اباك قال لم ذلك قال
حبس المال وجآء بالكتاب والادهم الى عمر فقال معاوية اي والله والخطاب

لوكان لطرحه فيه وبلغ عمر بن الخطاب ان سعدا بن ابي وقاص اتخذ قصرا وجعل عليه بابا وقال انقطع الصويت فارسل عمر محمدا بن مسلمة وكان عمر اذا احب ان يوتى بالامر كما هو بعثه فقال له ايت سعدا فاحرق عليه بابه فقدم الكوفة فلما اتى الباب استخرج زنده واستورى نارا ثم احرق الباب فاتى سعدا الخبر ووصف له محمد بصفته فعرفه فخرج اليه سعد فقال له محمد انه بلغ امير المومنين انك قلت انقطع الصويت فحلف سعد بالله انه ما قاله فقال محمد نفعل الذي امرنا به ونودي عنك ما تقول ثم ركب راحلته راجعا فلما دخل على عمر قال لولا حسن الظن بك ما راينا انك اديت وذلك انه اسرع السير فقال قد فعلت وان سعدا ليعتذر ويحلف بالله ما قال فقال عمر فهل امرلك بشيء فقال قد رايت انك لم تامر لي فكيف هو فقال عمر ان ارض العراق ارضا رفيقة وان اهل المدينة يموتون حولي من الجوع فخشيت ان آمر لك بشيء يكون لك بارده ولي الحار وزار ابو سفيان معاوية ابنه بالشام فلما رجع من عنده دخل على عمر بن الخطاب فقال له عمر اجدنا ابا سفيان قال ما اصبنا شيئا فنجديك فاخذ عمر خاتمه وبعث به الى هند وقال للرسول قل لها يقول لك ابو سفيان احضر الخرجين اللذين جئت بهما فلم يلبث عمران اوتي بخرجين فيهما عشرة آلاف درهم فالقاهما عمر في بيت المال فلما ولي عثمان ردهما على ابي سفيان فقال ابو سفيان ما كنت لاخذ مالا عابه علي عمر ويروى ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه استعمل على حمص رجلا يقال له عمير بن سعد فلما مضت السنة كتب اليه ان يقدم فلم يشعر به عمر ان قدم ماشيا حافيا عكازه بيده واداوته ومزوده وقصعته على طهره فلما نظر اليه عمر قال يا عمير اخنتنا ام البلاد بلاد سوء فقال يا امير المومنين اما نهيت ان تجهر بالسوء ونهيت عن سوء الظن وما ترى من سوء الحال وقد جئتك بالدنيا اجرها بجذافيرها قال وما معك من الدنيا قال عكازة اتوكا عليها وادفع بها عدوا ان لقيته ومزودي احمل فيه طعامي واداوتي هذه احمل فيها ماء لشربي

وطهري وقصعتي هذه اتوضا فيها واغسل فيها راسي وءاكل فيها طعامي فوالله يا امير المومنين ما الدنيا بعد إلّا تبعا لما معي قال فقام عمر من مجلسه الى قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وابي بكر فبكى ثم قال اللهم الحقني بصاحبي غير مفتضح ولا مبدل ثم عاد الى مجلسه فقال ما صنعت في عملك يا عمير قال اخذت الرقة من اهل الرقة والابل من اهل الابل واخذت الجزية من اهل الجزية عن يد وهم صاغرون ثم قسمتها بين الفقرآء وابنآء السبيل والمساكين فوالله يا امير المومنين لو بقي عندي شيء اتيتك به فقال عمر عد الى عملك فقال عمير انشدتك الله ان تردني الى عملي ولم اسلم منه حين قلت لذمي اخزاه الله ولقد خشيت ان يخصمني له محمد صلى الله عليه وسلم ولقد سمعته يقول انا حجيج المظلوم فمن حاججته حججته ولاكن ايذن لي ءاتي اهلي فاذن له فاتى اهله فبعث عمر رجلا يقال له حبيب بمائة دينار فقال ايت عميرا فانزل عليه ثلاثا فان يك خائنا لم يخف عليك في عيشه وحال اهله وبيته فان لم يكن خائنا فادفع له المائة فاتاه حبيب فنزل عليه ثلاثا فلم ير له عيشا إلّا الشعير والزيت فلما مضت ثلاث قال يا حبيب ان رايت ان تتحول الى جيراننا فلعل ان يكونوا اوسع عيشا منا اما نحن فوالله لو كان عندنا غير هذا لاثرناك به قال فدفع المائة له وقال بعث بها اليك امير المومنين عمر فدعا بخمار خلق لامراته فصرها الخمسة والستة والسبعة فقسمها فاتى حبيب الى عمر فقال يا امير المومنين جئتك من عند ازهد الناس وما عنده من الدنيا قليل ولا كثير فبعث اليه عمر فقال ما صنعت يا عويمر في المائة قال لا تسئلني عنها قال لتخبرني قال قسمتها بيني وبين اخواني من المهاجرين والانصار قال فامر له بوسقين من طعام وثوبين فقال يا امير المومنين اما الثوبان فاقبلهما واما الوسقان فلا حاجة لي بهما عند اهلي صاع من بر هو كافيهم حتى ارجع وروي ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه صرار بعمائة دينار وقال لغلام اذهب بها الى ابي عبيدة بن الجراح

ثم تلكا ساعة في البيت حتى ترى ما يصنع بها فذهب الغلام اليه وقال له يقول لك امير المومنين اجعل هذه في بعض حوايجك فقال وصله الله ورحمه ثم قال تعالى يا جارية اذهبي بهذه السبعة الى فلان وبالخمسة الى فلان حتى انفدها ورجع الغلام الى عمر فاخبره فوجده قد إعد مثلها لمعاذ بن جبل فقال له اذهب بها الى معاذ بن جبل وتلكا في البيت حتى ترى ما يصنع بها فذهب بها اليه وقال ان امير المومنين يقول لك اجعل هذه في بعض حوايجك فقال رحمه الله ووصله ثم قال يا جارية اذهبي الى بيت فلان بكذا والى بيت فلان بكذا فقالت امراة معاذ ونحن والله مساكين فاعطنا ولم يبق في الخرقة إلّا ديناران فدحا بهما اليها فرجع الغلام فاخبر بذلك امير المومنين عمر فقال عمر انهم اخوة بعضهم من بعض ولما عزل عثمان بن عفان رضي الله عنه عمرو بن العاصي عن مصر استعمل عليها ابن ابي سرح فحمل من المال اكثر مما كان يحمله عمر فقال له عثمان يا عمرو أشعرت ان اللقاح درت بعدك فقال ذلك لانكم قد اجفتم باولادها * قال زياد احسنوا الى المزارعين فانكم لن تزالوا سمانا ما سمنوا وقال جعفر بن يحيي الخراج عمود المملكة وما استغزر بمثل العدل ولا استنزر بمثل الظلم * واسرع الامور في خراب البلاد الجور يا بني واما جيشك فاعلم انه يجب عليك ان تنتخب لجيشك امجاد القواد * من انجاد الاجناد * فقد قالت الحكماء اسد يقود الف ثعلب * خير من ثعلب يقود الف اسد * فلتقدم على جيشك اهل النجدة والبسالة * والشجاعة والجزالة * ممن مارس الحروب * ودافع الخطوب * وصارع الابطال * واقتحم الاهوال * واعلم يا بني ان خير الاصحاب اربعة * وخير السرايا اربعمائة * وخير الجيوش اربعة ءالاف * ولن يغلب جيش يبلغ اثني عشر الفا من قلة اذا اتفقت كلمتهم وقد قالت الحكماء للكثرة الرعب * وللقلة النصر يا بني واعلم ان الجيش ينقسم الى اربعة اقسام خاصتك وقبيلك وانصارك ومماليكك الاول الخاصة بالملك * اعلم يا بني انه ينبغي لك ان تتخذ خاصة من وجوه القبايل وكرام العشاير تستخلصهم لنفسك * ليعلك كل

واحد بما انطوت عليه جماعته من السراير * ويكون كل واحد منهم محبا في جنابك * ومائلا اليك * ومعتمدا في اموره عليك * لانه اذا كان محبا في جنابك * قاد جميع جماعته الى بابك * وسعوا كلهم في مرضاتك وءارائك فلتنزل كل واحد منهم في منزلته * وترتبه على قدر ما يليق به من مرتبته القسم الثاني من الجيش القبيل اعني قبيل الملك اعلم يا بني انه ينبغي لك ان تكون محافظا على قبيلك * مواسيا لهم من كثيرك وقليلك * لا تحوجهم الى غيرك * ولا تمنعهم من خيرك * وتختص منهم لنفسك * من يكون محبا ناصحا * مخلصا صالحا * ومن تراه لاختصاصك اهلا * ولتقريبك واصطفائك محلا * وتقدم الاشياخ على الجموع * فان التابع يصلح بالمتبوع * فتجعل على كل جماعة منهم شيخا من كبارهم * واعيانهم وخيارهم * محبا في جماعتك وسلطانك وجماعته * باذلا في خدمتك جهد استطاعته * مامون الغايلة من النميمة والغيبة * سالما من النقيصة والريبة * محرضا لجماعته على طاعة سلطانه * مطالعا لك باحوالهم في كل احيانه * ولا يقول عنهم إلّا الحق * ولا يعامل سلطانه إلّا بالصدق * القسم الثالث من الجيش وهم انصار الملك من جاته * المحدقون به من جميع جهاته * اعلم يا بني انه ينبغي لك ان تتخذ لنفسك انصارا * لا يفارقونك ليلا ولا نهارا * وهم اربعة اقسام * ميمنة * وميسرة * ومقدمة * وساقة * فاما الميمنة يا بني فلتتخيرهم من ذوي الشدة والكفاية * والنجدة والحماية * وتقدم عليهم من خاصتك الاجواد * قايدا من القواد * رابط الجاش * صادق الباس * وان يكون نزولهم في محلتك عن يمينك في المنزلة منزيين احسن زي واجمله واما الميسرة يا بني فلتتخيرهم ايضا من جملة الابطال * المقتحمين للاهوال * من مشاهير الفرسان * واسود الضراب والطعان * واهل الجلاد والكفاح * والاقدام والنطاح * وتقدم عليهم قايدا ثابت القلب * عارفا بمواقع الضرب والحرب صابرا للطعن والضرب ويكون نزولهم في محلتك عن يسارك * مرتقبين لك في ايرادك واصدارك * واما المقدمة يا بني

فلتخيرهم ايضا من اصحاب الخيول السوابق * العارفين بالشدايد والمضايق * من كل اسد باسل * وبطل مقاتل * صايد للمقاتل * وتقدم عليهم قائدا بصيرا بموضع الفرص والغرة * قد مارس الحروب المرة بعد المرة * لا يحجم عن اقدام * ولا تتزحزح عند تزلزل الاقدام * ويكون نزولهم في محلتك امامك * لا يتجاوزون غرضك ومرامك * واما الساقة يا بني وهم اهل دخلتك * المخصوصون بموالاتك ونصرتك * اعلم يا بني انه ينبغي لك ان تتخذ دخلة من الحماة الامجاد * والاعيان الانجاد * من سراة القبايل * وصناديد المواقف والمحافل * ذوي ثبوت عند نزول النوازل * وصبر عند قراع الكتايب * واهل نجدة عند حلول المصايب * لانهم القطب الذي عليه المدار * والموبل الذي يرجع اليه ذوو الفرار * وبهم ترد الهزايم * وتندفع العظايم * وتنكشف الكروب * وتدور عليهم الحروب * فهم يرهبون العدو بوقوفهم * ويخذلونه بثبوت صفوفهم * فيكون جميعهم يقاتل اهل الميسرة والميمنة والمقدمة * وهذا راي من ساس الحرب وقومه * واحكمه وابرمه * لانه ربما وقع من بعضهم اختلال وعصيان * وشنئان في بعض الاحيان * فتقمعهم باهل الدخلة * وتردهم بهم عن تلك الفعلة * ولتقدم عليهم قائدا من خيار خاصتك الاقربين * الممارسين للحروب المجربين * ممن ظهرت نجابته * وكثرت اصابته * واعتورته الامور * واشتهر في كل معترك مشهور * ومن ذوي الحسب اللباب * والكرم في الانساب * ويكون نزولهم في محلتك خلف منزلك * وكذلك في حال ركوبك * وحالتي سلمك وحروبك * وهذه الجموع الاربعة المذكورة * المخصوصون من المحلة بهذه المنازل المشهورة * يركبون لركوبك * وينزلون لنزولك * لتبلغ بهم غاية مقصدك ومامولك * فيحدقون بك من جميع جهاتك * في ليلك ونهارك وساير اوقاتك * ويكونون مناوبين لقبيلك في الشجاعة * ايلا يخرج بعضهم عن الامتثال والطاعة * فان ظهر من بعض قبيلك تخاذل وانكار * فتقمعهم بهولاء الحماة والانصار * القسم الرابع * من اقسام الجيش ممليك

الملك وهم على اربعة اقسام الاعلاج * والنصارى * والاغزاز * والوصفان * ويكون قدر هولاء الذين ذكرناهم * قدر الحماة والانصار الذين قدمناهم * بحيث اذا ظهر منهم جنوح لعصيانك * او اخلال بواجب سلطانك * فتقمعهم بهولاء الاصناف * وتمنعهم من الخذلان والخلاف * وليكن هولاء المذكورون اهل شدة وكفاية * ونجدة في غاية * وزينة وعدة * وجراءة وشدة وحدة * وليكن سكناهم ببلد حضرتك * لتجدهم لعضدك ونصرتك * ولا يفارقونك طرفة عين * ولا يزالون تلقاء وجهك كل اين * واما ترتيبهم في الركوب * وطبقاتهم في هذا الغرض المطلوب * فليكن اغزازك واعلاجك بين يديك * وركابو خيلك بازائهم يتقدمون عليك * وكذلك النصارى والوصفان * يركبون خلفك مع اهل دخلتك الفرسان * ولتقدم على كل جماعة من هولاء قائدا * متحفظا ناجدا * وكذلك الاغزاز والاعلاج * يجرون في التقديم على هذا المنهاج * والاغزاز تنقسم الى اربعة اقسام * وصفان * واعلاج * واتراك * ومنصافون * وتقدم على كل جماعة منهم قائدا يقتادون به * ويكون لهم علم يمتازون بسببه * يا بني ويستحب للملك ان يتخذ رجالا انجادا كفاة اطوادا * يكونون مشائين بين يديك اذا ركبت * ومنصرفين حيث ما سرت * يكون لهم ترتيب في اللباس * يمتازون بذلك على ساير الناس * يتزينون بالاقبية الحسان * المختلفات الالوان * وبايديهم الحراب عليها صغار الرايات * من انواع الحرير مختلفات * لانهم مما يزيدون في بهاء الملك وجماله * وصحامته وكماله * وهم مما يتزين بهم الملوك والامراء * والاشراف والكبراء *

* القسم الثاني من قاعدة السياسة *

اعلم يا بني انه ينبغي لك ان تنزل الناس منازلهم وترتبهم في مراتبهم بحسب اقدارهم عندك ومناصبهم وذلك على طبقات الطبقة الاولى اعلم يا بني انه ينبغي لك ان يكون اول داخل عليك مزوارك الموصوف * وعونك المعروف * ليعرفك بمن ببابك * من وزرائك وحجابك * وارباب دولتك وكتابك * فاول من يدخل عليك كاتبك ووزيرك * اذ بهما صلاحك

وتدبيرك * وذلك اهم ما تبتدي به من امرك * لتلقي الى الكاتب مـا اردت من سرك * ويعرض عليك الكتب الواردة من اقطارك وامصارك * وذلك بمحضر وزيرك * المخصوص برايك وتدبيرك * ليجمع معك على الراي والتدبير * والجليل من اخبارك والحقير * فان الوزير اذا كان على ما وصفناه * بالصفة التي ذكرناه * فلا ينبغي لك ان تخفي عنه شيئا من امرك * بل تشاركه في حلوك ومرك * وقلك وكثرك * ويجب على هذا الكاتب الذي تقدمت صفته * ووصفت نباهته ومعرفته * ان يكون دربا بقراءة الكتب وسردها * متحرزا عند قراءتها من الفاظ شائنة * او وصمة في ضمن الكتاب كامنة * فانه ربما يجد فيها ما يكون في حق الجلساء وصما * وقبيحا يستحق في الوقت كتما * فيتجاوز الكاتب عن ذلك اللفظ المشين * ولا يبينه في الحين * ثم ينتظر به خلوة اليك * فيعيد قراءته عليك * ويظهر لك ما اخفاه عن الجلساء * فيعد ذلك من قوة فطنته والذكاء * فاذا فرغ الكاتب من عرض كتبك * وتلقى بالتوقيع ما اردته من اربك * خرج لكتابة ما امرته به * ويجري على احسن مذهبه * وتبقى انت مع وزيرك تتفاوض فيما يصلح الدولة * ويعود عليها بالمنفعة على التفصيل والجملة * يا بني ينبغي ان يكون مجلسك مع وزيرك * مجلس هيبة ووقار * وتعظيم واكبار * وتفاوض في الاخبار * واخذ في المصالح * وتدبير يعود بالمناجح والمنايح * لا مجلس هذار ومزاح * ولا مباسطة اطراح * فانه اذا مازحت وزيرك * اسقط المزاح عنك هيبتك وتوقيرك * لانه ربما تكلمت بما تزول به عند الوزير هيبتك * وربما ايضا تكلم الوزير بما تستخف به عقله فنسقط رتبته عندك * وبعد دخول وزيرك وكاتبك * وفصالك ما اردته من مآربك * يدخل صاحب اشغالك * الموكل بحفظ جبايات اموالك * يعرفك بما تجمل وتصير من مالك * وبمحاسبات عمالك * وبجميع اشغالك المختصة بدارك * في ايرادك واصدارك * مثل اصناف الحلى وانواع الثياب * وغير ذلك من الالات والاسباب * وليتلقى ايضا ما تامره به * جاريا على غرضك في

تقلبه * مما يستانف في يومه من الاشغال * وما يليق به من الاعمال *
ثم يدخل صاحب شرطتك * وحاكم بلد حضرتك * ليخبرك بما تزيد
في ليلتك * حتى لا يخفى عليك شيء من احوال رعيتك وبلدك * مع
ضبط مملكتك * فتسئله عن القليل والكثير * والجليل من الامر والحقير * ليلا
يتوصل اهل العناية * للرعية بمضرة ولا اذاية * ولا يقع من الحاكم جور
في البلد * ولا ظلم لاحد فانه اذا علم الحاكم او غيره من اهل العنايات *
واهل الدعاوي والجنايات * بان الملك لا يغيب عنه شيء من احوال
بلده * فيمتنع كل منهم من استطالة يده * فيقف الناس عند حدودهم *
ويامنون من الجور في صدورهم وورودهم * وفي هذا ابقاء لنظام الملك *
وامان للرعية من الهلك * يا بني وينبغي لك ان تتخير صاحب الشرطة *
لانها عند الملوك اكبر خطة * فتقدم لها من يكون صاحب ديانة *
وعفة وصيانة * وهمة ومكانة * وسياسة ورياسة * وراي وفراسة * ثم
تدعو للدخول عليك الاقرب فالاقرب من خاصتك وخلصائك * واشياخ
قبيلك واوليائك * فتشاركهم فيما ظهر لك من ارائك * وتاخذ معهم فيما
عليهم ومالهم * وما يصلح احوالك واحوالهم * ثم تدعو الى الدخول اشياخ
دخلتك * واشياخ القبايل المقربين لخدمتك * وقواد اجنادك المتمسكين
بخدمتك * يا بني وينبغي لك ايضا ان تتخذ طعاما تجعله عادة مستمرة *
لتستجلب به القلوب للمسرة * لاطعام من ذكرناه لك من اشياخ القبايل *
ومن يرد عليك من قبل الملوك بالرسايل * فاذا فرغ الناس من اكل
الطعام بين يديك * قمت الى منزلك * ودخلت اليه وانصرف الناس
ما عدا الحاشية * ثم تعود الى مجلسك ثانية * ثم تدعو للجلوس وزيرك
وخاصتك * وتتخذ ذلك سيرتك وعادتك * فيكون جلوسك معهم بمجلس
وقار وهيبة * وسكون ورغبة * يصغون لحديثك واخبارك * غير مذيعين
لاسرارك * يعلمونك بما انطوت عليه سراير خدامك وجميع اجنادك *
فتشاورهم فيما يصلح امور دولتك * ويعود بالمنفعة عليك وعلى رعيتك *
ويكون جلوسك معهم بما يقتضيه الحال * ويحتمله المجلس من المقال

ثم تدخل الى دارك * لراحتك واستقرارك * وتصرف الخاصة اثر ذلك * ويتربص الوزير قليلا هنالك * لقضاء حاجة من لا يبلغ اليك * ولا يجد من سبيل ولا مسلك للوقوف بين يديك * فاذا استوفى مئارب الناس على اختلاف الانواع والاجناس * رتب الحراس على باب القصر * وقد استوفى ما قبله من الامر * فاذا اذن العصر خرجت للصلاة * وترتبت للجلوس في احسن الهيئات * ثم تجلس بمجلسك المعتاد * وتاذن لوزيرك بالدخول دون الخاصة والقواد * فتفاوضه فيما يختص بك * وما تراه من مطلبك * ثم تامر بدخول الخاصة بعد ذالك * فتسلك معهم في الحديث احسن المسالك * وتاخذ معهم فيما يظفر بالاعداء * ويصالح على جهاتك الاولياء * وكيف تتوصل لاخذ بلاد العدو المعاند * والمناوي الحاسد * بوجوه المقاصد * وليكن جلوسك ذلك متصلا بالعشاء الاخرة * تقطع ذلك في المفاوضة والمذاكرة * ثم تدخل لدارك * وقد نلت من التدبير معهم غاية اختيارك * فتخرج الخاصة الى ديارهم * ويبقى الوزير قليلا بعد انتشارهم * يرتب لك الحراس للبيات * وتغلق بعد الترتيب على البيات * وياخذ الحراس بالطواف على القصر من خارجه * ويحصن بالتحفظ على جميع مناهجه * وعلى هذا تكون عادتك في ساير الايام * على الاستمرار والدوام * ما عدا يوم الجمعة * فانه راحة وسعة * فيه تستعد للصلاة * ويعتد الخدام لركوبك في احسن الهيئات * فتطيب وتتعطر * وتتنظف وتتطهر * وتخرج في احسن اللباس نوعا * على الترتيب المطلوب شرعا * وبعد فراغك من الصلاة * تجلس بمجلسك للشكيات * وتاخذ في قضاء الحاجات * والفصل بين الخصماء * والانتقام من الظلمة الغشماء * فتقمع الظالم وتقهره * وتحمي المظلوم وتنصره * وتحضر الفقهاء في مجلسك حين الفصل بين الناس * لازالة ما يقع في الاحكام من الالتباس * وهذا المجلس في هذا اليوم المذكور * مخصوص بالرعية وبالجمهور * فيه تتفقد الضعفاء والمساكين * والارامل والايتام المحتاجين * وتنظر في اهل سجوناتك * وفيما اخذ الماخوذ من رعياتك * فتسرح من

ترى تسريحه * وترد الى السجن من لم يرد الله ان يريحه * وتواسي ذوي الحاجات * ومن يستحق المواساات * فمن كان له حق من الحقوق الشرعية * رددت امره الى قاضي البلد ليفصل في القضية * ومن كان في غير ذلك من الاحكام * التي لا يقضي فيها احد سوى الامام * فصانه بما يقتضي نظرك السديد * ورايك المصيب الرشيد * كما قال ابن حميد اني لواقف على راس المامون وقد جلس للمظالم وكان ءاخر من تقدم اليه امراة عليها هيئة السفر وعليها ثياب رثة فوقفت بين يديه وقالت السلام عليك يا امير المومنين ورحمة الله وبركاته فنظر المامون الى يحي بن اكثم فقال يحي وعليك السلام يا امة الله سلي حاجتك فانشدت *

* يا خير منتصب يهدى له الرشد * ويا اماما به قد اشرق البلد *
* تشكو اليك عميد القوم ارملة * عدي عليها فلم يترك لها سبد *
* وابتز مني ضياعي بعد منعتها * ظلما وفرق مني الاهل والولد *

فاطرق المامون حينا ثم رفع راسه اليها وقال *

* في دون ما قلت زال الصبر والجلد * عني واقرح مني القلب والكبد *
* هذا اوان صلاة العصر فانصرفي * واحضري الخصم في اليوم الذي اعد *
* والمجلس السبت ان يقض الجلوس انا * انصفك فيه والا المجلس الاحد *

فلما كان يوم الاحد جلس فكان اول من تقدم اليه تلك المراة فقالت السلام عليك يا امير المومنين ورحمة الله وبركاته فقال لها وعليك السلام اين الخصم فقالت واقف على راسك واومات الى العباس ابن المامون فقال المامون لاحمد بن ابي خالد خذ بيده واجلسه معها فجلس الخصم فجعل كلامها يعلو وكلام العباس يسفل فقال لها احمد بن ابي خالد يا امة الله انك بين يدي امير المومنين وانك تكلمين الامير فاخفضي من صوتك فقال المامون دعها يا احمد فان الحق انطقها والباطل اخرسه ثم قضى لها برد ضيعتها اليها وظلم العباس بظلمه وامر بالكتاب اليها الى عامل بلدها ان يدفع اليها ضيعتها ويحسن معاونتها وامر لها بنفقة يا بني وينبغي لك ان تتخذ في ايام الجمعة يوما تتخلى فيه عن الناس ولا تمضي فيه

حكما تنفرد فيه بالنظر في جانبك واموالك * وتتفقد احوالك * وتعرف مالك في ديار الصناعات * من الاشغال والحاجات * مثل النظر في العدد الحربية * التي تظهر بها القوة بالكاية * وفيما يخصك في نفسك ومالك واهلك * وما تحتاج اليه من كثرك وقلك * يا بني وينبغي لك ان تتخذ اياما في السنة * وتلك من السير الحسنة * فتتفقد فيها احتوال جيشك وقوادك واجنادك * وعددك واعدادك * فتميزهم تميزا تعرف منه احوالهم * وتختبر قطائعهم واموالهم * وتضبط عددهم * وتعرف عددهم * فتحسن لمن يستحق الاحسان * وتمتهن من يستحق الامتهان * وعلى هذا يكون عملك في ساير اعوامك * يرجى لك سعود ايامك * ودوام سلطانك * ان شآء الله تعلى * القسم الثالث * من قاعدة السياسة اعلم يا بني انه ينبغي لك ان تجري مع الناس على وفق زمانهم واوقاتهم * واغراضهم وطبايعهم وطبقاتهم * وان تسايس من كان مفرط الجهالة من الخدام * وترايضه مرايضة الجموح باللجام * حتى تنتفع بخيره * وتامن من شره * فتستدرجه بلطف سياستك * وترده الى وفق غرضك وذلك من رياستك * حتى يصير بعد جفوته طوع قيادك * ولا تلقاه بالعنف من اول وهله * فالخير كله في التاني والمهله * ولا خير في السرعة والعجلة * ولا تعنفه في الحاجة * اذا كانت لك به حاجة * وكن كالطبيب الماهر الذي يعرف الامراض * فيعطي الادوية على حسب الامراض * وكذلك اذا كانت لك قبيلة وافرة * وجموع متكاثرة * واحوالها متناجرة * فتجري اولا على اغراضهم * ولا يسوءك ما تراه من جفوتهم واعراضهم * وعدهم بنيل مطلوبهم * ليميلوا اليك بقلوبهم * فان رجع بعضهم الى غرضك وهواك * وبقي البعض تابعا لسواك * فسلط من اطاعك منهم على من عصاك * لتبلغ فيهم مرادك ومناك * وانتقم بعضهم من بعض * وادخل بينهم الشنئان والبغض * وكذلك تفعل بخدامك واجنادك * وقواطن بلادك * ترتبهم ترتيبا حسنا * وتوسعهم اكراما ومننا * فتكون الشرفآء عندك ارفع الناس في الرتب * لشرفهم

في الحسب * واعلاهم في النسب * ثم الفقهآء لانهم مصابيح الدين *
وبهم اقتدآء المسلمين * بهم تقام الشرايع * وتسد الذرايع * ويعتصم
بهم من الاهوآء والبدع * ويعتزبهم الاسلام ويرتفع * لانهم ورثة الانبياء *
وهم اعلام الاقتدآء * ثم اشياخ البلد والامنآء * والوجوه والفضلاء *
الضابطين لجموعهم * الرابطين تابعهم بمتبوعهم * مثل اهل التجارات *
واهل الحرف والصناعات * فتنزل كل جماعة منزلتها * وترتبها في طبقتها *
ولتكن عوائدك جارية بالفضل عليهم * واياديك منبسطة اليهم * فربما
تدعوك الضرورة الى الانتفاع بهم في الشدايد * فيقفون معك الموقف
المرضي في المصادر والموارد * وذلك لحسن مدافعتك عنهم * وتوثقك
بالاحسان منهم * ولتكن معاملتك لهم بما يليق من اكرامهم * وحفظهم
واحترامهم * واما العامة والدهمآء فتسلك بهم طريقة واحدة يقفون عندها *
ولا يتعدون حدها * وتجريهم على ما تعودوا من السير الحميدة * والموالاة
المجيدة * ثم انك مع ذلك لا تتركهم لاغراضهم الفاسدة * وعقولهم التي
هي عن الصواب شاردة * فان العامة مجبولة على الفساد * وعلى اتباع
الاهوآء وقلة السداد * لان العامة الغالب عليها الشرار * والهرج والاضرار *
فان العامة اذا قدرت ان تقول * قدرت ان تصول * وقال ارسطو اتقوا
العامة فانها ان قامت لم ترقد * وان طلبت لم توجد * واما الجري
معهم على حسب اوقاتهم * وازمانهم وطبقاتهم * فان كان زمان رخاء
وخير * فتسير فيهم احسن سير * تعدل في مخازنهم عند الغرامات * وتوصي
بالتحفظ عليهم الولاة * وتضبطهم غاية الاضباط * من غير تفريط ولا افراط *
ولا زيادة ولا احطاط * وان كان زمان فتنة ثائرة * وفساد في البلاد
ومشاجرة * فتسدد على الرعية جهد الاستطاعة * وتظهر عليهم فضلك فتنتفع
بهم في الطاعة * وتدافع عنهم اما بوجوه السياسة * وتدبير الخلافة والرياسة *
واما بوافر اجنادك * بما تراه من قوتك واسعادك واستعدادك * وان كان
زمن قحط ومحل * ومجاعة واقعة وازل * فترفق بهم في المخازن والمجابي *
وتحسن لضعفآئهم المحتاجين وتحابي * وتؤثرهم مما ادخرته لشدايدهم *

في زمن الرخاء من فوايدهم * فتعمر اسواقهم بما اختزنته من الطعام * مما يقام به اود الناس في ذلك العام * فاذا كنت يا بني عاملا على هذا الاسلوب * جبلت على محبتك كل القلوب * ودعت لك الرعية ببقاء الدولة والتمهيد * والنصر والتاييد والتاييد * وفي ذلك الصلاح التام لدولتك * والخير العام لرعيتك * واعلم يا بني ان بالطعام قوام عالم الانسان * فلا تفرط في اختزانه كل اوان * واعتبر في ذلك بحال نبي الله يوسف الصديق * على نبينا وعليه افضل الصلاة والسلام * فانه اختزن الطعام في زمن الرخاء وامر الناس بذلك فوجدوا ذلك في زمن الشدة واللاواء وجعل ذلك سببا الى ان ملكه مصر فعاد ملكا بعد ان كان مملوكا *

* القسم الرابع *
* من قاعدة السياسة *

اعلم يا بني انه ينبغي لك ان تكون يقظانا ماهرا حازما دهقانا ضابطا لامورك * عالما بصغير الامور وكبيرها في تدبيرك * وانما ذكرت اليقظة لانها راس الحزم وعدة العزم وفيها بابان *

* الباب الاول *

اعلم يا بني ان من حزم الملك وسياسته * ويقظته ورياسته * ان يعتد لنفسه باربعة امور * لا محيد عنها لكل ملك مشهور * الامر الاول المعقل * اعلم يا بني انه ينبغي لك ان تتخذ لنفسك معقلا * يكون لك في المهمات موئلا * تلتجا اليه عند الشدايد * وتتحصن به من العدو المعاند * وصفة المعقل ان يكون حصنا حصينا لا يرام * وركنا منيعا لا يضام * وذروة لا تفرع * ومروة لا تقرع * وعقيلة لا تفترع * وبكر لا تخطب * وقلعة لا تطلب * قد اشتمل على الماء والاخزان * والعدد والامكان * تجعل فيها ذخائرك واموالك * واثاثك وامتعتك واثقالك * تسكن فيه اجرياء اجنادك * وحماتك وقوادك * تشحنه بالرجال والرماة المترجلة * والزعماء من الرجال المحصلة * الذين لا يروعهم الحمام * ولا يخوفهم سل الحسام * ولا يبالون لمن ابرق وارعد * ولا بمن تجرم واوعد * وتسكن فيه اهل

الصناعات * وارباب التجارات والبضاعات * حتى لا يحتاج الحصن الى غيرهم * على قلتهم او كثرتهم * وليكن غرس هذا الحصن ما يكون به الانتفاع * مثل الزيتون والتين وما قارب هذه الانواع * وان تاتى ان يكون ذلك الحصن على ساحل البحر * فنعم الحصن والثغر * وان قدرت ان يكون بحره تحت حكمك * فهو احسن لنظمك * وليكن حصنك ذلك احسن من جميع الحصون واحصن * وامنع منها وامكن * كما يروى عن حصن الاركن * يروى انه وصف لكسرى انوشروان ارض من التخوم الهندية تتاخم ارض بابل * فذكرت له بحسن المنظر * وطيب الهواء * وكثرة الاناوة * وكثرة العماير * وحصانة المعاقل * ووصف له اهل تلك الارض بعظم الجسوم * وبلادة الفهوم * وشجاعة القلوب * وقوة الابدان * والصبر على العمارة * وملازمة الطاعة * ولين المقادة * فشرهت نفس كسرى الى ملك تلك الارض * والتكثر باهلها وكان يقال الشره اعرق الخصال في اللوم والحرص ابوه الذي يوالده والبغي ابنه الذي يلده * والطمع شقيقه * والذل رفيقه * وكان يقال الشره ينتجه طمع * ويهيجه طمع * قيل فلما طمحت نفس انوشروان الى تملك تلك الارض سال عن مالكها فاخبر انه عظيم من اراكنة الهند وانه شاب منقاد لشهواته مقبل على لذاته الا انه سالك صراطا من العدل لا يجور ومالك منهلا من البذل لا يغور الى راحة برعيته قد اشربت قلوبهم وده وصرفت اعمالهم الى ما عنده فندب له كسرى رجلا من ثقات اصحابه قد اقتبس ادبا من اداب الملوك وتثقف في سياستهم وكان ذا دهاء وفكر وحزامة ومكر فامره بتامل مسالك تلك الارض والبحث عن ثغورها ومعاقلها وتطلب عوراتها وتفقد اخلاق ملكها واهلها وكتب معه كتابا الى ذلك الاركن يدعوه به الى الدخول في طاعته ويحذره التعرض لصولته بمخالفته فانطلق ذلك الرسول حتى قدم على الاركن فاكرم نزله وبالغ في بره وتكرمته وعمى عليه الاخبار وبالغ في قبضه عن التصرف وفي قبض الناس عن لقائه واحتجب عنه ولم يستدع الكتاب منه وندب لاختباره وعلم ما قصد له رجلا من دهاة اصحابه

فامره بالتجسس على انبآئه والتلطف في مداخلته ومخاتلته فانطلق ذلك الجاسوس فاكترى حانوتا بازآء دار الرسول وملاه فخارا وجلس فيه ليبيع ذلك الفخار وكان للرسول غلام يخف في حوايجه ويتصرف في مآربه فجعل الجاسوس اذا راى ذلك الغلام هش له واكرمه وساله عما له من حاجة الى ان انس به الغلام فكان يجلس اليه ويستعين به على امره فلبث بذلك مدة لا يسئله عن شيء من احوال سيده فلما تاكد انس الغلام به قال له يوما من تكون ومن لك في هذه الدار التي تدخلها فقال له الغلام صحبتني مذ كذا وكذا ولا تعرفني فقال له الجاسوس وما علمي فقال له انا غلام رسول كسرى وسيدي في هذه الدار فقال له الجاسوس ومن كسرى ومن رسوله فقال له الغلام كسرى ملك بابل ارسل سيدي الى ملك ارضكم فقال الجاسوس قد عرفت حين ذكرت لي بابل لاني كنت في صباءي اجيرا لرجل من ارض بابل ثم امسك عن الغلام اياما لا يسئله عن شيء وكان يقال التقبر تشيره وقبل التنقير يربب الاديب * وقيل من تسرع الى الامانة فلا لوم على من اتهمه بالاضاعة * ومن تسرع الى المشاركة في السر فلا لوم على من اتهمه بالاذاعة * ومن تنصح قبل ان يستنصح فلا لوم على من اتهمه بالخداع * ومن عني بكشف ما ستر عنه فلا لوم على من اتهمه بخبث الطباع * قيل ان الجاسوس قال للغلام يوما اذا خرج مولاك فارني اياه فقال الغلام ان مولاي لا يتصرف قال الجاسوس امريض هو قال الغلام لا ولكن ملككم حضر عليه الخروج وعلى الناس الدخول اليه فبكى الجاسوس فقال الغلام ما الذي ابكاك فقال له الجاسوس ابكتني الرحمة لمولاك فيما هو فيه لاني ابتليت بمثله وذلك اني حبست مرة في دين كان علي ومنعت امراتي من الدخول الي فلولا ان الله من علي برجل كان محبوسا معي فكان يسليني بحديثه وانسه لهلكت غما فهل تحدث مولاك وتسايره فقال الغلام اني لا اعرف هذا ولا ادري خبرا اطرفه به فقال الجاسوس افلا ادلك على ذلك قال الغلام بلى فحسن الي بذلك فقال له الجاسوس اذا خرجت من عند مولاك نسخت في

المدينة وتأمل ما تراه فيها واذا رايت جماعة يتحدثون فاجلس اليهم واستمع ما يفيضون فيه فاذا رجعت الى سيدك وخلوت به فقل رايت اليوم كذا وكذا وسمعت من يقول كيت وكيت فان هذا تسلية له وانسا من وحشته * ويوشك اذا بلغت ذلك ان تحظى به عنده ففعل الغلام ما امره به الجاسوس فقال له سيده من دلك على فعل هذا فقال الغلام انا فبطنت له ففعلته فقال له سيده كلا ليس هذا في قوى عقلك فاخبرني بمن دلك عليه فقال الغلام دلني عليه جار لنا يبيع الفخار ما رايت اجهل ولا ابلد منه فقال له سيده ما الذي دلك على جهله وبلادته فقال الغلام انه صحبني اكثر من شهر وهو لا يعرف من انا ولا من سيدي وذكرت له الملك كسرى فاذا هو لا يعرفه فلما سمع الرسول ذلك استراب منه واحس انه متجسس عليه لما راى انه قد افرط في تجاهله وكان يقال من افرط فهو كمن فرط ومن احتفل في غلوه استدل عن علوه وكان يقال ما دل على الاحوال * كالاقوال * ولا هتك قناع المعقول * كسماع المقول * وكان يقال من لم تعرفك غائبا اذناه * لم تعرفك حاضرا عيناه * قيل فلما سمع الرسول مقالة الغلام امره ان ياتيه به ففعل * ولما رءاه الرسول حقق ما كان ظنه به من كونه جاسوسا عليه فاكرمه وقربه وتظاهر له بغباوة من جهل لا مزيد عليها وساله ان يواصل زيارته فلبث الجاسوس متفقدا حال الرسول في ليله ونهاره مدة متراخية ولما ظن ذلك الجاسوس انه قد حصل على ما اراد علمه من امر رسول كسرى ذهب الى الملك واخبره ان ذلك الرسول فدم غبي لا ذكآء له ولا غناء عنده اكثر من انه ذو نجدة وفروسية ونفس ابية فوثق الملك بقوله وتخيل الرسول بالصورة التي مثلها به الجاسوس عنده وكان يقال لا تكلن سمعك لاول مخبر * ولا ثقتك لاول مجلس وكان يقال اذا كان الخبر يدخله الصدق والكذب فالتضآء له باحدهما قبل الامتحان جور وكان يقال انما يقضي بصدق الخبر عصمة المخبر لا صدقه * وسر هذا ان المخبر الصادق اذا لم يكن معصوما فهو عرضة للتلبيس * وفرصة للتدليس * وكون المخبر ثقة صدوقا

انما يفيد سلامته من التحريف فيما نقله ولا يفيد عصمة ادراكه فيما
ادركه فقد ينظر الصادق العقل الى نور الشمس فيخبر انها غير سايرة وينظر
الى القمر دونه متقطعات سحاب فيخبر انه ادرك سرعة سيره وينظر من
سفينة جارية الى البر فيزعم انه يجري وينظر الى اخبار الشعوذي فيخبر
عن الاشياء بخلاف ما هي عليه ويسمع كلام الببغا المحجوبة عن بصره
فيخبر عن انسان فلم يدخل الخلل من جهة تحريفه لاكن من جهة
ادراكه قيل فلما وثق الاركن بمقالة جاسوسه احضر رسول كسرى فاكرمه
وخاطبه بكل قول حسن واخذ منه الكتاب وخلع عليه واجزل صلته ورده
الى منزله مكرما مبرورا واباح له التصرف واذن لمن اراد قصده في زيارته
وتابع اتحافه وتكرمته ولبث بذلك عاما ثم استحضره وسلم اليه جواب
كتابه واعطاه هدية الى كسرى يقال ان منها سيفا طوله خمسة اشبار ولونه
كلون النحاس الاحمر يعمل في الحديد كما يعمل غيره من السيوف في
الرصاص وصحفة من الياقوت الازرق تسع منا من الطعام وكاسا من الزمرد
البحري يسع رطلا من الشراب والف درة فريدة وقنديلا من المها فيه
ياقوتة حمراء كبيضة الحمام اذا علق في بيت فيه مصباح ليلا القى شعاع
الياقوتة على الالوان القابلة للحمرة فلا يشك في حمرتها * وطيبا كثيرا ودروعا
ودرقا وغير ذلك وخص الرسول بحباء ودخائر وغير ذلك نفيسة وصرفه الى
مرسله فلما قدم الرسول على كسرى سأله عما ند به لتعرفه فاخبره بطيب
تلك الارض وفضل خصايصها وشرف مزاياها وحصانة ثغورها وانه لم
يجد لها عورة تؤتى منها الا غرارة سكانها فان عقولهم متهيئة لقول الخداع
محجوبة عن النظر في العواقب وان هذا هو موجب حسن طاعتهم لمن
الفوا طاعته فلو ندب اليهم رجال يحسنون نصب الدعوات الى الدول
لاستمالوهم وصرفوا طاعتهم عن ملكهم فاذا انصرفت طاعتهم لم يقم لملكهم
بعد ذلك قائمة لانهم اعضاؤه الذين يصول بهم فهم في الرخاء نمر بجنده
وفي البلاء سيوف منتضاة فنظر كسرى فيما كتب اليه به الاركن فوجده
قد خاطبه بالملاطفة واعترف بفضله وتملقه ورغب اليه في الموادعة

والمواخاة فاستشار انوشروان وزرآءه في امره واعلمهم ان نفسه لا تطيب بمسالمته فاختلفوا عليه فاجمع على ان يرد هديته اليه ففعل ثم انه ندب لاستفسار رعيته رجالا يحسنون نصب الدعوات وقلب الدول وامدهم بالاموال وازاح عللهم وبين لهم مثالا يحذون عليه فنفذوا لما امرهم به حتى انتهوا الى مملكة ذلك الاركن فتفرقوا فيها واعمل كل واحد منهم قوته فيما انتدب له من الامر فلما اتى عليهم عامان احكموا ما ارادوا من ذلك في دار مملكته الاركن وفي غيرها من مدنه وحصونه ورساتيقه وكتبوا الى كسرى بذلك فحرك اليه المرزبان المتولي ربع المملكة المقابل لتلك الجهة الهندية وذلك ان اقليم بابل كان مصروفا الى اربعة مرازبة لكل مرزبان منهم ربع منه ومع كل مرزبان منهم خمسون الف مقاتل فلما شرع ذلك المرزبان في الحشد والاعداد كتب عيون الاركن بتلك الجهة اليه يخبرونه بان المرزبان المجاور لجهة بلاده قد اخذ في حشد الاجناد وتاهب الاستعداد فعلم الاركن انه قاصده ونجم النفاق ببلده وتحدث الناس بقصد المرزبان اليه واكثروا الاراجيف فانتبه الاركن من غفلته وبحث على الامر فوقف على حقيقته * وكان امر مملكته يدور على خمسة رجال اربعة منهم وزرآء والخامس هو صاحب بيوت النار ورئيس الزمازمة الذي ياخذون عنه دينهم فجمعهم الاركن للمشورة وعرفهم ما بلغه من فساد قلوب رعيته وحشد المرزبان لقصد بلاده واظهر لهم الحاجة الى كفايتهم فجلسوا يتناظرون في ابتغاء صواب الراي فقال احد الوزرآء الاربعة الراي ان يستصلح الملك رعيته فيملا ايديها رغبات وقلوبها امالا حتى يستقيم معوجها ويانس نافرها فان عدونا اذا علم ذلك جبن عن الاقدام علينا وان لقيناه لقيناه بكلمة مجتمعة وايد متناصرة * فقال رئيس الزمازمة انما يصلح هذا من الرعية لو كان فسادها انما اوجبه عظم جور وفساد سيرة فيزال عنها سبب فسادها فتصلح وليست رعية الملك بهذه الصفة وانما اورد عليها الفساد جهلها بمواقع الصواب وبطرها لترادف النعم وقد قيل اربعة اذا افسدهم البطر لم تزدهم التكرمة الا فسادا الولد والزوجة والخادم والرعية

وضربوا لذلك مثلاً القوى الاربع المرذولة اذا هاجت لتعدي حدود المصلحة وهي الغضب اذا تعدى حد الشجاعة وحد الانفة من الرذايل والشهوة اذا تعدت حد راحة العقل من كد اكتساب الفضايل والحرص اذا تعداى حد الكفاية والكسل اذا تعدى حد راحة الجسم من هد اكتساب المصالح فان هذه القوى الاربع اذا تعدت هذه الحدود لم تزدها المداراة والرفق الّا هيجانا وطغيانا والله تعالى يحسم موادها فقال الملك صدق الحكيم ثم قال وزير آخر من الوزرآء الاربعة الراي عندي ان نضرب بمن صلح من الرعية من فسد منها حتى تستقيم وتستوثق لنا ثم نلقى عدونا بمن لا نخاف دغله ولا نحذر غشه لانا مضطرون الى الحرب لكون عدونا لا يرضيه الّا اخذ ما بايدينا جملة فقال رئيس الزمازمة هذا انفع لعدونا من جيشه وادعا الى طاعته من دعاته مع انه اذا علم تحزبنا فيما بيننا وتناصبنا ذهبت هيبتنا من نفسه وبلغ فينا امله وقد قالت الحكمآء اربعة من استقبلها بالعنف والردع في اربعة احوال هلك * الملك في حال غضبه * والسيل في حال صدمته * والفيل في حال غلمته * والعامة في حال هيجانها وموجها * وقالوا ان اشبه شيء بردع العامة عند تثورها وهيجها معاناة الجدري في حال انبعاثه الى سطح الجسد بالاطلية الرادعة * فقال الملك صدق الحكيم فقال وزير ثالث الراي عندي ان نطلب اولا تعيين من فسدت طاعته من الرعية فتميزه ممن سواه ثم نرى راينا فيه بما تقتضيه حاله من قلة او كثرة اوضعة او نباهة اوضعف او قوة فنقابله بما توجبه حاله من التدبير فقال رئيس الزمازمة البحث الان عن هذا خطر عظيم لانه يوحش المريب فيحركه على اللحاق بعدونا واعتماده بالنصايح والدلالة على عوراتنا واذا التحق بعدونا قاتل معه على بصيرة من امرنا ليست لعدونا وبذل جهده في العود الى وطنه واهله وماله وعدونا لا يقاتلنا على مثل ذلك وربما لم ينفصل عنا المريب بل يقوم بموضعه ويكاشفنا ويكثر علينا بشكله من الرعية فينصرونه وان لم يكونوا على مثل رايه بعلة مشاكلته لهم كما ان الكلبين لا يمنعهما تعاديهما وتهارشهما

من التعاون على الذيب اذ ابصراه ولا يلتفتان الى تحقق الذيب في الخلق الكلبي ولاكنهما ينافرانه ويصطلحان في التعاون عليه نظرا الى خصيصي توحشه وانفته وجراءته وكذلك العامي لا ينظر الى الملك من حيث تحققه في الخلق الانساني بل ينظر اليه من حيث خصيصي تفرده وانفته وعلو همته فينافره لذلك ويالف العامي الذي شاكله في الاخلاق بعلة المشاكلة * وقد قالت الحكماء ثلاثة ان كاشفتهم في الامتحان في ثلاثة احوال خسرتهم * مودبك في حال استقلالك وصديقك في حال اختلالك * وامراتك في حال اكتهالك * والرعية كالزوجة وادبار الدولة كالاكتهال * وقالوا مثل ذلك مثل امتحان قوى معد الناقهين من الاعراض بالاطعمة الغليظة فقال الملك صدق الحكيم * فقال الوزير الرابع وكان اوسعهم علما وافضلهم رايا اما انا فاحدث الملك حديثا اخبرني به مودبي وكان من اخر ما افادنيه وقال لي اخزن هذا في تامور قلبك ولا تبدِ ان تعيش الى اليوم الذي تحتاج فيه اليه واني لاحسب انه هذا اليوم فقال له الملك قل نسمع لحديثك فقال رئيس الزمازمة ما اولاه بالاصابة فقال الوزراء الثلاثة انه لكذلك فقال الوزير الرابع * انما نحن كاصابع الراحة في افتقار بعضها الى بعض وقوة بعضها ببعض وتنزين بعضها ببعض ثم انا نستمد من نور عقل الملك السعيد بنظرنا اليه واستماعنا منه كما تستمد الدراري من نور الشمس فكلنا الى الملك محتاج وبه مقتد فقال له الملك قل ايها الوزير الصالح بالقبول والكرامة ولمن نبت عنه فانتم في مناصحتنا والغناء عنا والاداء كالحواس الخمس للقلب فسجدوا له اجمعين * ثم قال ذلك الوزير الرابع زعم مودبي ان رجلا موسرا من التجار كان ياوي من داره الى بيت مبطن السقف وفيما بين ذلك السقف وبطانته فيران كثيرة فكن فيها شتى وادعين من الامنة وتيسر الاطعمة يمرحن النهار كله على حال طمانينة فاذا جاء الليل نزلن من السقف فتفرقن من مخازن التاجر ومساكن عياله فاكلن واحتملن فكثر

اذاهن على التاجروانه دخل يوما مسكنه ذلك فاستلقى فيه مفكرا في
بعض امره وجعلت الفيران تمرح على بطانة السقف والتراب يتساقط من
خلل الالواح فضجر التاجرونهض مبادرا فامر بتحويل ما في البيت من
الاثاث ثم امر عبيله فوضعوا بطانة السقف وانتشر الفيران في الدار فقتلن
شر قتلة ولم ينج منهن الا جرذ وفارة كانا غائبين عن السقف فلما رجعا وابصرا
فساد وطنهما ومصارع الفيران في جميع الدار ساءهما ذلك واقبل الجرذ على
الفارة فقال لها صدق القايل من صحب الدنيا واثقا بها كان كالنايم في
الظل الذي يكون قبل بلوغ الشمس الى نصف دايرة فلكها الاعلى فيتقلص
الظل بتصويب الشمس فيوقظه حرها ولا يجد للظل عينا ولا اثرا فقالت
الفارة صدقت فماذا ترى قال الجرذ ارى ان لا اسكن بموضع ينال منه هذا
المنال واحذر من الانس جهدي فان هيجهم شديد وحيلهم اقوى من قوة
غيرهم من العالم فقالت الفارة وانا معك فانطلقا حتى اتيا ارضا برازا جرداء
ذات اخلاط من الوحش تكتنف واديا معشبا فيه غدران ماء ذات ضفادع
وسلاحف فاعجبهما ذلك المكان وسارا في الوادي يلتمسان موضعا يحتفران
فيه جحرا وانتهيا الى ربوة عالية في وسط ذلك الوادي قد انجاب عنها
سيل الماء فيه يمينا وشمالا فاحتفرا في اصل تلك الربوة جحرا رضياه لانفسهما
واوطناه وانهما علوا يوما من الايام تلك الربوة فرايا في اعلاها يربوعا قد علت
سنه على باب جحر له فرحب بهما وحادثهما وسالهما عن امرهما فاخبراه
الى ان ذكرا انهما قد اوطنا جحرا في اصل تلك الرابية فقال لهما اليربوع
لولا ان التنصح كثيرا ما يدعو الى التهمة لنصحت لكما فقالا له ما احوجنا
الى نصحك فقال لهما انه كان يقال اربع لا تقبل عليها حتى تسئل
الخبير بها السوق لا تقدم عليها حتى تسئل عن النافق والكاسد فيها *
والمراة لا تقدم على خطبتها حتى تسئل عن منصبها وخلقها * والطريق لا
تسلكها حتى تسئل عن امنها وخوفها * والبلدة لا توطنها حتى تسئل عن
مرافقها وسيرة سلطانها واخلاق اهلها وقوة من يكيد اهلها ويعاديهم * وكان
يقال انظر الى المتنصح فان اتاك بما يضر غيرك ولا ينفعك فاعلم انه شرير

وان اتاك بما ينفعك ويضر غيرك فاعلم انه طامع وان اتاك بما ينفعك ولا يضر غيرك فاصغ اليه وعول عليه وكان يقال اذا لم تعن ناصحك على نفسك كان ناصحك كمن يريد تقويم ظل عود قد نصب معوجا قبل ان يقيم العود في منصبه وكان يقال شرما في عالم الاخلاق التعاطي لان التعاطي يزيد المتخلق به شرا ويعرضه في مواسم الخزي وهذا كالضعيف يتعاطى القوة وكالجاهل يتعاطى العلم وكالفقير يتعاطى الغنى وكان يقال اذا احتجت الى المشاورة في امرما فشاور اولى الحنكة والتجربة من طبقتك وذوي صناعتك ولا تعدل عنهم الى غيرهم ممن ليس من طبقتك فيخرجك عن حدك لكونه خارجا عن عالم خصايصك واعلما انه جمعتني وايـاكما مناسبة صناعية وهي حفر الحجارة إلّا اني في علمها ارسخ منكما فانتقلا عن حجركما فانه بيس الحجر ومن شر الاوطان وانا ابن نجدة ملك الارض وقد قيل قتل ارضا خابرها فتحولا عن ذلك الحجر واطلبا ماوى سواه ان قبلتما مني النصيحة فخرجا من عند اليربوع يهزءان به ويسخران وينسبانه الى الهرم والخوف ورجعا الى جحرهما آمنين فلبثا مدة طويلة وولدا فيه اولادا ثم ان الجرذ خرج يوما من الايام فاوغل في تلك الارض لبعض شانه ثم عاد قاصدا الى الربوة فاذا السيل قد جرى في ذلك الوادي واحدق بالربوة وارتفع حتى صارت الربوة في مثل البحر العجاج فوقف على ضفة الوادي ينظر متحسرا لفساد وطنه وهلاك الفه وولده وذهاب ما اعد من طعمته فراى اليربوع ذاتيا باعلى الربوة آمنا فناداه اليربوع ايها الجرذ كيف رايت ووجدت ثمرة اضاعة الحزم ومعصية الخير الناصح فقال الجرذ ايها اليربوع وجدتها مرة فقال اليربوع للجرذ هون عليك وخفض من حسرتك فان النعمة في بقاء نفسك تربي على المصيبة باهلك وولدك وانس النعمة بالشكر تالفك فتستمتع بها في امن ودعة وانه كان يقال اظهر البشر لثلاثة للصديق والغريم والنعمة وكان يقال اذا احسن اليك محسن ثم تنكر لك واصابك باساءة فلا تنقبض عنه ودم على شكرك له وبرك به فان ذلك اوجه شفيع لك عنه وكان يقال الحر لا تذهله اساءة من كان احسن اليه عن شكر

احسانه السالف عنك قال الجرذ لليربوع ما كان اشقاني ايها الحكيم بمعصيتك والبعد عنك ولحق قيل * ينبغي للعاقل ان يصحب العلمآء المهذبين بالحكمة والادب ولو كنت ذا بصيرة لعلمت انك ايها الحكيم لم تكلف نفسك صعود هذه الربوة الكاود مرات في اليوم وهبوطها على ضعف بدنك وكبر سنك إلّا لامر اقتضته الحكمة واوجبه الراي المصيب ثم ان الجرذ امهل حتى ذهب السيل فصعد الربوة واتخذ جحرا الى جانب اليربوع فاوطنه آمنا قرير العين * فهذا ما اخبرني به مودبي فقال الملك صدقت ايها الوزير الناصح قائلا * وسددت ناصحا * واصبت مشيرا * وتلطفت مبلغا * ودعوت سميعا * فالتمس لنا ربوة ترضاها لاستقرارنا نلزم انفسنا الصبر على صعودها * ونقصر عن ميلها الى مالوف ملاذها وانبساطها في هذا العالم الخبيث اليها * فلعلنا ان نجتني السلامة التي اجتناها اليربوع من سيل هذه الفتن فقال الوزير ايها الملك السعيد المفدى بالنفوس الزكية عشت ما بدا لك ان تعيش ونلت ما املت فما اعجب قبولك لما نهديه اليك من نعمك * ونجلوه عليك من حكمك * واني لاعرف في ناحية من الارض في جانب ثغور بلادك معقلا تطل فيه على اهل الارض اطلال زحل على الكواكب تنقال دونك الابصار اللامحة * والافكار الطامحة * وهو مع ذلك ذو هوآء عليل * ومآء سلسبيل * وحدايق باسقات * ومرافق متناسبة * كان بعض سلف الملك السعيد عني به بعض العناية * فقطع عليه امله القدر الحتم القاطع عقود الحياة قال فلما سمع الملك ما دله عليه وزيره ملئ سرورا وركب من فوره في خاصته وثقاته حتى انتهى الى ذلك المعقل الذي دله عليه وزيره فوجده في راي العين افضل مما صوره الوزير في نفسه ووجد به رسوما وثيقة وآثارا اثرها بعض من تقدم من آبائه فحشد اليه المهندسين والبنايين والعمال وامرهم بالجد في اكماله وبادر من فوره فنقل اليه خاص بيوت امواله وخزاين سلاحه ونفايس ذخائره وحشد رعيته بحمل الارز اليه فاودعوه من الارز المقشور وغير المقشور ما ظن ان فيه كفاية وذلك ان الارز الذي لم يقشر طويل البقآء واعد

لنزوله عدة وذلك من جملة الاثاث والامتعة وهو مع ذلك يسد الثغور و يجند الاجناد ويشيد الحصون فلما مضت له ثلاثة اشهر من يوم كتب السيه جواسيسه بحركة المرزبان وحشك اقتحم المرزبان ثغوره في الجيوش المتوافرة والعدد الكاملة وظفر دعاة كسرى بتلك الناحية فيمن استفسك من الرعية فغلبوا على ما يليهم من البلاد واستعمل المرزبان عليها عمالا من ثقات اصحابه ورتب فيها حماة من جنك ومن اهلها ثم دنا يطوي الارض فلاقته جيوش الاركن فدافعته بعض الدفاع ثم انهزم من كان في نفسه دغل فانهزم المناصحون بانهزامهم واستولى المرزبان على عسكرهم واستبقى النفوس واخذ الاموال ثم تجاوزهم يطوي المملكة طيا وكان الاركن عند ما افتتح المرزبان ثغوره قد بعث باهله وحشمه الى ذلك المعقل وجمع وجوه قاطني حضرته فوعظهم وذكرهم ما سلف من احسانه اليهم وسابقية محبته ومحبة ءابائه لاباءهم واسلافه لاسلافهم ثم انه ذكر لهم ما بلغه عنهم من فساد الطاعة وما كرهه من امتحانهم ومعاقبة المسيئين منهم فتنصلوا مما قذفوا به عنك وحلفوا بين يديه على استقامة طاعتهم وصدق مناصحتهم فقال لهم الملك اني لم اجمعكم لهذا ولست بناكل عن عدوي ولا بمستبعد للظفر به والنصر عليه ولا بمعين تهمة احد منكم غير انه اخبرني بعض وزرآءي عن مالك من سلفي انه شرع في بناء معقل وعني به بعض العناية فحال بينه وبين اتمام ما اراد من ذلك الاجل المحتوم على عالم التركيب فحملني على تكملة ما شرع فيه جدي قول الحكيم ان ابر الملوك من تم به سعي سلفه واعقهم من انقطع سعيهم عنك ثم قال اني احببت ان اجعل ذلك الحصن من عددي وذخائري لقول الحكمآء ان احزم الدعاة من اراد لجميع قضايا العقل احكاما وقولهم يجب على الملك ان لا يخلو من خمسة معاقل يتحصن بها احدها وزير صالح يتحصن برايه * والثاني سيف قاطع يتحصن بحك اذا غشي * والثالث فرس سابق يتحصن بظهره * والرابع امراة حسنآء يحصن بها فرجه وبصره * والخامس قلعة منيعة يتحصن بحلولها اذا احيط به * فاتخذت هذا المعقل لاكمل به حصوني ونقلت

اليه ذخائري وما يكرم علي فمن اراد منكم ان يقتدى بي في فعلي اخذا بالحزم فليفعل فلما فرغ من مخاطبتهم اذن لهم فخرجوا من عنك فاقتدى به منهم من كان ذا عقل وخبرة وتجربة بالامور فجهزوا الى ذلك المعقل اهلهم واموالهم واقواتهم واما المرزبان فانه سار في تلك المملكة يطويها طي السجل للكتاب لا يقاومه جيش إلّا هزمه * حتى اشرف على حضرة الاركن فنزل على فرسخ منها وتهيب الاقدام عليها وقد كان الاركن امر الناس بالخروج اليه فخرجت امة عظيمة وخرج الاركن في اربعة الاف مقاتل من عبيلك وخاصته وارباب دولته وثقات اصحابه فقام بهم سيف معزل من جيوشه ورعيته بظاهر المدينة وعبى فيوله ورتب صفوفه وكان في المدينة داعيان من دعاة كسرى فاغتنما الفرصة واهتبالها عند خروج الملك عن المدينة فظهرا واتبعهما من كان اطاعهما فوثبوا بخليفة الملك على المدينة فقتلوه واستولوا على المدينة وضبطوها وبينما الملك قائما بجنوده في ظاهر المدينة اتاه رئيس الزمازمة حافيا حاسرا يلطم وجهه وينتف شعره فامر الملك بحمله معه على فيله واستخبره فاخبره بذهاب دار ملكه وخيانة رعيته فانحاز الملك بخاصته وتوابعه ومن كان على بصيرة في طاعته وتوجهوا حامية نحو الحصن وانتهى خبره الى المرزبان فجرد خيلا لاتباعه فادركوه فوقف بارآئهم من كفاه امرهم وسار حتى دخل حصنه واما المرزبان فانه قصد المدينة ودخلها وضبطها واحكم امرها ثم سار في جيوشه الى ذلك الحصن فراى منظرا عظيما ومعقلا ممنوعا مانعا ولم يمكنه النزول بالقرب منه فنكص الى حيث امن ونزل في جيوشه متحفظا وكتب الى الملك الهندي كتابا يخاطبه فيه بالتعظيم والاجلال ويعرض عليه خصالا منها ان يرده الى مملكته مكرما موفورا على ان يدين بطاعة كسرى ويدخل في دينه فلما انتهى رسول المرزبان الى الملك الهندي حجبه ولم ياخذ كتابه وامره بالعود الى مرسله فبيس المرزبان منه وكان يقال صرفك البصر الى عدوك اضاعة واصغاؤك السمع الى حديثه طاعة * وكان يقال اذا امكنت عدوك من اذنك فقد تعرضت للغرق في بحره * والحصول في وهق سحره

وكان يقال عجبا لمن يصغي الى عدوه سمعا وهو لا يرجو عنك نفعا وكان يقال اذا عجزت عن التحصن من كلام عدوك فانت عن التحصن من كيك اعجز * ثم ان المرزبان عاد الى المدينة وكتب الى كسرى يخبره بالفتح وبما تهيا له وعليه من الامور فكتب اليه كسرى يامره ان يقيم بتلك المملكة ويترك التعرض لذلك الاركن في حصنه الّا ان يبدو له منه فساد * وان يذكي العيون عليه ويقيم المصالح في جهات حصنه ففعل المرزبان ما امره به كسرى ولبث بذلك مدة وجعل اغتام الفرس يععثون في تلك المملكة ويعاملون اهلها بالفظاظة والقسوة التي طبع اهل الهند على ضدها فدبت الشحناء في النفوس ودخلت اهل تلك المملكة الغيرة لما راوا ان خراج ارضهم محمول الى غيرها وينفق في غير اهلها وعرفوا فضل ما كانوا فيه ومشقة ما صاروا اليه فبسطوا السنتهم وخاف المرزبان ان يردعهم عن القول فيستوحشوا منه فكف عنهم فكان ذلك داعية الى زيادتهم في بسط الالسنة * وكان يقال ايدي الرعية تبع لالسنتها فاذا قدرت ان تقول قدرت ان تصول وكان يقال ترك نكير الصغاير مدعاة الى الكباير * فاول نشوز المراة كلمة سومحت بها واول حرن الدابة حيدة سوعدت عليها قيل واما الاركن فانه لما استقر في حصنه شاور وزراءه فاشاروا عليه بالصبر وكف الاذى وبسط العدل والاحسان وتامين السبل واجارة المستجير وتالف المتوحش * والاخذ بالفضل والعفو * فاتخذ هذه الخلال شرعا يدين به فازدادت سمعته حسنا والقلوب اليه ميلا والالسنة له شكرا * واتفق ان عاملا للمرزبان على ثغر من تلك الثغور اساء السيرة فقام اليه رجل كان افضل اهل عمله فوعظه ونصحه فكره العامل ذلك وكتب الى المرزبان يزعم ان رجلا من اهل عمله يعارض امره ويالب العامة عليه فكتب اليه المرزبان ان يحمل اليه مقيدا فاخذ العامل الرجل فقيك وبعث به الى المرزبان مع رجال الجند فتبعهم احداث من فتيان ذلك الثغر وفتاكهم فقتلوا اولئك الموكلين بذلك الرجل واطلقوه فاتى الرجل الى العامل فاخبره بما فعل اولئك الاحداث وانه عجز عن دفعهم

فامر به العامل فضربت عنقه وكان ذا منزلة عند اهل بلده فوثبوا بالعامل فقتلوه وقتلوا اكثر رجاله وضبطوا ثغرهم وانضوى اليهم من كان على مثل رايهم ومن كان في غير حصن وكاتبوا من يليهم فاجابوهم الى مثل ما صنعوا وطردوا عمالهم فانتقضت الطاعة لكسرى في مواضع كثيرة من تلك المملكة في اسرع مدة ولما انتهى ذلك الى المرزبان جمع جنوده وضبط حضرته على حال ذعر وتوق شديد وكتب الى كسرى يستمده وكان اهل حضرته عند ما خرج عنهم رئيس الزمازمة وتوجه مع ملكهم الى حصنه قدموا المرزبان كانه خليفته وكان مرضيا عندهم فلما راى ما هو فيه المرزبان من الذعر والتوقي وقصده من خلفه بالمحنة والعقوبة دخل على المرزبان فقال له اني اريد ان اسالك عن امر ظننت علمه عندك فقال له المرزبان قل فقال له بلغني ان مما اوصى به ازدشير بن بابك ملك بابل انه قال قد تخرج الرعية بعنف السياسة الى ما لا تريد من المعصية وانه قال في وصية له ينبغي لمن تغلب على ملك وغصبه ان يحفظ الصورة والشريطة التي تسلم عليها تلك المملكة وانها ستخرج من يديه مثل ما صارت اليه * وقيل لي ان هذه الوصية كانت مكتوبة في مجلسه بازآء سريره ووضع قضائه ففهم المرزبان ما اراد الا انه اراد الوقوف على آخر ما عنده فقال له الامر على ما بلغك ايها الشيخ الناصح فقال رئيس الزمازمة ان كان الامر على ما بلغني فمالك لم تستعمل الحكمة التي علمت وعنفت في سياستك الرعية حتى اخرجها ولعله ان يخرجها ولم تحذر خروج هذه المملكة من يدك بمثل ما صارت اليك فلما سمع المرزبان مقالة رئيس الزمازمة انتهره وهدده وكان شيخا ضعيف البدن كبير السن فسقط الى الارض مغشيا عليه وحمل الى منزله فمات بعد ايام فعظمت المصيبة بموته وساءت المقالة وشخصت الانفس الى الشقاق بما كانت منقبضة عنه وفشا ذلك في الرعية فمشوا اذما فاستحضر المرزبان وجوه من بحضرته فوعظهم وحذرهم بطش كسرى ورغبهم في العافية فارضوه بالسنتهم وتسللوا عليه وغلظ امر الاطراف المنتقضة وشغل عنهم المرزبان بتحصين البيضة فبعثوا رسولا الى الاركن الذي كان ملكهم

يسالونه الصفح عنهم وان يبعث اليهم رجلا يتحيزون اليه فاعطاهم امانا عاما واستعمل عليهم عاملا فالقوا اليه المقاليد واستبصروا في طاعته ونصحوا في الذب عنه واضطر المرزبان الى ان يبعث اليهم جيشا فبعث فعادوا منهزمين مفلولين ولم يجد بدا من الخروج اليهم بنفسه فحصن دار الملك واستخلف عليها من ظن انه يضبطها وخرج منهم متوجها الى عدوه فلما فصل عن المدينة وثب اهلها باصحابه فاستوعبوهم قتلا وتشديدا واحرزوا مدينتهم وبلغ ذلك المرزبان فاستمر لوجهه خارجا من تلك المملكة حتى قدم على كسرى طريدا مفلولا وعاد الاركن الى دار ملكه فجرى على سنن العدل والاخذ بالحزم وقمع شهواته واستعمل الحكمة التي افادته التجارب اياها فاتخذ يا بني مثل هذا العقل حصنا تنل به امنية وامنا كما نال الاركن حين اوى الى حصنه وركن *

* الامر الثاني الجواد *

اعلم يا بني انه ينبغي لك ان تختار جوادا من خيار الخيل وعتاقها * وكرامها وسباقها * كامل الخلقة حسن الحلية * معتدل الحركة والمشية * لا يكل من السير * ولا يسام من الجري كالطير * اذا اغار طار * واذا سار لا يعارض في التسيار * واذا جري سبق * واذا طرد لحق * اسبق من السهم واسرع من الوهم * تعده للمهمات * وتدخره للشدايد والملمات *

* الامر الثالث الذخيرة *

اعلم يا بني انه ينبغي لك ان لا تفارق ذخيرة من الذخاير * تجدها في زمن المناكد والمناكر * مما غلا ثمنها * وخف محملها * كاليواقيت والجواهر الثمينة العظيمة * التي لها نفاسة وخطر وقيمة * لانه ربما اعتراك امر من امور دنياك * فتجد تلك الذخيرة تدافع بها ما اهمك واعتراك * وتصادم بها اعداءك * وتقيم بها اودك * وتصلح بها امرك * فان اقتناء الذخاير * معونة على الشدايد والضراير *

* الامر الرابع الوزير *

اعلم يا بني انه ينبغي لك ان تتخذ وزيرا على ما وصفناه * محتويا على ١٠

قررناه * تجله معينا في الشدة * انيسا في الوحدة * يقصد في مرضاتك المهالك * ويسلك بك احسن المسالك * قد تمرن بالاسفار * وجرب الامور واحتوى على الاخبار * لانه ينبغي للوزير ان يكون احسن فطنة وسياسة من الملك * لان الملك يسوس من دونه من رعيته * واما الوزير فانه يسوس من فوقه وهو الملك ومن دونه وهم الرعية فيحتاج الى فضل سياسة * وحسن فطنة وعقل ومثل السلطان كمثل الطبيب والرعية كالعليل * والوزير كالسفير بين الطبيب والعليل * فان كذب السفير * بطل التدبير * وكما ان السفير اذا اراد ان يقتل احدا من المرضى وصف للطبيب نقيض دآئه * فاذا سقاه الطبيب على نحو ما وصف له السفير هلك * وكذلك الوزير اذا نقل للملك ما ليس في الرجل فيقتله الملك ومثل الوزير السوء الذي يمنع خير الملك الناس ولا يكنهم من الدنو منه كالمآء الصافي يكون فيه التمساح لا يستطيع المرء دخوله وان كان سابحا وللمآء محتاجا * يا بني اياك والحسد لنفسك ولمن يليك * واوص به اقاربك ووزيرك وذويك * فان الوزير اذا كان حاسدا ادى ملكك الى الاختلال ونفسك الى الخبال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الحسد ياكل الحسنات كما تاكل النار الحطب وقال بعض الحكمآء يكفيك من الحسود انه يغتم وقت سرورك * واذا رزق الله المحسود نعمة كانت على الحاسد نقمة وكان يقال الحسد نار في الجسد * وكتب بعض الحكمآء الى صديق له قد حسدك من لا ينام * دون الانتقام * وطلبك من لا يقصر * دون الظفر بك * فليكن حذرك بعد الثقة بالله تعالى على حسب ذلك وقيل كان مكتوبا على فص خاتم بعض الملوك الحسود لا يسود ابدا * والذي خبث لا يخرج الا نكدا * وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه لن يصل الحسد الى المحسود * حتى يقتل الحاسد نفسه * بغم دايم * وعقل هايم * وهم لازم * وما رايت ظالما يتشبه بالمظلوم الا الحاسد * وقال بعض الشعرآء *

* كم من حسود اطال الله حسرته * فعنص هما على الايام من حسده *

وحاسد الخير طول الدهر في تعب * يزيلك الحسد المذموم في كمل *
واعلم يا بني ان اسباب الحسد ثلاثة * احدها بغض المحسود قبل ظهور النعمة عليه * فاذا ظهرت عليه نعمة * واشتهرت عنه فضيلة * انارت البغضآء القديمة له حسدا على ذلك * الثاني ان يظهر على المحسود نعمة شاملة * او فضيلة كاملة * يعجز الحاسد عن تحصيلها * وتقصر همته عن ادراكها * ويكره تقدمه عليه بذلك * واختصاصه به دونه فيصير حسدا * الثالث ان يكون بالحاسد شح بالفضايل المكتسبة * وبخل بالنعم الموهوبة * وليس يقدر على منعها منه * ودفعها عنه * اذ هي ليست في يديه * ولا مفوضة اليه * فيحسد على ما منحه الله تعلى من اعطآئه العيم * وفضله الجسيم * وهذا السبب دآء ليس له دوآء * فان كان الحاسد ذا قوة واقتدار * حدث عن حسده الانتقام من المحسود * وان كان ذا عجز وضعف * حدث عنه هم دايم * وسقم لازم * فينبغي ان يحسم عنه اسباب الحسد * ويانف من تعاطيه * ويستنكف من هجنة مساويه * ليدفع ضرره * ويتوقى اثره * ولا يغالب قضآء الله تعلى فيرجع مغلوبا * ولا يعارضه في امره فيصير مسلوبا * وسنذكر من تاثير الحسد وضرر عواقبه * حكاية تنبئك بامر الملك الحاسد * والوزير الماكر المعاند * ذكر اهل التاريخ ان بهرام بن يزدجود ملك الفرس كان صديقا لخاقان ملك الترك وكان بينهما مهاداة وتلاطف وان بهرام اشتهر امره بالقوة والشجاعة والكرم وحسن السيرة والعدل في الرعية فحسده خاقان لاجل ذلك حسدا شديدا وكان له وزيران فذكر ذلك لافضلهما وساله التدبير في هلاك بهرام فقال له الوزير ان كتم الملك ذلك سعيت فيه فقال ساكنه ولبث مدة ثم سال الوزير عما صنع فيه فاستبصره فلما تكرر ذلك منهما قال له الوزير ايها الملك لا حيلة لي فيما كلفتنيه وانما استبصرتك رجآء ان يزول ذلك من قلبك فاني رايت الحامل لك عليه انما هو فرط الحسد وتدبير الحاسد راجع عليه بالمضرة واخاف ان ينصب الملك مكيدة فيقع فيها قال فغضب خاقان عليه * ثم اطلع وزيره الاخر على ذلك وكان

فيه شر وخبث وحسد وحيلة فتكفل له الخاقان بنيل مراده ثم انه ندب اليه فاتكا من فتاك الترك لم يكن في الترك اشد باسا في الحيلة منه وضمن له ان قتل بهراما ونجا اعطاه رياسة الجند وجعل ذلك خالدا في ولده وان هلك دون مرامه شرف ولده تشريفا يخلد ذكره فيه ابدا وان الفاتك استصحب اخاه معه وتوجها الى دار ملك بهرام فلما وردا قصر بهرام قال الفاتك لاخيه بعني من بعض خدمة قصر بهرام فلم يزل يتلطف حتى باعه من حافظ القصر الموكل بحراسته ليلا فجعل ذلك الفاتك يتحبب الى مولاه بحسن الطاعة ونصح الخدمة حتى نفق عنده واختص به وان سيده تخلف عن حراسته لمرض ناله فاستناب الفاتك فعمد الفاتك الى خزاين سلاح بهرام وكانت بازاء قصره فالقى فيها نارا وثبط اصحابه عن المبادرة الى اطفائها حتى اشتد عملها فارتفعت الضجة فخرج بهرام من قصره على فرس له ولا سلاح معه فانتهز الفاتك فيه الفرصة ودنا من بهرام وبيده خنجر وقد اخفاه في كمه فنظر اليه بهرام في ضوء النار فراى دلايل الريبة ظاهرة عليه فتفرس فيه الشر فجمع رجليه ووثب عن ظهر فرسه فاذا هو على الفاتك وقبض على يديه فوجد الخنجر فاخذه منه بيمينه وجمع يديه معا في شماله وانطلق به يقوده حتى ادخله القصر فخلى عنه وساله عن امره فصدقه الحديث فقال له بهرام اما انت فلك ذمتنا على حفظ نفسك والاحسان اليك اذ كنت انما انبت الذي اتيت طاعة لخاقان ومناصحة له وبذلت نفسك في مرضاته ومثلك من يصطنع ونحن نحفظ عليك نفسك التي ضيعها صاحبك غير انا نريد ان نحبسك مدة ثم نطلقك ونحسن اليك لغرض نريد ان نفعله فدلنا على اخيك فدله عليه فارسل اليه من قبض عليه وحبسهما في قصره مكرمين واخذ عليهما ان يكتما امرهما وكان قد وقع الى بهرام ان رجلا من رعيته زراعا في بعض الرساتيق له ابنة لم يسمع بامراة خلقت على مثل صورتها طولها ستة اذرع وشعرها ينسحب على قدميها وكان جلدها في لونه وصفائه كانه قشور الدر وهي متناسبة الخلق بديعة التركيب دقيقة التخطيط لا يستطيع من راى عضوا من اعضائها ان ينتقل

بصره عنه إلّا بعد مجاهدة النفس واذا قابلت عيناها عيني ذي لب اضطرب قلبه فلا يسكن حتى يضمها الى صدره ويرشف من ريقها وكان لها مع ذلك الجمال الباهر ادب وعقل وحزم فشرهت نفس بهرام اليها ثم تنزه ان يكون تحته ابنة زراع فقمع نفسه عنها الفة ونخوة ثم نهى ان يذكرها له احد وامر العامل على البلد الذي هي فيه ان يتفقد امرها ومنع اباها من انكاحها حتى اذا حدث له من خاقان ما ذكرناه احضر رجلا من اصحابه ذا دهاء ومكر وحيلة فندبه للمكيدة لخاقان وامره بما سنذكره في اثناء الحكاية واعطاه من الذهب والفضة ونفايس الجوهر وذخاير الملوك ما ظن انه يحتاج اليه في عمل المكيدة وامره ان يسير متنكرا في زي تاجر الى والد تلك الجارية التي ذكرناها فيشتريها منه ليستعين بها على ما ندب اليه وارسل الى العامل على بلد ابيها يامره بان يضيق على ابيها ويطالبه بما يعجز عنه من المال ففعل ذلك فجاء التاجر واشترى منه ابنته بوزنها ذهبا وهذا شيء كان يعمله اهل الخراج من الفرس اذا ضيق السلطان عليهم باعوا اولادهم قال ثم ان التاجر قصد بها بلاد الترك حتى حل بمدينة خاقان فقصد الى الوزير الساعي له في المكيدة ببهرام فاهدى اليه هدايا نفيسة وتنفق عنده بالتحف الى ان انس به الوزير وخف على قلبه فلبث عنده عاما ثم انه قال له انني احببتك ايها الوزير حبا شديدا ولي عام انازع نفسي في اتحافك بتحفة لم يظفر احد بمثلها وكانت نفسي تضن بها ثم قد سمحت بايثارك فقال وما هذه التحفة قال جارية طولها ستة اذرع وشعرها ينسحب على موطي قدميها كانما كسي جلدها قشور الدر قال فلما سمع الوزير الصفة استفزه الهوى اليها وجعل يتقاضاه باحضارها فلما احضرها ووقع بصره عليها لم يملك نفسه ان وثب عليها فعانقها وقبلها ورشفها ثم التفت الى سيدها فقال له سل ما شئت واحتكم فقال حكمي القرب منك والحضور عندك قال هذا لك عندي وخذ من المال ما شئت قال لا حاجة لي فيه ثم خرج من عنده مبادرا الى باب قصر الملك خاقان فقال لبعض ثقاته ان عندي نصيحة يخاف فوتها فادخله على خاقان في

الحال فساله عن نصيحته فقال اني قصدت الملك بتحفة لا تصلح الّا له فسالت الوزير فلانا ان يوصلها الى الملك فاستاثر بها واعتدى وبذل مالا كثيرا على كتمان ذلك فلم افعل قال وما هذه التحفة قال هي جارية صفتها كذا وكذا فارسل خاقان من فوره رجالا من ذوي النسك في دينهم وامرهم بالهجوم عليه وحفظ الحال التي يرونه عليها والاتيان به وبالجارية محجوبة من الابصار ففعلوا ذلك وقالوا انهم ابصروها بين يديه جالسة متجردة فسالها خاقان عما نال منها فقالت عانقني وقبلني وجردني ونظر الى ساير بدني وهم ان يفتضني فهجم هولاء القوم عليه واخذوني واتوا بي اليك فامر خاقان ان تقطع يديه وتقلع عينيه ويقطع لسانه وشفتاه ففعلوا ذلك بالوزير ثم ان خاقان خلا بالجارية وسالها ابكر هي ام ثيب فقالت بل بكر فلم يملك نفسه ان افترعها فلما نزع عنها ازالت عن راسها قناعا فمسحت به ذكره فاحس فيه من ساعته تنملا ثم بعد ذلك ظهر فيه نفخ ثم ابتدا به الوجع الشديد فعلم انه سم فتناول موسى فقطع به ذكره وامر بالجارية فنحيت عنه وحفظت وطلبوا مولاها فلم يظفروا به وان خاقان عالج نفسه حتى بري ثم احضر الجارية فسالها عن نفسها واهلها وبلدها فاخبرته ولم تكن تعلم من امر مولاها اكثر من انه رجل تاجر اشتراها من ابيها بوزنها ذهبا وسالها عن القناع فقالت كسانيه سيدي وعرفني انه يهديني للملك وان من شان الملوك اذا وقع واحد منهم على جارية ونزع عنها ان تمسح ذكره بما على راسها كاينا ما كان فان لم تفعل ذلك سقطت من عين الملك وتعرضت لسخطه فعلم خاقان انها مخدوعة فلم يتعرض لها بشر ولما عاد صاحب بهرام اليه واخبره بما تم له من المكيدة امر بهرام باحضار الفاتك التركي واخيه واحسن اليهما وكتب معهما كتابا الى خاقان يقول فيه ان الحسد والبغي اوردات واوردا وزيرك وزير السوء موارد الندم وقد كنا انزلناك منزلة الاخ قبل ان نعرف خبث نيتك فينا وحسدك لنا فلما علما ذلك اردنا لك ما اردته لنا فقضى الله له عليك بنجاح السعي لعلمه بصلاح نيتنا وخبث نيتك والان فاتق الله لنفسك

فلسنا نتعرض لك بسوء اذا ازمت حسن النظر لنفسك بمسالمتنا قال فلما انتهى الكتاب الى خاقان عرف من اين اوتيى ثم انه داخلته الحمية والانفة فتجهز لقتال بهرام فى امم من الترك لا تحصى وسار الى ارض فارس فانتخب له بهرام انجادا من اساورة فارس ولقيه فهزمه بهرام وقتل رجاله ونهب امواله واستولى على بلاده وكان سبب اثارة هذه الفتنة الحسد والبغي يا بني واما جلساوك فلتجالس العلما والفقهاء والاشراف ذوي الاذهان الثاقبة الحاضرة * فصحاء اللسان * نصحاء في السر والاعلان * واما اصحابك المقربون * وبطانتك الا قربون * فيجانبون مخالطة الناس * ويعظمونك اذا اظهرت لهم البسط والايناس * فاذا اتصفوا بهذه الصفات وتميزوا بهذه السمات * تبهت بهم الخلافة * وزادتهم رفعة وانافة * وينبغي لك ان تختبر احوالهم * وتمتحن اقوالهم وافعالهم * فان مات وزير من وزرايك اخترت وزيرا منهم لسبق معرفتك بما انطوت صدورهم عليه وما تقدم منهم * وما صدر من النصيحة عنهم * فتجعله مكانه * وتشد ازر الملك واركانه فمن وجدته منهم بعد الاختيار * مذيعا للا سرار * غير واف بالعهد * ولا مبرم للعقد * وصدرت منه نميمة او غيبة * او ظهرت عليه زلة او ريبة * ابعدته عن منزلة الرفعة ولا يناس * وجعلته كساير الناس * وقد قال بعض الملوك لجلسايه جنبوني ثلاثة لا تمدحوني فاني اعرف بنفسي منكم ولا تكذبوني فانه لا راي لكذوب ولا تغتابوا عندي احدا فتفسدوا فابي عليكم * وقال ابن عباس مجالسة العقلاء تزيد في الشرف والعقل يا بني وينبغي لجلسايك ان يحفظوا اسرارك * ولا يذيعوا اخبارك * فانهم خاصتك الاصفياء * وبطانتك الخاصاء * ومن فسدت بطانته كان كمن غص بالماء يابني جالس الفضلاء * وشاور العقلاء * وخذ الراي من النصحاء * واقتد بذوي التجارب النبلاء * وجانب مجالسة الجهلاء * فانه من اخذ الراي ممن لا يفقه الحديث كان كمن قدم الطرف للبهايم * واما كتابك فلتخير منهم لسرك كاتبا من وجوه بلادك * موفيا لغرضك وقصدك * فصيح اللسان * جري الجنان * بليغ البيان * عارفا بالاداب

* سالكا طرق الصواب * بارع الخط * حسن الضبط * عالما بالحل والربط * كاتما للاسرار * متحليا بحلي الوقار * ذا عقل وافر * وفهم حاضر * وذهن ثاقب * وفكر صايب * حلو الشمايل * موسوما بالفضايل * جميل الهيئة واللباس * والموالاة للناس * لان الكاتب عنوان المملكة * وبه تتبين الامور المشتبكة ومن كتابك يستدل على عقلك * ويعترف بمعرفتك وفضلك * فهذا اقل ما يشترط في الكاتب * ويكون في حقك وحقه من الواجب * فانه اذا كان الكاتب بهذه المثابة * صلح ان يكون اهلا للكتابة * وان اخل بهذه الشروط * كان جديرا بالتاخير والسقوط * لاخلاله بكتابته * وعدم اصابته * وكان ذلك وصما في حق مخدومه * ودليلا على جهله في تقديمه * يا بني واما صاحب اشغالك * وضابط اعمالك * فلتتخيره من وجوه بلدك الاخيار * وكفاة الحساب والنظار * ويكون ذا ثقة وامانة * وعفة وصيانة * وصلاح وديانة * وحزم وكفاية * وضبط ودراية * عدلا في احواله * صادقا في اقواله * عارفا بانواع الخراج والجبايات * ضابطا للزمام والحسبانات * ويكون ذا مال ويسار * واثاث وعقار * فاذا كان على ما وصفناه من احواله * كان محافظا على بيته وديانته وماله * ويكون محبا في سلطانك * آخذا بالنصح في جميع شانك * لان مالك وجبايتك تحت نظره * وعلى يديه التصرف فيها في ورده وصدره * يا بني واما فقهاؤك * فلتتخير لنفسك فقيها عالما نبيها موسوما بالصلاح * سالك طرق الرشاد والفلاح * يرشد الى الهدى ويهدي الى الرشاد * ويسدد الامور ويامر بالسداد * ليبين لك ما اشكل عليك من الاحكام * وما تاتيه من الحلال وتدعه من الحرام * وما تقف عنده من الحدود الشرعية * التي هي قوام الملك والرعية * وما يصلح لك من الامور الدنيوية والاخروية * ويتخولك بالموعظة الحسنة * ويذكرك احوال الاخرة * ولينبهك من سنة الغفلة يا بني واما قضاتك فيجب عليك ان تتخذ قاضيا من فقهايك * افضلهم في متانة الدين * وارغبهم في مصالح المسلمين * لا تاخذه في الحق لومة لايم * ولا يسمع لطلامة ظالم * ولا يغتر برشا -

ولا يعلق دلوه منه برشا * يساوي بين الشريف والمشروف * والقوي الضعيف * عالما بتنفيذ الاحكام * مفرقا بين الحلال والحرام * قاضيا بالعدل * اخذا بالفصل * موجزا منجزا للفصل * يا بني واما اعوانك فلتتخير لنفسك عونا تجعله مقدما على اعوانك * ومتصرفا في امور سلطانك * يصرف شرطه بين يديه * فيما لا يمكن توصله اليه * ويتولون الانتقام ممن سخطت عليه * وينبغي ان يكون ذا دربة وشدة * وكفاية ونجدة * مبادرا للامتثال * سريعا في اموره قويا في الرجال * لا تاخذه في خدمة سلطانك لومة لايم * يكون في جميع احوالك عازما جملة نهاره واقفا بباب قصرك * ممتثلا لما تبديه من امرك * حقودا على الاعداء اذا امرت * ومنفذا الحكم فيما به اشرت * ومن يكون تحت يده من الاعوان * يكونون ناظرين لامره * واقفين لخدمته وممتثلين امره وزجره * شديدي الباس * لا يرحمون الجاني من الناس * ولا تمكنهم الغيبة من بين يديه * ويعلمون بما يشير به اليهم من عينيه * واعلم يا بني ان الملك العظيم يحسن بد ان يكون في تصاريف تدبيره وسياسة اموره متشبها بطباع ثمانية وهي الغيث * والشمس * والقمر * والريح * والنار * والماء * والارض * والموت * اما الغيث فانه ينزل متواترا في اربعة اشهر من السنة فيساوي بين كل اكمة مشرفة وموضع منخفض ويغمر كلا من مائه بقدر موضعه في ارتفاعه وهبوطه * فيختزن في تلك البقاع ما تغذي منه نباتها في الثمانية الاشهر الباقية من السنة وكذلك ينبغي للملك ان يعطي جنده واعوانه في اربعة اشهر للنهاية اشهر الباقية فيسوي رفيعهم ووضيعهم في الحق الذي يستوجبه في القسمة بينهم على حسب ما يراه من المصلحة على قدر مراتبهم كما يسوي الغيث بين بقاع الارض * واما الشمس فانها تستقصي بحرها وحدة وقعها في الثمانية اشهر الباقية نداوة الغيث الذي تواتر في اربعة اشهر وكذلك ينبغي ان يستقصي قبض ما حل من خراجه في الثمانية اشهر الباقية من السنة ويستوفي جميع حقوقه من رعيته من ثمن غلاتهم وماشيتهم وغير ذلك من الحقوق الواجبة له عليهم كما تستقصي الشمس

نداوة الغيث من الارض واما القمر فانه اذا طلع لتمامه انتشر نوره على الخلق وانس الناس لضوءه واشرا قه واستوى في ذالك القريب والبعيد وكذالك ينبغي للملك ان يكون في بهجته ورتبته واشراقه في مجلسه وايناس الرعية به وعدله مثل القمر في طلوعه واشراقه فلا يخص شريفا دون وضيع بعدله وايناسه ولا يحتجب عنهم فتظلم احوالهم ويزول انسهم ويقل انتعاشهم كما اذا احتجب القمر في الليالي السود واما الريح فانها في لطفها محيطة بالعالم السفلي وكذالك ينبغي للملك ان يكون بلطفه وصدق جواسيسه وعيونه محيطا بمعرفة احوال رعيته وقواده وولاة ثغور اعماله وحاشيته وجنده واعوانه عارفا باخبار اعدايه ونظرايه عالما بما يعملون وما يتامرون بالعيون الثقات والجواسيس المنتقاة واما النار فيكون مثلها في الحدة على اهل الدعارة والفساد واصحاب الشر لا يبقي احدا منهم ولايذر ولايترك لهم عينا ولااثرا واما الماء فانه مع لينه وسلاسته يقلع الاشجار العظيمة ويقهر من يقاومه بالسباحة وكذا لك ينبغي للملك ان يكون لينا لمن لا ينه شديدا على من خالفه ينصب لا عدايه الغوايل مع لينه ورفقه حتى يقلعهم كما يفعل المآء واما الارض فانها توصف بكتمان السر واحتمال الاذى والصبر على المكاره وكذالك ينبغي للملك ان يكون مثلها في جميع ذالك واما الموت فانه ياتي بغتة ويفاجى اهل اللذات على ماهم عليه ولا يقبل ممن نزل به رشوة * وكذالك ينبغي للملك ان يبغت عدوه من حيث لا يشعر به ويفاجى اهل العداوة والذعارة في حال غفلاتهم كما يفعل الموت واعلم يابني ان المملكة مثلها مثل البستان فينبغي ان يسوسها الملك في غالب الاحوال كما يسوس صاحب البستان بستانه * فمن ذالك انه ينتخب اهل الشكيمة من جنده * وذوي الشوكة من اعيانه فيجعلهم في اقاصي البلاد * واطراف مملكته ليحفظ بهم الرعية كما يفعل صاحب البستان فانه يخرج الشجر ذوات الشوك وما فضل من العيدان فيحيط بها على الشجر المثمرة والزرايع الطيبة ليقيها من اهل الفساد والدواب الموذية وكذلك الملك يطهر رعيته من اهل الفساد والذعارة ويخرجهم من بينهم او يصلحهم

من اقامة الحدود واظهار السياسة فانه اذا فعل ذالك صلحت احوال الرعية وانتعشوا وكثر خيرهم كما يفعل صاحب البستان فانه ينقي بستانه من الحشيش الذي لا فايدة فيه ويخرج ما فيها من الشوك والنبات الخبيث * فينتعش زرعها * وينمو شجرها * ويطيب ثمرها ومتى حل خراج الملك اوتعين له حق على رعيته من اموال الثمار والغلات فلا يوخر قبضه عن وقت محله * فيكون معرضا للابلاك بتافات الزمان كما يفعل صاحب البستان فانه لا يوخر اجتناء ما نضج من ثمره وما طلع من ورده لانه ان لم يبادر الى التقاطه سقط على الارض واحاطت به الافات وينبغي ان يتعاهد ابناء جنده واعوانه الذين ماتوا في خدمته وطاعته ويرضخ لهم من بيت ماله رزقا يقوم بكفايتهم فانهم ارجى للملك عند بلوغهم واشد نصحا في خدمته من غيرهم كما يتعاهد صاحب البستان خوالف شجرة الهالكة بالسقيى والتربية لما يرجوه من خيرها واستطابة ثمرها ومتى تباغض قايدان من قوادك وكانا متجاورين في موضع فينبغي ان تفرق بينهما لان خيرهما لايرجى ماداما متجاورين وربما نتج منهما او من احدهما مالا يمكن لك ان تلافيه كما يفرق صاحب البستان بين الشجرتين اذا تداخلت اغصانهما لعلمه ان خيرهما لايرجى مادامتا كذالك واعلم يابني ان الرعية وان كانت ثمارا مجتناة وذخاير مقتناة وسيوفا منتضاة واحراسا مرتضاة فان لها نفارا كنفار الوحوش وطغيانا كطغيان السيول ومتى قدرت على ان تقول قدرت على ان تصول وهم ثلاثة اصناف فينبغي للملك ان يسوسهم بثلاث سياسات * صنف من اهل العقل والديانة والفضل يعلمون فضل الملك وطول عنايه * ويرثون له من ثقل اعبايه * فسياسة هولاء تحصل بالبشر عند لقايهم واستماع احاديثهم وحسن الاصغاء اليهم وصنف فيهم خير وشر فسياسة هولاء تحصل بالترغيب والترهيب وصنف هم السفلة الرعاع اتباع كل داع * فسياسة هولاء باخافة غير مقنطة * وعقوبة غير مفرطة * ولا يتحقق ذالك منه الا ان يكون اغلب اوصافه عليه الرحمة للرعية لان الملك انما يتميز عن السوقة بفضيلتين فضيلة

ذاته وفضيلة في آلاته * اما فضيلة ذاته. فخمس خصال رحمة تشد رعيته ويقظة تحوطهم وصولة تذب عنهم وفطنة يكيد بها الاعداء وحزامة ينتهز بها الفرص اذا امكنته واما فضيلة في آلاته فستة * وهي وفور امواله وكثرة اجناده وحصانة معاقله * واتخاذ المباني الوثيقة واعداد الملابس السنية * وتحصيل الذخاير النفيسة * ولا ينبغي للملك ان يعتمد علي فطنته وقوة حيلته * وكثرة ماله وجنده * وحصانة معاقله فيترك الاستعداد للنوازل * ولكثرة ما يجوز وقوعه من الحوادث * فيكون مثله كمثل خطيب اعتمد على فصاحة لسانه وقوة بديهته فترك تزوير القول وترتيبه ثم صعد المنبر فيوشك ان يستولي عليه العي عند الحاجة بل ينبغي ان يتقدم في الحيلة للامر قبل نزوله فانه اذا نزل به ضاقت عنه الحيل فهو في المثل كالسكر الذي يسكر على الارض التي يخاف غرقها فانه ان عمل قبل وصول الماء اليها فانه يثبت ويمنع الضرر عنها وان وصل الماء اليها فلا حيلة فيه بالسكر * وانشد بعضهم *

* اقدر بغيرك امر نفسك واعتبر * وانظر وانت من الامور بمنظر *
* واذا هممت بورد امر فالتمس * من قبل مورده طريق المصدر *

واذا عرف الملك وجه الكيد الذي يكيد به عدوه فينبغي ان يحترس من مثلها لانه اذا لم يحترس من مثلها كان بمنزلة الرامي الخاسر في الحرب الذي لا تدبير معه فهو ان اصاب برميته مستهدف لرمية غيره وكذالك الملك اذا احتال على عدوه بضروب الحيل ثم لم يتحفظ من كل مايظن ان يبلغه من عدوه كان عمله مونة عليه غير نافع له في العاقبة. وقد كان يقال احترس من تدبيرك على عدوك كاحتراسك من تدبيره عليك فرب هالك بما دبر وساقط في البير الذي حفر * وجريح بالسلاح الذي شهر * وينبغي للملك ان ياخذ في ساير اموره بالحزم وصدق العزم ولا يترك الاحتراس والحذر فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الحزم سوء الظن ولايكون ظنه شيئا حقيقة بل للحذر والاحتياط وقيل لبعض الحكماء ما الحزم قال ان تحذر من كل ما يمكن وقوعه قيل فما العجز

قال ان تاتين مما يمكن وقوعه * وقيل *

* لاتترك الحزم في شيء تحاذره * فان سلمت فما في الحزم من باس *
* العجز ذل وترك الحزم منقصة * واحزم الحزم سوء الظن بالناس *

اعلم يا بني ان الملك اذا حاول امرا عرض له فليشمر في طلبه عند امكان الفرصة ولا يتراخى عنه لصغره فان وثبة الاسد على الارنب هيى التي يثب بها على الفيل ومتى استهان الملك بالامر الصغير عاد كبيرا فان القروح الذي تظهر في الجسد اذا استهان بها الانسان لصغرها صارت الى اعظم العلاج واكبر المداواة * كما قيل *

* فلاتحقرن عدوا رمساك * وان كان في ساعديه قصر *
* فان السيوف تحز الرقاب * وتعجز عما تنال الابر *

واذا وقع الملك في امر من عدوه يخاف منه على نفسه وسلطانه فينبغي ان يعطي بلسانه كلما يرضي عدوه مظهرا للرقة والانقباض وهو مع ذالك متيقظ محترس مستعد للوثبة عليه اذا امكنته الفرصة كالصقر الذي يظهر الذلة والانقباض عند صيده ثم ينقض اذا امكنته الفرصة ينال فيها حاجته وقد كان يقال الحزم التزام مفاجاة العدو مادامت له ريح هابة ودولة مقبلة كما ان العجز اضاعة الفرصة فيه اذا ركدت ريحه وادبرت دولته * كما قيل *

* واذا عجزت عن العدو فداره * وامزح له ان المزاح وفاق *
* فالنار للماء الذي هو ضدها * تعطى النضاج وطبعها الاحراق *

واعلم يابنيي ان العدو اذا كان قريبا لصقعك وبلادك * ويكثر من فسادك وعنادك * فسلط خيالك على بلاده * وتسعى في شتاته وفساده * وتضعف بلاده غاية الضعف * وترهق اهلها بالغارات والزحف * وان قدرت على اخذ ذالك العدو وحصاره * والنزول على بلاده واقتهاره * فلا تقصر عن انزاله * والتضييق عليه في مجاله * وان لم تقدر عليه وترى ان احوالك تتشتت * ونكاية عدوك تعذرت * فتاخذ ما امكنك بقدر الاجتهاد * وتعود قافلا الى بلدك بما معك

من الاحشاد * ثم لم تزل تزيد في جيشك ومددك * واعدادك وعددك * ولا تنفس عدوك ساعة ولا تفتره * حتى تاخذه وتقهره * فان العدو لا يقدر على ملاقاتك * ولا يدافع عن نفسه خوفا من جيوشك وساقاتك * بل يداخله الخوف والارهاب * والفشل في احواله والاضطراب * لما يراه من فساد بلاده * وفل جيشه وقلة احشاده * فان كان العدو حين سمع بحركتك اليه * ارسل الى جيشه قبل ان تهجم عليه * وكان جيشه قريبا منه * بحيث لا ينفك عنه * فيصلون اليه * قبل هجومك عليه * وقد استعد بجيشه للقائك * وقابلك بوجه اعتدائك * فان كان اللقاء بين حدي بلادكما * واظهرتما معا شدة استعدادكما * فيرجى لك الظفر به * والغلبة عليه * وخيبة عدوك فيما قصد اليه * وذلك لاجل ملاقات عدوك من تدريك الجيش * وقلة الانتهاض والطيش * واستعدادك بما زدت عليه * وانتهت محاولتك اليه * فان الزيادة في الجيش لها تاثير في الهزايم * وقوة عظيمة في العظايم * وذلك كما يحكى في قصة الطاغية بن ردمير ملك النصارى مع المستعين بن هود امير المسلمين وكيفية ذلك انه لما التقى المستعين بن هود مع الطاغية ابن ردمير النصراني على مدينة وشقة من بلاد الاندلس وكان العسكران كالمتكافيين كل واحد منهما يراهق عشرون الف مقاتل بين خيل ورجال فلما دنا اللقاء قال الطاغية لمن يثق بعقله ومهارسته للحروب من رجاله استعلم من حضر في عسكر المسلمين من الشجعان * الذين نعرفهم كما يعرفوننا ومن غاب منهم ومن حضر فذهب ثم رجع فقال فيهم فلان وفلان حتى عد سبعة رجال ثم قال انظر الان من في عسكري من الرجال المعرفين بالشجاعة ومن غاب منهم ومن حضر فعدوهم فوجدوهم ثمانية لا يزيدون * فقام الطاغية ضاحكا مسرورا وهو يقول يا بياضك من يوم ثم مشت الحرب فلم تزل المصابرة بين الفريقين ولم يول احد دبره ولا تزحزح عن مقامه حتى فني اكثر العسكر ولم يفر احد منهم ولما كان وقت العصر نظر ابن ردمير ثم حمل علينا حملة ودخلوا دخلة ففرقوا بيننا وصرنا شطرين وحللوا بيننا وبين

اصحابنا فكان ذلك سبب وهننا وضعفنا ولم تقم الحرب الّا ساعة ونحن في
خسارة معهم فاشار مقدموا العسكر على السلطان ان يتحول بنفسه وكسر
عسكر المسلمين وتفرق جمعهم وملك العدو مدينة وشقة فليعتبر ذو العزم
والبصيرة من جمع يحتوي على اربعين الف مقاتل ولم يحضر من الشجعان
المعدودين الّا خمسة عشر ويعتبرونسوق العلج بالظفر والغنيمة لما زاد في
ابطاله رجل واحد ويحكى ايضا ان المنصور بن ابي عامر رحمه الله تعلى
كان في بعض غزواته اذ وقف على نشز من الارض مرتفع فراى جيوش
المسلمين بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله قد ملاوا السهل
والجبل فالتفت الى مقدم العسكر وهو رجل يعرف بابن الصحفي * فقال
كيف ترى هذا العسكر ايها الوزير قال ابن المصحفي ارى جيشا كثيرا
وجمعا وافرا * فقال له المنصور لا يعجزنا ان يكون في هذا الجيش الف
مقاتل من اهل الشجاعة العظيمة والبسالة الكبيرة * فسكت ابن المصحفي
فقال له المنصور ما سكوتك اليس في هذا الجيش الف مقاتل من الابطال
قال لا فعجب المنصور ثم عطف عليه فقال له افيهم خمس مائة من الابطال
المعدودين قال لا فسبه المنصور واستخف به واضربه فاخرج على اقبح
صفة فلما توسط بلاد المشركين اجتمعت النصارى وتصاف الجمعان *
والتقى الجيشان * فبرز منهم علج شاك في السلاح يكر ويفر وينادي هل
من مبارز فبرز له رجل من المسلمين فتجاولا ساعة فقتله العلج وفرح
المشركون وصاحوا واضطرب لها المسلمون ثم جعل العلج يمرح بين الصفين
ويقول هل من مبارز اثنين بواحد فبرز اليه رجل من المسلمين فتجاولا ساعة
فقتله العلج * وجعل يكر ويفر ويحمل وينادي هل من مبارز ثلاثة بواحد
فبرز اليه رجل من المسلمين فقتله العلج وذل المسلمون وكادت ان تكون
كسرة فقيل للمنصور ما لها غير ابن المصحفي فبعث اليه فحضر فقال له
المنصور الا ترى ما يفعل هذا العلج الكلب منذ اليوم قال بعيني جميع ما
ترى قال فما الحيلة فيه قال وما تريد قال ان تكفي المسلمين شره قال
نعم الان ثم قصد الى رجال يعرفهم فاستقبله رجل من اهل الثغور على فرس

قد نشزت اوراكها هزالا وهو يحمل قربة مآء بين يديه على الفرس والرجل بين يديه القربة وهو في نفسه وحليته غير متصنع فقال له ابن المصحفي الا ترى ما يصنع هذا العلج منذ اليوم قال قد رايته فماذا تريد منه قال اريد راسه الان قال نعم ان شآء الله فحمل القربة الى رحله ولبس لامة حربه وبرز اليه فتجاولا ساعة فلم يرع الناس الا المسلم جآء اليهم يركض ولا يدرون ما هنالك واذا الرجل يحمل راس العلج فالقى الراس بين يدي المنصور وابن المصحفي واقف هنالك فقال ايها الامير عن هذا وشبهه اخبرتك انه ليس في عسكرك منه الف ولا خمسمائة ولا مائة ولا خمسون ولا عشرون ولا عشرة فرد المنصور ابن المصحفي الى منزله واكرمه ووصله فينبغي لك يا بني ان تصطنع الاجواد * ولا تفرط في شجعان الابطال الانجاد * واعتبر هذه الكيفية ولا تضع للشجعان مالهم من المزية الدرجة العلية *

* بسم الله الرحمان الرحيم * صلى الله على سيدنا ومولانا محمد *

* القاعدة الثالثة *

* وهي قاعدة العدل *

اعلم يا بني ان الملك بنآء والعدل اساسه * فاذا قوي الاساس دام البنآء * وان ضعف الاساس انهار البنآء * فلا سلطان الا بجيش * ولا جيش الا بمال * ولا مال الا بجبايا * ولا جبايا الا بعمارة * ولا عمارة الا بالعدل * فالعدل اساس * ومن استعمل العدل حصن ملكه * ومن استعمل الظلم عجل هلكه * وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته وقال ايضا صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن ربه سبحانه وتعالى انه قال يا عبادي اني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا * يا عبادي كلكم ضال الا من هديته فاستهدوني اهدكم * يا عبادي كلكم جائع الا من اطعمته فاستطعموني اطعمكم * يا عبادي كلكم عار الا من كسوته فاستكسوني اكسكم * يا عبادي انكم تخطئون بالليل والنهار وانا اغفر الذنوب جميعا فاستغفروني اغفر لكم * يا

عبادي انكم لن تبلغوا ضرري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني * يا عبادي لو ان اولكم وءاخركم وانسكم وجنكم كانوا على انقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا * يا عبادي لو ان اولكم وءاخركم وانسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسالوني فاعطيت لكل انسان منهم مسئلته ما نقص ذلك من ملكي الّا كما ينقص المخيط اذا دخل في البحر يا عبادي انما هي اعمالكم احصيها ثم اوفيكم اياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الّا نفسه * يرويه ابو ادريس الخولاني عن ابي ذر مسندا الى النبي صلى الله عليه وسلم * وكان ابو ادريس اذا حدث به جثى على ركبتيه وقال علي رضي الله عنه امام عادل خير من مطل وابل * واسد حطوم * خير من سلطان ظلوم * وسلطان ظلوم خير من فتنة تدوم * يا بني من عدل زاد في قدره * ومن ظلم نقص في عمره * وفي اشاعة العدل قوة القلب * ورضى الرب * وتطييب النفس * ولزوم اليقين * وامان من العدو ولما دخل الهرمزان على عمر بن الخطاب رضي الله عنه وجده مستلقيا على قفاه بالمسجد موسد الحصى ودرته بين يديه * فقال له عدلت فامنت فنمت وكتب الى عمر بن عبد العزيز عامله بحمص ان مدينة حمص قد تهدمت واحتاجت الى اصلاح فكتب اليه عمر بن عبد العزيز حصنها بالعدل ونق طرقها من الظلم والسلام فاذا تقرر يا بني ان العدل اس الدولة * واقامة الملة * وراس السياسة * ومدار الرياسة * فالملك بالنسبة اليه على اربعة اقسام *

* القسم الاول *

ان يكون الملك عادلا في نفسه * عادلا في رعيته * واهله وخاصته * اعلم يا بني انه ينبغي لك ان تكون عادلا في نفسك * عادلا في رعيتك * جاريا معهم على الطريقة السوية * موافقا للاحكام الشرعية * مستقيما في احوالك * مرضيا في اقوالك وافعالك * يروى ان معاوية بن ابي سفيان رضي الله عنه قال لصعصعة بن صفوان صف لي عمر بن الخطاب فقال له كان عالما برعيته * عادلا في قضيته * عاريا من الكبر قابلا بالحق قابلا

للعذر * سهل الحجاب * مصون الباب * متحريا للصواب * رفيقا بالضعيف * غير محاب للقوي ولا جاف للغريب * وكعمر بن عبد العزيز الذي ملأ الارض عدلا بعد ان ملئت جورا وقد تقدم ذكره فينبغي لك يا بني ان تسير هذ السير * وتقتفي هذا الاثر *

* القسم الثاني * ان يكون الملك عادلا في نفسه وفي خاصته واقاربه دون رعيته * صارفا همه الى الآخرة غافلا عن امور الدنيا * لا يبحث على عماله المتقدمين * لاعماله * ولا ينظر في ظلمهم لرعيته * ويرى ان عماله على منهاجه وطريقته * ويحسن فيهم ظنه ويظن انهم لا يخرجون عما حد وسنه * ويرى ان ذلك من عدله * ومما بعد من فضله * وجميل فعله * يروى ان ملكا من الملوك كان عادلا في نفسه وفي خاصته يتشاغل بالعبادة * ويأخذ في الانقطاع والزهادة * حمل الناس على العدل * وظن انهم مجبولون على الفضل * فلا يصل اليه الا علم بلده * دون البلاد البعيدة التي تحت يده * فضاعت الرعية لعبادته وتضرر كل من تحت ايالته * حتى خربت بلاده * واحتقره عماله وقواده * فكان سبب خرابه * وزال ملكه وذهابه * ولم يبق له بقية اثر * ولا علم ولا خبر *

* القسم الثالث * ان يكون الملك جاريا مع الرعية على العوايد المالوفة * والاحوال المعروفة * من غير خرق عادة * ولا احداث زيادة * مقبلا على اموره الدنيوية * وان كان مفرطا في بعض الامور الاخروية * فهذا يا بني عدله متوسط * وهذا كثير في ملوك زماننا هذا *

* القسم الرابع * ضد الاول وهو ان يكون الملك جاريا على غير الامور الشرعية والعادية * وهذه خلافة فرعونية يجور على رعيته * ويعاملهم بخبث نيته * فياخذ بالجناية غير الجاني * ويتجرى في الظلم من غير توان * ويغلب شهوته على عقله * وجوره على عدله * وينهمك في لذاته * ويبالغ في شهواته * فهذا يا بني ملك لا يعدل في نفسه ولا في رعيته * ولا احسن في ظاهره ولا في طويته * ومثل هذا يكون ملكه سريع الخراب * وهلاكه وشيك الاقتراب * وهذا يا بني مثل الوليد بن عبد الملك

قال كان عمر بن عبد العزيز يذكر الظلمة فيقول الوليد بالشام * والحجاج بالعراق * وقرة بن شريك بمصر * وعثمان بن حيان بالحجاز * ومحمد بن يوسف باليمن * امتلات الارض والله جورا فاما الوليد فقال عبد الرحمان بن محمد الانصاري رايت ابيات النبي صلى الله عليه وسلم وعليها المسوح السود فلما قدم الوليد ابن عبد الملك المدينة نظر الى ابيات النبي صلى الله عليه وسلم قال فما بال ابيات النبي صلى الله عليه وسلم يدخلها الجنب والحايض اهدموها فقال حبيب بن عبد الله بن الزبير عمد الى ءاية من ءايات الله تعلى كنا ننظر اليها فمحاها فبلغت كلمته اليه فكتب الى خليفته على المدينة ان اقم حبيبا على باب المسجد واضربه مائة سوط واقمه على البير التي بباب المسجد ينزع بالبكرة ويصب في الحوض * فاخرجه وضربه مائة سوط واقامه على البير وكان يوما شديد البرد فمات وكان الوليد كثير الهتار * مخلوع العذار * لا يرعوي لعذل عاذل * ولا يسمع النصح من قول قايل * حتى انتزع ملكه * وتبدد سلكه * فهذا يا بني لم يصلح دنياه ولا اخراه * ولا ظفر بطايل مما تمناه *

* القاعدة الرابعة *

* وهي قاعدة جمع المال والجيش *

وانما جعلنا الجيش والمال معا قسما واحدا لان كل واحد منهما متوقف على صاحبه * ومطلوب بمطالبه * فلا مال الا بجيش * ولا جيش الا بمال * واصلهما العدل * لان العدل يجمع المال * والمال يكفل الجيش * والجيش يحوط الرعية فاذا ثبت هذا فاعلم يا بني ان الملك ينقسم الى اربعة اقسام * القسم الاول * ان يجمع الملك الجيش والمال بقدر ما تحت ايالته من البلاد وماله من الاقاليم والاعداد لا اقل من ذلك ولا اكثر * ولا اكبر ولا اصغر * اعلم يا بني انه ينبغي لك ان تتخذ جيشا بقدر ما تحكم به بلادك * ولا يحملك الحرص على ان تكثر اعدادك * فليكن جيشك قدر ما يكفيه من المال * ولا تكون مفرطا ليلا يتعذر عليك الحال * لانك اذا ضعف مالك وكثر جيشك كثر همك وتنكد عيشك * وصار عليك

جيشك اعوانا * واصبحت لغلة ذات يدك مهانا * فيدعوك طلب الجيش الى طلب الرعية * واذا ظلمت الرعية * فسد ملكك بالكلية * وان كنت قليل الجيش كثير المال * كان ملكك صايرا للاختلال * فانه ربما تدعوك الضرورة * وحوادث اعدائك كثيرة منها ان يريد عدوك الاستيلاء على بلادك * ويحتقرك لقلة اجنادك * فياخذك الامر على حين غفلة * ويعتريك العدو دفعة ولا تجد مهلة * فتلتمس ضم الجيش بما عندك من المال * فلا تجده في نفس الحال * ولا من ياخذه منك * ولا يصادر بنفسه عنك * واعلم يا بني انه ينبغي لك ان لا تنفق مالك الا في حقه * ولا تخرجه الا في مستحقه * ولا تعطه الا فيما يصلح عليك * ويجلب المنفعة اليك * ولا تسرف فيه في لذات دنياك * ولا في زخارف لا توصلك الى هواك * كالخروج عن الحد في الزينة واللباس * والبناء المفرط الخارج عن القياس * فان خير الامور اوسطها * واحسنها اوفقها واضبطها * يا بني ينبغي لك ان لا تعطي لغير فايدة * فان تلك سجية فاسدة * ولا تعطي الفا لمن يستحق مائة * ولا مائة لمن يستحق الفا * فان فعلته كان ظلما اوسرفا صرفا يا بني اياك ان تحملك شهوة الشكر على بذل المال * فيفضي بك ذلك الى الافلال * فانه اذا نفذ المال * انفذ الشكر * يا بني اياك ان تحتقر ما تجمعه من المال * لا من كثير ولا من اقلال * ولا تتساهل باخراجه * وان سهل عليك جمعه من خراجه * فرب بحر تجمع من نقط * ورب مستبحر نزح بالنزح * فان التبذير يودي الى التدمير * والامساك * يودي الى الاهلاك فليكن يا بني مالك موازيا لجيشك * ومقاوما لجندك * فقد يحدث في الزمان اعتلال * من غير عدو ولا قتال * مثل ان يكون قحط في البلاد * او ثوران فتنة تسوذن بالفساد * فتجد ما ترجع اليه من المال الذي يقوي جيشك ويعتمد عليه * فان كانت الفتنة فيضعف لك العدو * وتسكنه اذا اظهر العتو * واذا كان القحط استعنت به على الرعية * وانفقته في الحقوق المرعية * فلا تؤثر في مملكتك فتنة * ولا قحط ولا محنة * ولا يبلغ الرعية حيف

ولا ضغط ولا خوف * استغناء بمالك وتدبيرك * وسياستك وضبط امورك *
وقد ذكرنا لك ترتيب الجيش في قاعدة السياسة فلنذكر الان جمع الجيش
وكيفيته * وحصره وكميته * يا بني ينبغي لك ان تنشاغل بجمع اجنادك *
وتوفير احشادك واعدادك * وترتيب خدمك وقوادك * فتعدهم في زمن
الرخاء * لتجدهم عند الشدة واللاواء * يا بني عليك باستلاف قلوب
الانجاد من قبيلك * ومشاركتهم في كثيرك وقليلك * واصطنعهم بالاحسان
ولا تغلظ عليهم فيضمروا لك الشنئان * واخفض لهم عند الاحتياج الجناح
وتامل من اظهر لك العداوة منهم باظهار المودة * وسايسهم حتى يرجعوا
الى حزبك * ولا تتركهم للعدو يستعين بهم على حربك * فانك تبلغ
منه بحسن المحاولة * ما لا تبلغ منه بقبح المعاملة * وتنال بالسياسة
واللطف * ما لا تدركه بالغلظة والعنف * فان اصطناع الاعداء مكيدة *
واستجلابهم بالخير ضرورة وكيدة * يا بني ينبغي لك ان تدخل الدواخل
بين بعض اعدائك * لتمهد بهم بذلك جانب اودائك * ولتوقع الشتات
في قلوبهم * وتصدهم عن مرغوبهم ومطلوبهم * فانك اذا ادخلت بينهم
الدواخل * وجعلت اسافلهم عوالي واعاليهم اسافل * فتطمئن من جانبهم *
وتتحسن عواقبك بسوء عواقبهم * وتامن من غوايلهم وشواغلهم * فيكون
كل واحد منهم يتحرز من صاحبه * ويطلب سقطة يوقعها في جانبه *
فيعلمك بما انطوت عليه اسراره * وما تحدث به صاحبه واكنه اضماره *
فاذا تشاغل بعضهم ببعض * وتشاجروا في رفع وخفض * رجعوا الى
صداقتك واصطفائك * ودخلوا في حزب اوليائك * ومالوا الى جنابك *
وان لم يكونوا من اصحابك * لان كل منهم يحذر من صاحبه * ويخشى
من سوء عواقبه * فهذا يا بني مما يوجب ضم الجيش بعضه الى بعض *
وسلامته من الاختلال والنقض * يا بني ينبغي لك ان تكون في كل
سنة تدرك جيشك وتدبر امرك * وتربيه شيئا بعد شيء * وذلك بقدر
تنمية المال وتكثيره * وضبطه وتوفيره * وعلى قدر الاستطاعة السياسة *
والحركة الرياسية * لان زيادة المال والجيش للملك تقوية بماله * وزيادة

في نظم سلكه * فيعظم قدرك في عين اوليائك * وتقع رهبة في قلوب اعدآئك * وان كنت غافلا عن تدريك الجيش وتوفير المال * واصلاح الامر وتدبير الحال * كثرت اعداوك وقل اعوانك * ونقص ملكك وتلاشى سلطانك * ويكون ترتيب الجيش في العطآء على قدر بيناتهم وشجاعتهم * وسابقتهم للخدمة واصطناعاتهم * ومحبتهم وانقيادهم * والفتهم واجتهادهم * وهولاء اهل الطاعات والمجابي والبلاد * وهم القبيل والحماة والانصار والاجناد * ما عدا مماليكك المنقطعين اليك * المتصرفون في الخدمة بين يديك * فان جراياتهم في الرتب مشاهرة * وارزاقهم من بيت المال مياسرة * جريا على توالي الشهور * وهم عندك في جرياتهم على قدر طبقاتهم * فاصحاب البلاد يجبونها في اوقات معلومة * على حسب ما هي عندهم مقسومة * وذلك بقدر ما يقيم اودهم * ويصلح اهلهم وولدهم * وخيلهم وعددهم * ثم تتفقد احوالهم جهد استطاعتك * ليستمروا على خدمتك وطاعتك * لان من فرط في جيشه اعان عدوه عليه * ومن تحفظ به فلا يجد العدو سبيلا اليه * وبالاضاعة والتفريط فسد كثير من الملوك * فاخرجوا عن الملك والملوك * كما اتفق لبني امية وبني العباس * وكلتونة والموحدين * والشيعة العبيديين * لما اهملوا جيوشهم بالتفريط وسوء التدبير * وركنوا الى اللذات والتبذير *

* القسم الثاني *

ان يكون الملك يشتغل بجمع المال * ويفرط في الجيش والرجال * فهذا حاله غير محمود * وفعله غير مردود * فانه ربما دهمه عدو اقوى منه * فيوشك ان يطلبه ولا ينفك عنه * وان كان اضعف منه في الحال * فهو اشد عليه في القتال * فان العدو يستعين عليك بقوته وكثرة جيشه وشدته * فتاخذ بلاده * وتنال طارفه وتلاده * فيكون ذلك سبب خرابه * وذلته واكتئابه * لانه يطلب لمن يعطي المال * فلا يجده في نفس الحال * فتدخل عليه الافة من هنا * فلا يتصل بالمنى * وان اعطى المال فانه لا يقبل منه * ولا ينفعه ولا يرد عنه * باسه ولا يدفعه * فان

الناس قد تعودوا منه قلة العطآء في الشدة والرخـآء * وان همته مصروفة لجمع الاموال * مجبولة على قلة البـذل * فمثل هذا الملك يا بني كمثل التاجر البخيل * المجبول على جمع الكثير والقليل * الكادح لغير ولده * الجامع لغيره ما ادخر من عدده * يروى يا بني في اخبار بعض الملوك انه كان له وزيران احدهما يشير عليه بجمع الاموال * والاخر يشير عليه باصطناع الابطال * فقال احدهما ان الرجال وان تفرقوا عنك اليوم * فانك بالمـال تجمع كل القوم * فانه متى احتجت الى الرجال * وعرضت عليهم الاموال * جاءوك من كل مكان * وقضيت الغرض بهم في كل مهم كان فقال له الملك الهذا من شاهد قال نعم * هل بحضرتنا الساعة ذبابة * قال لا * قال فامر باحضار جفنة عسل فحضرت * فتساقط عليها الذباب لوقتها * فاستشار السلطان بعض اصحابه فنهاه عن ذلك وقال له الراي الذي يبلغك غاية آمالك * ان تصطنع الرجال وتعد الابطال * فليس في كل وقت اردتهم يحضرون * ولا اذا اهملتهم ثم تطلبهم ينصرون * قال له الملك قلت الصواب ولكن هل لهذا من دليل قال نعم اذا امسينا اخبرك * وابرهن لك ما يذكرك * فلما اظلم الليل قال للملك هات الجفنة من العسل فاحضرت * فلم تحضر ذبابة واحدة ولا ظهرت * فالفتنة ليل * فاعدد لها الرجل والخيل * فينبغي لك يا بني ان لا تفرط في الجيش والمال كما ذكرناه فان الجيش والمال امران متلازمان ان ضاع احدهما ضاع الاخر وقد سمعنا عن بعض ملوك مصر اسمه بلدفور * كان يجمع الاموال ولا يحفل بالرجال * فقال له اصحابه ان امير الجيوش بالشام يتواعدك وكانه قد قدم اليك * ونزل بجيوشه عليك * فاستعد الرجال * وانفق الاموال * فاوى الى صناديق موضوعة عنده وقال الرجال في الصناديق * فغزا امير الجيوش ذلك الملك في مصر فقتله ولم تسلم الصناديق * ولا الملك وكان رايه رايا فاسدا * لان الرجال لا يقيمهم لوقته * ويجمعهم عند حاجته * انما يكونون اخيافا وشرذمة ملفقين * ليس فيهم منـاع * ولا عندهم دفاع * ولا ممارسة للحروب وكذلك اتفق للسلطان ابي تاشفين

حين فرط في جيشه عند ما حصره بنو مرين امسك يده عن العطـــآء في الحصار * واستعد بالحصن وبالقليل من الانصار * حتى كاد العـــدوان يدخل البلد عليه * طلب لمن يعطي المال فلم يلتفت احد اليه * ولـــم يجد من ياخذ المال * وءالت حاله الى ذلك المثال * وامورة الى ذلك المثال * دخلت عليه البلد عنوة * فذل بعد العزة والنخوة * فاياك يــا بني ان تفرط في الجيش * اعتمادا على المال * فان ذلك مفسدة على كل حال *

* القـــــــسم الثالث *

ان يكون الملك يشتغل بجمع الجيش ويفرط في المال وهذا ايضا غير محمود الفعال * اعــلم يا بني انه لا يقبل لك عذر في قلة العطاء * ولا حجـــة لك في ذلك عند الاولياء * لانه ربما دهمك امر عدو موازلك * يكـون في الجيش مثلك واقوى منك في المال يريد ان يدخل عليك بعض اخلال * فيعطي المال لجيشه * ويخدع جيشك بماله وعيشه * ومثل هـذا مثل من قوى عدوه عليه * وجلب هلاكه اليه * وهـــذا مثل مصعب ابن الزبير مع عبد الملك بن مروان وكيفية ذلك ان مصعبـــا لما التقى مع عبـــد الملك بن مروان كان عبد الملك كاتب اصحاب مصعب وبعث اليهم اموالا ووعدهم الاماني ان غدروا بمصعب * وكان في جملتهم ابراهيم بن الاشتر وكان ناصحا له * فجاءه بكتاب وصله من جهة عبد الملك بـن مروان بطابعه وقراه عليه فاذا فيه من عبد الملك بن مروان الى ابراهيم بن الاشتر النخعي وهو يعده بولاية العراق ان غدر بمصعب بن الـزبير * فلما قرا عليه الكتاب قال له ما كتب لي عبد الملك حتى كتب لجميع اصحابك وما هو في احد من اصحابك افل طمعا منه في فهل اطلعك احد منهم على ما بعث اليهم عبد الملك بن مروان من المراسلة ووعدهم بالولايات والمال قال مصعب لا فقال له اني لك لناصح ولاكن ارسل اليهم ياتوك واضرب اعناقهم فانهم ما كتموا عنك خبرا كتبه اليهم الّا وقد عزموا على غدرك فقال له مصعب لا افعل هذا من غير ان يصح عندي * قال له اذا فارسل اليهم وثقفهم * قال وهذا ايضا لا افعله * اذا لا يناصحنا احد من عشائرهم

يا ابا النعمان يرحم الله ابا بحر يعني الاحنف بن قيس انه كان يحذرني غدر اهل العراق * ثم ان عبد الملك زحف بعسكره الى المصعب فالتقيا بالجاثليق فقتل ابراهيم فقال مصعب لقطن ابن عبد الحارثي احمل عليهم ابا عبد الله في خيلك فقال له لا ترى ذلك ابدا قال له ولم قال لاني اكره ان يقتل مذحج في غير شيء * ثم قال لحجار بن بحر ابا أسيد قدم رايتك قال التقدم الى هولاء القوم لوم * قال له مصعب ما تتاخر اليه والله اكثر لوما * ثم قال لمحمد بن عبد الرحمن انت ايضا تقدم قال ما ارى احدا يفعل ذلك فافعله فقال مصعب عند ذلك يا ابراهيم ولا ابراهيم لي اليوم يعني ابراهيم بن الاشتر لما كان اشار اليه بما اشار ولم يسمع منه وعلم انه كان ناصحا له من بينهم ثم قال لابنه عيسى بن مصعب الحق بعمك بمكة فاخبره بما صنع بي اهل العراق ودعني يا بني مقتول فقال والله لا تتحدث بي قريش اني اسلمتك للقتل ابدا قال تقدم يا بني بين يدي احتسبك فاني كنت اعرف منك الكرم وانت في مهدك فتقدم حتى قتل فحول اهل العراق وجوههم وصاروا مع عبد الملك بن مروان وبقي مصعب في شرذمة قليلة وجاء عبيد الله بن زياد بن طيبان وكان من اصحابه فقال له اين الناس يا امير المومنين قال غدركم يا اهل العراق فرفع يده عبيد الله ليضربه فبارزه مصعب وضربه على البيضة فنشب السيف في البيضة فجاء غلام لعبيد الله فضرب مصعبا فقتله ثم جاء عبيد الله براسه لعبد الملك بن مروان فلما نظر عبد الملك لراس المصعب خر ساجدا فقال عبيد الله بن طيبان ما ندمت على شيء اكثر من ندمي على عبد الملك حين خر ساجدا اذ لم اكن اضرب عنقه فاكون قد قتلت ملكي العرب في يوم واحد * فلا تفرط يا بني في مالك * فيودي ذلك الى اختلال حالك * وتخونك اعوانك ولو انهم اخوانك * كما فعل اهل العراق بالمصعب المذكور حين اسلموه وفر عنه الجمهور * فاحفظ يا بني وصيتي ترشد * واعمل بمقالتي تسعد * القسم الرابع * ضد الاول وهو ان يكون الملك يفرط في الجيش والمال * ولا يصرف همته

في ملكه الى اصلاح حال * وهذا يا بني في الملوك مرفوض * معكوس الآراء منقوص * لانه اشتغل بالانهماك واللذات * والمباني والزخارف والنزهات * واللهو واللعب والفتك والطرب والحنين للقينات والالات * والاستغراق في كل الحالات * فهذا يا بني ملك افسد ملكه بيده * واعان عدوه على اخذه ونكده * يا بني اعلم ان من يكون على هذه الحال * لا ترجى له عاقبة مئال * ولا يدوم له سلطان * ولا يعمر له اوطان * لسوء فعله وتفريطه في جيشه وماله * واستغراقه في لذاته وفي زهوه واشتغاله * وهذا سبب خراب ملك بني امية * واستيلاء بني العباس عليهم بالكلية * واعلم يا بني انه ما زال امر بني امية مستقيما حتى افضى الامر الى ابنآئهم المترفين * واولادهم المنهمكين * فكانت همتهم من عظم شان الملوك وجلالة اقدارهم قصد الشهوات * وايثار اللذات * والدخول في معاصي الله وسخطه * جهلا منهم باستدراج الامل وامنا من مكره * فسلبهم الله العز وازال عنهم النعمة * وسلط عليهم الفتن وعجل لهم بالنقمة قال عبد الله بن مروان ومروان هذا هو المعروف بمروان الحمار وهو اخر ملوك بني امية * قال لما زال ملكنا وهربنا الى ارض النوبة فيمن اتبعني من اصحابي الدانيين فسمع ملك النوبة بخبري فجاءني وقعد على الارض ولم يقعد على فراش افترشته له فقلت له الا تقعد على ثيابنا قال لا قلت ولم قال لاني ملك وحق على كل ملك ان يتواضع لله سبحانه اذ رفعه الله عن خلقه ثم قال لي لم تشربون الخمر وهي محرمة عليكم ولم تطئون الزرع باقدامكم والفساد محرم عليكم * ولم تلبسون الحرير والديباج وتستعملون الذهب والفضة وذلك محرم عليكم فقلت له لما قل انصارنا انتصرنا بقوم من الاعاجم دخلوا في ديننا ولنا عبيد واتباع فعملوا ذلك على كره منا فاطرق مليا يقلب كفيه وينكت في الارض ثم قال ليس كما ذكرت بل انتم قوم استحللتم ما حرم الله عليكم وظلمتم فيما ملكتم فسلبكم الله العز بذنوبكم ولله فيكم نقمة لم تبلغ غايتها واخاف ان يحل بكم العذاب وانتم ببلدي فيصيبني معكم وانما الضيافة ثلاث فتزودوا ما احتجتم اليه وارتحلوا عن بلدي

ولا تجاورني * يا بني لازم التقوى * وتجنب اللهو والهوى * ولا تغتر بالدنيا وكن حازما في جيشك ومالك * تبلغ جميع آمالك * ان شاء الله تعلى *

* الباب الثالث في الاوصاف المحمودة التي *
* هي نظام الملك وجماله * وبهجته وكماله *

اعلم ان له قواعد اربع * الشجاعة * والكرم * والعفو * والحلم * وهي غرائز وطبائع يضعها الله سبحانه وتعلى فيمن يشاء من عباده *

* القاعدة الاولى وهي الشجاعة *

اعلم يا بني ان الشجاعة وصف محمود * وبها يتفاخر الوجود * واعلم ان ثمرة الشجاعة لم يكن مثل صاحبها في الدنيا وخصوصا في الملوك * فانها لمآثرهم كالوسايط في السلوك * واصل الشجاعة الصبر في المواقف وربط الجاش عند المخاوف * وراسها الحذر والتوقي * وسياستها الممارسة عند التلقي * يا بني اذا وضعت قتالك في موضعه * وحذرت ما يتقي من مصرعه * كنت شجاعا كاملا * وفي الحروب شهلا باسلا * وان تركت الحذر في حين القتال * وتوكلت على شجاعتك في ملاقات الابطال * والمباشرة بنفسك للاهوال * كانت شجاعتك هوجا * وقوام حربك عوجا * واعلم يا بني اذا كان الملك شجاعا * كان منصورا مطاعا * ترهبه الاعداء * وتطمئن به الاولياء * يعتد به جيشه في مواقع الحروب * ويخاف سطوته الطالب والمطلوب * فالشجاعة يا بني مكملة للمحاسن محبوبة في كل المواطن * فرب الشجاعة بالرعب منصور * وفي زمانه معظم مذكور * وينبغي لك يا بني وان كنت شجاعا ان تحذر الوقايع * التي تخاف فيها المصارع * واعلم بان الشجاعة والكرم اخوان * كما ان الجبن والبخل اخوان * ودليلهما ان الشجاع يجود بنفسه فاحرى ان يجود بماله * والبخيل يبخل بماله فكيف يجود بنفسه في حاله * والشجاعة تنقسم على اربعة اقسام * القسم الاول * وهي الشجاعة التي

يصحبها الراي اعــلم يا بني انه ينبغي لك ان تكون حاضر الذهــن عند الملاقات * رابط الجاش عند تلاقي الساقات * لا تزحزحك الريــاح العواصف * ولا ترهبك القواصب القواصف * ولا الحروب على اختلاف انواعها * ومعظمات ايقاعها * وقد قدمنا لك انه لا ينبغي لك ان تخاطر بنفسك * ولو كنت اشجع ابناء جنسك * فان المخاطرة غير محــمودة إلّا في طلب الملك والسلطان * فانها محمودة في كل اوان * يــا بني واذا اقتحمت القتال * واختلطت الابطال بالابطال * فغايتك ان تكـــون حاكما على نفسك * صابرا ثابتا في جاشك * ناظرا على ساقاتك * التي هي قلب جيشك * فلتلزم بها الثبات * ولا تزحزح الى جهة مـــن الجهات * ولتشد بثباتك الانجاد والحمـاة * والمقاتلين الكماة * وان انكسر احد الجناحين من جيشك فلا تهتم به * ولا تشتغل بسببه * فان انكسار الجناحين مع ثبات القلب لا يضر * والصبر في مثل هذا عايد عليك بما يسر * لانه اذا كانت رايات القلب تخفق وطبوله تــزار كان ذلك حصنا للجناحين * واملانا للعسكر من الحين * وارجى للظفر بـالعدو عند رجوع الجانبين * يا بني اذا لاقيت عدوك في الحرب * فاجعــل راياتــك امـامك * ونظرك امامك * ولا تلتفت يمينـا ولا شمالا * فـــان الالتفات يورث خبالا * لانك ربما رايت في احد الجناحين انكسـارا * فيتشوش خاطرك لذلك ويدعوك الشره ابتدارا * فتميل اليهم بمن معــك من العساكر * فيكون ذلك سبب فسادك في الباطن والظاهــر * لان ميلانك سبب الفساد * وخروج عن الاقتصاد * لانه اذا رءاك جيشك ملت الى احد الجهتين * حسبوا انك منهزم دون مين * مع انك لا تقــدر على جبر الجانب الذي انهزم * والركن الذي تثلم * لما دخل الرعب قلوبهم * وافسد التزحزح اساويهم * فالذي يجب عليك ان تجمع خاطــرك * وتثبت في عدوك ناظرك * مصمما اليه * عاملا في اللقاء عليه * يــا بني لا تخل شجاعتك من الراي * تنجح مطالبك في كل سعي * ويرجى لك النصــــر * والاستيلاء على العدو والظفر * يا بني رتب جيشك يوم

الحرب واللقاء * فان في ترتيبه ارهابا للاعداء * وهيئة تهيئا حسن الانتظام * مضبوط الانقسام * على اربعة اقسام * ميمنة من حماة اجنادك * وميسرة من كفاة اجوادك * ونقدمة من ابطال فرسانك * وساقة من اسود شجعانك * وتقدم على كل واحد من الميمنة والميسرة قائدا مقداما * بطلا ضرغاما * فاما التقدمة * فتقدم منهم فرسانا بين يديك * يكونون في نحر العدو اذا قصد اليك * من انجاد قبايلك الشجعان * واهل دخلتك العارفين بالضراب والطعان * وتقدم عليهم قائدا من الابطال * الخايضين بحور الاهوال * واجعلهم على قسمين قسم يلي الميمنة بين يديها وقسم يلي الميسرة بين يديها * ويكون قتال كل قسم من هاذين القسمين اللذين في الجهتين مستندا لمن خلفه من الميمنة والميسرة فتكون الاجنحة باولئك الحماة منتصرة واما الساقة وهي قلب جيشك فاعلم يا بني ان الساقة لا تكون توازي الميمنة والميسرة * فان القلب يوقف الجيش ويشده * ويصد العدو ويرده * فلا يكون فيه إلّا اهل الشجاعة والنجدة * والكفاية والشدة * من كل بطل مقاتل * وسهم في الحروب باسل * تخافهم الابطال وتتقيهم اسود النزال * فترتب هذه الساقة وتجعل عليها من زعماء خاصتك الانجاد * وحماتك الاسود الافراد * قائدا عن يمينها * وقائدا عن يسارها * يضبطانها ويحفظانها * في اقبالها وادبارها * وايرادها واصدارها * لتبقى الساقة موفورة * وحماتها مضبوطة محصورة * بحيث لا يفل احد من الساقة ولا يختل * ولا يتزحزح ولا يتحول * ولو انكسرت الميمنة والميسرة فان الساقة تثبت معه على حالها * منعقدة بحماتها وابطالها * وليكن تشوفك الى عدوك غير ملتفت كما قلناه * ولا تناظر لشيء سواه * وتوكل في جميع امورك على الله * يا بني واحذر ان كان عدوك عن يمينك او شمالك * ان تبادر اليه بانتقالك * فان الالتفات والانتقال * مما يفسد على الملوك القتال * ولو كان اكثر عددا وعدة * واحد شوكة واكبر نجدة * يا بني وينبغي لك ان تتخذ فرسانا بين يديك * تقتدي بهم اذا اقبل العدو اليك * يكونون يواجهون عدوك وساقاته * اذا عزمت على ملاقاته * لانه عند

التقاء الجمعين * وتزاحم الصفين * تلتبس عليك جهة العدو * ولا تدري البعد من الدنو * لا سيما اذا اختلطت الابطال * وارتفع القتام ارتفاع اللال * والتفت الصفوف * وزحفت الزحوف * فهنا يا بني تحتاج الى فرسان الاقتداء * ورسل الاهتداء * يعلمونك بجهة عدوك فتقصد متوجها اليه * حاملا بانصارك عليه * فان التبس على الابطال الذين بين يديك جهة العدو * ولا يدرون البعد من الدنو * ولا اين تقصد اليه * ولا من اي جهة تحمل عليه * من اجل اختلاط الناس واقتحامهم * ونطاحهم واقدامهم * ثم انكشف غيهب العجاج * وظهرت من الجانبين اسود الهياج * فتبين لك العدو اما عن يمينك اوعن شمالك * غير مواجه لك في اقبالك * فينبغي لك ان تسير سيرا رفيقا تلقاءه * وتحاول في انتقالك مواجهته الى ان تقصد لقاءه * وليكن ذلك بين توقف وامهال * بحيث لا يشعر بك جيشك في الانتقال * لان في ذلك فائدة * عقباها بالنجح لك عائدة * وهي ان يراك عدوك مع ثبوت ساقتك وعدم نفورها فربما ينتقل عدوك بسرعة اليك * يريد الهجوم عليك * فيكون ذلك سبب فساده وانهزامه * وقهره وارغامه * لان الانفتال في الحروب * موذن بالانهزام وفوت المطلوب * لان الميمنة والميسرة ناظرة للقلب * وعليه المعول في الحرب * فاذا راى اهل ميمنة الجيش والميسرة انتقال القلب * الذي هو مركز مدار الحرب * وراى المقاتلون اعلامهم انقلبت * وساقاتهم انفتلت * انفشلوا وانخذلوا * وطلبوا الفرار ليلا يقتلوا * ويظنون ان ملكهم قد انهزم * وان جمعهم قد انخرم * فيفرون من وجه المعترك * وتنقل النجدة ومعظم الحرك * فتخل الساقة باختلالهم * ويفشل الجيش لانفشالهم * وفي ذلك من الفساد * ما لا يخفى على من عرف مواقف الطراد * وهكذا اتفق لابي الحسن المريني عند لقائه للفنش الطاغية * فكانت عليه المفسدة الناكية * وكيفية ذلك ان السلطان ابا الحسن لما اخذ تلمسان * واستوى على هذه الاوطان * وملك المغربين الاوسط والاقصى * وبلغ منها الغاية واستقصى * اخذ في الجواز الى الاندلس غازيا * يريد

ان يكون للاسلام حاميا * بعد ان فسد ملبد الطاغية النصراني واخذ ما كان له في البحر من الطرايد والشواني * وشرع في الجواز من غيرتوان * فجوز ما اعد من الاعداد * وما ولف من الاحشاد والامداد * ونزل بظاهر المدينة الخضراء وارهب بجموعه الطاغية وجميع الاعداء * وذلك ما ينيف على ستين الفا من الابطال * والصناديد والحماة من الرماة والرجال * ثم زحف الى بلد طريف * لما جاء به من التليد والطريف * فنزلها محاصرا لها * ولو شاء من يومه لدخلها * لاكنه أمسك عن دخولها للحين المتاح * وراى ان الابقاء عليها من السداد والصلاح * واقام عليها مدة الى ان اقبل الفنش الطاغية * بمن معه من الكفرة الباغية * ولما اتى النصراني للقائه * بمن معه من الشرك واوليائه * قصد ابو الحسن اليه * لما راى انه عول عليه * فعند ما تصافت الصفوف * وتقابلت الالوف * واقبلت نشاة الحرب للزحوف * والتحم القتال * وتقدمت الابطال * واشتد الحرب * وتوالى الطعن والضرب * نظر ابو الحسن الى الطاغية متحيرا عن مواجهته * متنكبا عن جهته * يطلب جانبا من جوانبه * ليجد فرصة في مناكبه * فانتقل ابو الحسن اليه * لما قدر من المحن عليه * وكان انتقاله اليه بسرعة * يريد الهجوم عليه في مرة واحدة وشدة دفعة * فرءاه المقاتلون اصحابه قد انتقل بعلامته وساقاته * يريد الفنش وملاقاته * فظنوا انه انهزم * وان قلب عسكره قد انخرم * فانكسرت الميمنة والميسرة * وكانت عليه تلك الهزيمة المنكرة * التي انتكس لها الاسلام * وفرحت لها عباد الاصنام * وذلك بسبب انفتاله * وقلة ثباته في قلبه وابطاله * ءال امره الى الهلاك * وتشبكت في وجهه الاشراك * فاياك يا بني والانفتال * عند الملاقات في القتال * فان ذلك سبب الانفشال * وقد اخبرتك بهذا المثال * يا بني واذا قربت من عدوك فلا تعجل عليه بالحملة * ولتاخذ في أمرك بالتاني والمهلة * فانه لا بد لكل دفعة من رجعة * ولكل كبوة من رفعة * وليكن انتهاضك الى عدوك زحفا * فانك تسرديه خوفا ورجفا * فان ابطالك تقاتل بين يديك * معتمدة في قتالها عليك *

فان انهزم العدو وفر امامك * ونلت من هزيمته مرامك * فلتبادر من فورك اليه * ولا تمهل في مسيرك عليه * واتكن خلفك محاتك واثقالك * واسبابك واموالك * ولتصل في اثرة مسيرك في ليلك ونهارك * حتى تنال من عدوك غاية اختيارك * فانك ان بادرته اخذت امواله * وحويت اثقاله * وقتلت حماته وابطاله * وربما قعد بالعدو جواده * وخانته اجواده * اوكبا حصانه اوعثر * اودهش وتعذر * فتظفر بعدوك من غير تجديد طلب * ولا تكرير تعب * وان نجا العدو براسه * وفر بنفسه * ثم وصل الى امنه وحصنه * وحضرته وكنه * فان كنت في اتباعه عازما * وفي طلبه حازما * فيرجى لك ان تاخذه في بلده الذي لجا اليه * وحصنه الذي عول عليه * لانه لا يصل الا في جهد وضعف * وزلزل ورجف * منقطعا عن حماته * منفردا من انصاره وولاته * فيسهل لك اخذه من غير تطويل * ويتيسر لك الاستيلاء عليه عن تعجيل * يا بني وان كان الامر عليك لا اليك * وتفرق جيشك من بين يديك * ولا ترتجي له خبرا ولا عودة * ولا عطفة ولا نجدة * ولم يبق عليه احد من حماتك * ولا من قوادك ولا من انصارك ولا اجنادك * فحينئذ تحتاج الى جوادك الذي اعددته * والى وزيرك الذي تخيرته واستحسنته * فتنفرد بوزيرك * المخصوص بتدبيرك * المشاور في قليلك وكثيرك * فتقصد معه الى معقلك الذي اعددته لحصارك * واستخلصته ملجئا اليك ولانصارك * فاذا استقررت في حصنك * الذي هو موضع امنك * ومنشا سلطانك * وقاعدة بنيانك * فتحيل على عدوك بانواع الحيل * وضروب المكايد التي تبلغ بها الامل * وتاخذ في مرافعته من حصارك * ولا تغفل عنه في ليلك ولا في نهارك * ولا تكل امر معقلك الى احد من خدامك * ولتباشره بنفسك في كل ايامك * فاذا كنت يا بني بهذه المثابة في الاجتهاد * فلا يتصل منك العدو بمراد * القسم الثاني من الشجاعة ما لا يصحبه العقل دون الراي * وهو ان يكون الملك عاقلا في نفسه * يتظاهر في احواله دهقانا * غير طالب فتنة *

ولا جالب لحنة * يشتغل بآخرته * ويغفل عن رعيته * ولا ينظر في امر جنك * ولا في شان من دخل في عهك * ويرى انه من زهدك لا يضر احدا من الاعداء * ولا تصله يد الاعتداء * حتى اذا نزل به امر * او ساءه من عدو مكر * اظهر حينيذ شجاعته * وابدا براعته * وذلك حين لا ينفعه اظهارها * ولا يستحر له نارها * ولا يغنيه استحضارها * فهذا يا بني شجاعته غير محمودة * ومن قلة النجابة معدودة * لانها شجاعة عن الراي قاصرة * فهي مذمومة بالنسبة الى الدنيا والاخرة * * القسم الثالث * ان تكون شجاعته غير مفرطة * بل بين ذلك متوسطة * غير انها يصاحبها الراي المصيب * وينتفع بها مع الراي في الموقف الصعيب * فهذا يا بني شجاعة محمودة الاثر * جميلة السير * وان كان الذي قبله اشجع منه فهما لاجل الراي يقصران عنه فان الشجاعة المتوسطة اذا صحبها الراي * لا يكون صاحبها الا ناجح السعي * لانه يحاول برايه ما لا يحاول بقدرته ولا بشجاعته * وينتفع بنفسه ان التجا الى براعته * فبرايه يقصر عن الحروب * ويبلغ غاية المرغوب * لانه يحاول في دفع المكاره * ويلاقي ملاقات الاسد الشاره * فهذا يا بني اذا حل به كرب * او دهمه من عدو خطب * لا يرجف له قلب * ولا يداخله رعب * هذا وان لم يبلغ في شجاعته الغاية * فهو في تدبيره في غاية النجابة والكفاية * كصاحب القسم الاول الذي قدمناه * وبالشجاعة والعقل ذكرناه * فمثل هذا يا بني اذا كان الامر عليه * وجد من رايه ما يرجع اليه * فهذا احسن حال من الذي قبله * وان لم يكن في الشجاعة مثله * القسم الرابع * من الشجاعة وهي التي لا يصحبها عقل ولا راي * فهذا يا بني شجاعته مذمومة * وبالجهالة موسومة * وهي في الحقيقة هور * والعمل بها خطر لانه اذا كان حرب لم يتمالك ان ينغمس في القتال * ويلجج بهوره في معمعة الابطال * من غير راي ولا تدبير * ولا نظر في الامور ولا تقدير * فمثل هذا يا بني اوله للهلك * وءاخره لزوال الملك *

* القاعدة الثانية وهي قاعدة الكرم *

والملك بالنسبة اليها على اربعة اقسام * تنقسم امورها على الدوام *
* القسم الاول * اعلم يا بني انه ينبغي للملك ان يكون كرمه متوسطا * لا مقترا ولا مفرطا * يا بني ليكن كرمك على نفسك ورعيتك من غير تبذير * ولا اسراف في التقدير * فان ذلك هو الكرم المحمود * الذي يستعمله اهل الديانة والفضل والجود * لانك يا بني اذا كنت كريما تحبك النفوس * وتميل اليك القلوب وتخضع لك الرؤوس * وفي الحديث جبلت القلوب على حب من احسن اليها * وبغض من اساء اليها * والاحسان املك شيء للانسان * والكرم من الشجاعة والشجاعة من الكرم * وبصفتيهما يتصف كل فرد علم * كما ان البخل من الجبانة والجبانة من البخل * وبصفتيهما يعرف كل لئيم ونذل * وكل واحد من هاتين الصفتين يرجع الى اصل * يحكم به عليهما حكم الفصل * وذلك ان الشجاع يجود بنفسه في حاله * فاحرى ان يجود بماله * والبخيل يبخل بماله ولبعده * فاحرى ان يبخل بنفسه * فتامل هذا المثال * يظهر لك المقال * يا بني فمن كان كريما شجاعا * كان محبوبا مطاعا * يجد من يعضك في المهمات والحروب * ويفرج عنه نوازل الكروب * ويفديه بنفسه * ويوددونه حلول رمسه * يا بني واذا كان الملك شجاعا بخيلا * كان في شجاعته ذليلا * يسلمه قومه في المواقف * ولا يساعده احد في النزاحف * وذلك لسوء فعله * وشدة بخله * ومثله لا يعد من الشجعان * بل يعد من اهل الحسد والهذيان * فاذا اشتهر الملك بمكارم الاخلاق * هرع له الناس من جميع الافاق * وكثرت له المادة من انصاره * وتحلى بالمحامد في امصاره * وتحدث به في غير امالمه واقطاره * وتوفر جمله * وعظم محله * وقل معانده * وكثر مساعده * وانقهر حاسده * ورهبت اوطانه * وتشامخ سلطانه * لانه يتحلى بصفة من صفات الباري * فلا يجاريه في سلطانه مجاري * فهذا يا بني غاية الكرم المحمود * الذي يتصف به المتحلي بالجود * القسم الثاني * وهو ان يكون الملك كريما

على رعيته * دون نفسه وخاصته واهل بيته * فهذا كرم غير محمود * ولا هو من الجود * لانه يقتر على نفسه واهله * ويرى انه من جميل فعله * اللهم إلّا ان يكون ذلك ايثارا على اهل الحاجة * فاقتصاره على نفسه ليس بسماجة * فهذه صفة اهل الجود * الذين مثالهم قليل في الوجود * قال الله تعالى في مثل هولاء ويوثرون على انفسهم ولوكان بهم خصاصة اي جوع فهذا يا بني اذا كان بهذه المثابة * ففيه اعظم اجرواصابة *

* القسم الثالث * ان يكون الملك كريما على نفسه واهله دون رعيته * فهذا الكرم يا بني غيرمحمود * والمتصف به متصف بصفة الحسود * فان هذا الكرم يحمله على اخذ مال الرعية * وجريانه على غير السبيل السوية * فهوينفق في لذات نفسه الاموال * ولا يوثر رعيته بافضال * ولا يواسي ممن تعلق به من الابطال * فهذا مسرف في السلاطين * والله لا يحب المسرفين * فهذا يا بني ياخذ من الضعيف والقوي * ولا يبالي بفقيرولا ملي * فهذا يا بني اذا احتاج الى المال فلا يجده من اين * فان اسرافه قد افضى به الى الحين * فاياك يا بني والجري على هذا المثال * فانه سبب الهلاك والزوال القسم الرابع * ان يكون ضد الاول لا يتكرم إلّا على نفسه ولا يتكرم على خاصته ولا رعيته * بل يحتكر المال بكليته * فهذا يا بني لا يعد من الكرام * ولا ينتظم في هذا النظام * ومثل هذا لا يترك شيئا للرعية * ولا يجري على السبيل السوية * بل ياخذ المال من مستحق * وغير مستحق * وينفق ذلك في المغاني * والملاهي والمباني * فلا يجد ما يصادر به دنياه * ولا ما يتلقى به اخراه * ويرى انه مع ذلك كريم * وهو في الحقيقة مسرف لئيم * ولا كرم له على نفسه ولا على خاصته ولا على رعيته * وهذا من سوء فعله وطويته * فاياك يا بني والتحلي بهذه الصفات * فانها جلبة للآفات *

* القاعدة الثانية وهي قاعدة الحلم *

وفي الحلم من الاوصاف المحمودة * والاحاديث المسنودة * ما لا يحصى

كثرة * ولا يستقصى حصرة * وهو بالنسبة الى الملك على اربعة اقسام *
* القسم الاول * ان يكون الملك حليما على خاصته ورعيته *
يعاملهم بحسن نيته * يحلم عنهم في صغار الجرايم * ويقتص منهم في
العظايم * فهذا ملك غالب عقله على هواه * فايق فضله على سواه * فهذا
يا بني هو المحبوب عند الناس * الكثير الحلم والايناس * يحبه الضعيف
على حلمه * وصفحه عن صغير جرمه * فرعيته مامونة الغائلة * لحسن
سيرته الفاضلة * فوزراوه وحجابه وكتابه لحلمه عند الغضب آمنون *
وبخدمته وقربه سالمون * لمجاوزته عن زلاتهم * وصفحه عن
هفواتهم * فهذا حلم محمود * ينتفع به صاحبه في الوجود * والحلم وصف
من اوصاف الباري تعلى * والمتصف به محمود في الاخرة وفي الاولى *
* القسم الثاني * ان يكون الملك حليما على الرعية دون الخاصة *
لا يواخذ الّا خاصته خاصة * فمن عمل من الخاصة ذنبا يستوجب عليه
العقوبة عاقبه * ومن عمل من الرعية عملا فاحشا يستوجب العقوبة
ترك مطالبه * بل يحلم عنه ويصفح * ويميل الى مسالمته
فضلا منه ويجنح * لان ذنب الرعية مغفور * والملك الحليم مشكور * ولا
ياخذهم بزلاتهم * ويصفح عن هفواتهم * ولا يعاقبهم لضعفهم * وقلة قدرتهم
وخوفهم * وضعف عقولهم * وحقارتهم وخمولهم * ولاختلاف طبايعهم *
ولقلة وقايعهم * الّا ان الخاصة ينتقم منهم * ولا يعفو عنهم * يرى ان
ذلك زجرا لهم وردعا * وكفا عن العامة وقمعا * ليلا يتاذى الضعيف *
ويقع من اهل الجاه منهم التخويف * وهذا يا بني حلم غير محمود * منكور
في الوجود * لان من العدل المساوات في الاحكام * بين الخاص والعام *
بل الخاصة اولى بالحلم في صغار الجرايم من العامة * وفي الكباير لا يعفى
عن الخاصة ويحلم عن كباير العامة * فاياك ان تعفو عن ذنب الخاصة
الا عن مستحق العفو * القسم الثالث * ان يحلم الملك
عن الخاصة لاقرباء دون العامة * فهذا عين الافة الطامة * اعلم يا
بني ان الخاصة اذا حلم عنها * تادت الرعية منها * وتلاشت احوالها

بالكلية * وتصير الرعايا منهم في اعظم بلية * لانه يا بني من العدل في الحلم المساوات بين القوي والضعيف * والمشروف والشريف * وفي العقوبة كذلك * وهذا احسن ما يسلك السالك * فان كان بخلاف هذا فهو الظلم الصراح * الذي لا يرجى صاحبه فيه نجاح * ولا يرتضي به ذو عقل ولا بباح * فاعلمه * القسم الرابع * ان يكون حلمه مضطربا احيانا فاحيانا * تارة وتارة * لا يقف عند حد في اقواله وافعاله * ولا يامن احد من اغتياله * فهذا طبع المجانين * وحلم بغير تأمين * فهذا يا بني حلمه مذموم ولو نسب له الحلم لانه لا يامن احد من حلمه * ولا من غايلته وسمه * ولا ينظر لحربه ولا لسلمه * فالعامة تخاف نكاله * والخاصة لا تامن اغتياله *

* القاعدة الرابعة وهي قاعدة العفو *

اعلم يا بني ان العفو وصف محمود * وفضل يتصف به اهل الجود وبالفضل الوجود * لا سيما في الملوك عند القدرة * فانه من احمد الخصال في الشهرة * والملك بالنسبة اليه على اربعة اقسام * القسم الاول * ان يعفو الملك عمن يستحق العفو ويعاقب من يستحق العقوبة ويجري في ذلك على حسب الاوقات * والاشخاص والطبقات * فرب شخص يستحق العقوبة فيعفى عنه * وءاخر لا بترك ويستنقص منه * وذلك لمصلحة دنيوية لا لامور اخروية * يا بني ورب شخص لو عوقب لادت العقوبة الى الفساد * وءاخر لو ترك لخرق المعتاد * وافضت الحال الى المشاجرة والعناد * واعلم يا بني انه لا يسع العفو عن هتك الحرم * وافشاء السر المكتتم * والقدح في الملك * فيما يخل بنظم السلك * فمن اشتهر من هذه الثلاثة اصناف * بالاخذ بهذه الاوصاف * فجزاؤه القتل بلا خلاف * يا بني لا تبق على مثل هذا الا ان يكون في الابقاء عليه مصلحة عامة * تعود عليك وعلى رعيتك بالمنفعة التامة * فابقاؤك اياه اولى * وعفوك عنه اجدر واحرى * فان الملك اذا عفى للمصلحة العامة * فقد اخذ الفتنة الطامة * وشكر على عفته * وحسن ذلك من سنته * وهذا العفو محمود * وصنفه من الكرم والجود *

يا بني والعفو عند القدرة في الخلافة اصل * وفيه مروءة وفضل * وكمال وعقل * تصلح من احوالك * ما لا تصلح بمالك * وتدبر بالعفو ما لا تدبر بالسياسة * وتصلح به ما لا تصلح بالرياسة * فانه قد راينا اصحاب الجرايم العظام * التي لا يجب فيها الا الحمام * يجلبهم العفو الى الاذعان * ويقودهم ما تعودوه من الامان * فلو بذلت لهم الاموال * واعددت لهم الحماة والابطال * لما قدرت عليهم * ولا توصلت اليهم * لان العفو من تجارات الملوك النافعة * وخير ما يجعل الانسان صنايعه * لان من عفى عفي عنه * ومن كفى كفي همه وحزنه * يا بني لا يترك ملك لولده اسنى من العفو * والصدق والصفو * ولا احسن منه ولا اجمل * ولا اسنى ولا اكمل * يا بني من افشى سرك سرا * فعاقبه سرا * ومن افشى سرك جهرا * فعاقبه جهرا * يا بني اياك ان تقتل وزراءك الا بسبب ظاهر للوجود * فان قتل الوزراء بغير جريمة ليس بمحمود * لان الملك اذا قتل وزراءه اذن ملكه بالخراب * وبغض فيه الاقرباء والاحباب * يا بني اذا قتلت وزيرك على ادنى الاسباب * كان فعلك غير صواب * ويخشى عليك ما يتطرق لك من هذا الباب * فلا تامن غائلتك الوزراء ولا انت تامن شرهم على الولاء * فان في ذلك فساد النظام * ومذمة عند الخاص والعام * القسم الثاني * ان يعفو الملك عن من يستحق العفو ومن لا يستحق العفو * فهذا عفو غير محمود * لان من الجرايم جريمة لا يحسن العفو فيها * والعقاب اجل لئلا فيها * يا بني ومثال ذلك فشاء الاسرار * التي لا يقال فيها لاحد من عثار * وكذلك هتك الاستار * لان ذلك في جنابك هضم * وقلة قدرة وعجز ووصم * وذلك مما يودي الى جور الوزراء * ومد اليد من الحجاب والكبراء * وفساد ظاهر للبادي والحاضر * فاعلم ذلك يا بني وافهمه * وتدبره وخذ به وتعلمه * القسم الثالث * ان يكون العفو من الملك متوسطا * لا تاركا للعقوبة ولا مفرطا * لا تنتهي عقوبته الى مقدار الجناية * ولا يتوصل فيها الى الغاية * بل يعاقب من وجب عليه القتل بالضرب * ولا يبالغ في الانتهاك والنكب *

ويرى ان ذلك عفو * والعمل به مورد صفو * فيرى ان ضربه ابقاءه على نفسه * وهو عفو منه اذ لم يلحقه بر مسد * فهذا يا بني عفو غير محمود * ولا من صفات الجود * لان يا بني من استحق القتل فجزاوه القتل * ومن استحق الضرب فجزاوه الضرب وهو الاصل * فاعلم ما شرحت لك تسعد * واسلك فيه احسن مسلك ترشد * القسم الرابع * ان يعفو الملك على من لا يستحق العفو * وذلك كمن يهين البار * ويكرم العاق * او من افشا السر وهتك الحرمة * ونقض العهد والذمة * ثم عفا عنه فهذا يا بني عفو غير محمود * ولابقاء على هذا ليس من الجود * او كمن يعاقب حاجبه او كاتبه في الكلمة تصدر عنه غلطا * او تبدوا منه هفوة او سقطا * فيعاقبه بالقتل * فهذا يا بني خلاف للاصل * فان عفو هذا مذموم وعقوبته مذمومة * وخلافته بالحماقة موسومة * الّا ان كان في العفو مصلحة عامة كما قلناه * فيحمد عفوه كما قررناه * فاعلم ذلك يا بني * والله يرشدك الى ذلك * ويجريك على احسن المسالك * بمنه لا رب سواه * ولا معبود حاشاه * واعلم يا بني ان السياسة بها قوام الملك * وهي سبب للنجاة من مواقع الهلك * فاحفظ يا بني ما شرحنا لك فيها لتصلح به الدولة * وتحسم به كل علة * واحتفظ بوصيتي تهديك الى سبل الرشاد * وتنال بها السعادة بين العباد *

* الباب الرابع *
* في الفراسة وهي خاتمة السياسة *

اعلم يا بني ان الفراسة قوة نفسانية * واسرار ربانية * يويد الله بها النفوس * حتى ينقلب بها المعدوم كالمحسوس * ويطلع في مرءاتها كل خفي * حتى كان كالامر جلي * يروى ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل عليه ولده عبد الله وهو منكسر الطرف بسبب امراة لقيته فجاة وكان غض بصره من حين رايتها الى ان دخل على أبيه عمر رضي الله عنهما فقال له عمر رضي الله عنه ايدخل علي عبد الله ابن عمر واثر الزنا في عينيه فقال عبد الله لابيه اوحي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال لا وانما هي فراسة المومن * فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اتقوا فراسة المومن فانه ينظر بنور الله وينبغي ان تكون فراستك في وزيرك وكاتبك وجلسائك * وقاضيك ومفتيك وصاحب شرطتك وعمالك * وصاحب اشغالك * وقوادك وصاحب اجنادك * وعدوك والرسل المتوجهة من قبلك الى الملوك امثالك * والكتب الواردة عليك من العدو وغيره فاما فراستك في وزيرك اعلم يا بني انه ينبغي لك ان تتفرس في وزيرك * الذي اتخذته لرايك وتدبيرك * وشاركته في قليلك وكثيرك * وتنظر الى اقواله وافعاله * وكافة احواله * فاذا تكلم في المسايل المرة بعد المرة * فيما لا ينفع الخلافة ولا يعود عليها بمسرة * مثل اذا تعين لك عند احد مال * تعرض لك في تركه في نفس الحال * او الح عليك في الكلام عليه او اظهر لك وجوها من الاعتذارات بضعف المطلوب واقلاله * وقلة وجدانه ورقة حاله * فتعلم انه اراد منفعة نفسه فازجره يا بني عن مقاله * ومره الا يعود لمثاله * فان تمادى عليك بالالحاح وجد في ذلك * فتعلم انه قد رشي على مالك * وان كف بعد ان زجرته * ولم يعد الى الكلام الذي عنه اخرته * فتعلم ان كلامه عن صحة من غير غرض * ولا داعية تدعوه الى اخذ عرض * يا بني وان كان لك خديم ناصح في خدمتك * موف لجميع حقوقك وحرمتك * ويريد وزيرك ان يوقع به عندك * ويغير خاطرك عليه ويفسد نيتك وقصدك * فخذ معه في ذم ذلك الخديم * وقل له ما ليس فيه من حادث وقديم * فان رايته وافقك على ذلك * وسلك في ذمه كل المسالك * ثم اتى بما هو اشنع علمت ان وزيرك عدو لذلك الخديم * طالب نكبته بكل فعل ذميم * وان كلامه باطل * وحاله معه حايل * واذا كرر عليك المرة بعد المرة * وتمادى عليه بالذم والمضرة * فان كان قولا وتغافلت عنه ولم تنتهره * وتغافل هو ايضا ولم يذكره * ولا اعاد كلامه * ولا اكثر به اهتمامه * فتعلم ان الحق ما قال وزيرك * وانما هو نصيحك فيه ومشيرك * فابحث على ذلك واختبره * وتامله واعتبره * تجد ان شاء الله تعلى يا بني

لا تسمع كلام احد في احد من اول وهله * حتى تاخذه بحكم الفراسة على التفصيل والجملة * يا بني اذا اردت ان تتفرس في وزيرك هل هو كامل العقل * او ناقص العقل * فاذا رايت ان ادنى الامور يغضبه ويهمه ويكربه * وادنى الامور يرضيه * واقلها يسليه او يغضبه * فتعلم انه ناقص العقل وعقله اخف من ريشة في الميزان * ولا هو في عقله رجحان * فان كان لا يغضب الا من شدة الامور * ولا يكترث الا بامر مشهور * ويكون راضيا بما ياتيه منك * ويتحمله عنك * لاكنه يرى بوافر عقله انك انزلته تلك المنزلة الكريمة * واحللته محلا واردت به تعظيمه * فيقابل جميع ما يصدر عنك بالقبول * ويتلقاه بالسرور والمامول * الا فيما يضر بك فلا يوافق عليه * ولا يجنح بعقله اليه * فتعلم انه كامل العقل * وحيد الفضل * شديد المحبة في جنابك * متودد لك واخذ في جميع آرائك * يا بني اذا كان وزيرك كامل العقل * اخذا بشمايل الفضل * فتتفرس في حال انبساطه وانقباضه * وعلوه وانخفاضه * فان رايته في حال اقباله اليك مسرورا * مبسوطا طلق الوجه محبورا * فتعلم انه اتى اليك بمسرة سمعها في جنابك * او صدرت له عند بابك * فاختبره فان ابدا لك ذلك * فالمسرة في جنابك وان اخفاها فتعلم انها في جانبه منك * وان اقبل اليك على حالته المعتادة * فتعلم انه لم تتزايد عنك زيادة * وان اقبل اليك مطرق الراس * منغص غير طيب الانفاس * فانه سمع مقالة تسوءه في جانبك * من امر عدوك او ما يسوء جانبه من قبلك * فان اخبر بذلك واظهره * فتعلم ان ما سمع في جنابك غيره * وان كتم ذلك عنك * فتعلم ان ذلك صدر منك * يا بني اذا سمعت عن وزيرك سقطة في جانبك واردت اختبار حقها من باطلها * وهل صدرت منه كما سمعت من قائلها * ويظن وزيرك انك سمعتها عنه * فتفرس في وزيرك فان رايت منه زيادة في البشاشة * والخضوع والتذلل والهشاشة * وتلك خلاف عادته فان ذلك دليل على الريبة * وتحقيق لتلك السقطة المعيبة * فحقق ذلك من غير ارتياب * فانه لا

تخفى حالة المرتاب * وان لم ينتقل عن حالته المرتابة * ولا عن طريقته المعتادة * ولم يظهر في كلامه نقصان ولا زيادة * فتعلم انه بري مما قيل لك فيه * لان ظاهره دل على ما يخفيه * يا بني واذا اردت استخراج ما في ضمير وزيرك العاقل فخذه بالرفق والتلطف * والايناس والتالف * واتِه من الباب الذي يوافقه ويحبه حتى يستخرج ما في ضميره بحسن السياسة * وحكم الرياسة * يا بني واما من كان من وزرائك ناقص العقل * فلا تمهله بالقول * واكثر عليه من الكلام * فانه من ضعف عقله لا يقدر على الاكتتام * فيخرج لك ما في ضميره * من قليل الامر وكثيره * يا بني واما جلساؤك فينبغي لك ان تتفرس في جلسائك وتختبرهم * وتنظر في طباعهم لتعتبرهم * من هو المحب في جنابك * اللايذ ببابك * المسرع لقضاء ارائك * او من هو على غير ذلك * واختبر المفشي منهم لاسرارك * والحافظ على اخبارك * فمن رايته كثير الكلام * شرهاً للاقدام * لا يتوقى المقام * لا يخفي شيئا من اسراره ولا من اسرار غيره ولا له في افشاء ذلك منفعة * فتعلم انه غير محافظ على سرك * فاحذره فانه كما لم يحافظ على سره فكذلك لا يحافظ على سرك وكذلك من هو متهم * فامره اعظم واهم * فان المتهم يختبر بمعرفته بالناس * وبتالفه وكثرة الجلاس * وان كان اقل كلاما في مجلسك * فلا تامنه على سر نفسك * لان معرفته بالناس تدعوه الى افشاء الاسرار * واذاعتها على وجه الاصرار * يا بني ومن رايته من جلسائك قليل الكلام * غير مخالط للانام * لا يجالس احدا * ولا يرى فيها مقصدا * ولا يتكلم الا في محل الكلام * ولا ياخذ الا فيما يجمع عليه الخاص والعام * وتعلم ان صمته اكثر من كلامه * وامساكه معرب عن جوابه * وعقله غالب عليه * وعارف بكلامه ما يئول اليه * فذلك مما يكتم الاسرار * وياخذ بفعل الاخيار * فاودعه جميع سرك * وما يقتضيه من خيرك وشرك * يا بني وان اردت ان تعرف من جلسائك من هو محب فيك * عامل على خدمتك وممتثل ما يخرج من فيك * وعلى جميع ما يرتضيك * او من هو

بخلاف ذلك * سالك في خدعك اشر المسالك * فتفرس في طباعهم * وانظر الى تملقهم واصطناعهم * واختبرهم اذا ورد عليك سرور على غفلة * واتاك بشير وارد بعجلة * وكيفية اخبارهم ان تنظر الى وجوههم في الحين * فتتبين منهم احوال المحبين وغير المحبين * فمن رايت وجهه متهللا داخله السرور * فتعلم انه محب بسرورك محبور * ومن رايته منقبض الوجه حين تنظر اليه * فتعلم من بغضه ما انطوى قلبه عليه * لان الانبساط والانقباض * يفيضان من القلب على الوجه فيدل على صاحبه انه بسرورك راض * فيبدوا ما في الباطن على الظاهر * وتطلع في وجهه البشاير * وتطلع انت من ذلك على السراير * وان ابدا لك غير المحب بشاشته * حين يظهر هشاشته * لان السرور يكسوا الوجه لطافة وحمرة * حتى يصير كانه جمرة * والحسد يكسوه غبرة * او كدرة او صفرة * وذلك لسماعه ما لا يريد * ولشدة تغيره وحقده لونه يسود ويزيد * يا بني واذا ورد عليك خبر غير سار * فان وجه المحب يعود منقبضا ظاهر الانكار * وربما ظهرت على وجه غير محبك امارة الاستبشار * فاعتبر المحب من غير المحب بهذين الاختبارين * يتبين لك ذلك في كل الاختبارين * يا بني ومن رايته يدخل عليك في كل يوم بمسرة * ويكثر ذلك منه المرة بعد المرة * فتعرف انه شديد المحبة في جنابك * منقطع بخدمتك الى بابك * يا بني واذا اردت اختبار جلسائك * وخاصتك واوليائك * هل هم متوافقون * بقلوبهم جميعا ام مختلفون * فتفرس فيهم اذا عرضت لاحدهم عندك حاجة وتكلموا فيها * وبادروا باجمعهم الى استخلاصها وتلافيها * علمت ان قلوبهم متوافقة * واحوالهم بينهم صالحة صادقة * وكذلك اذا اشار احد منهم براي وقفوا عليه * لا يتعدون عند ذلك حده * وذلك فيما يسر او يضر * او ينصح او يغر * فتعلم ان خواطرهم مجتمعة * وعلى الموافقة منطبعة * وان اختلفت آراؤهم * وتفرقت اهواؤهم * فتعلم ان العداوة بينهم قائمة * واحوالهم بينهم غير متلائمة * يا بني اذا رايت وزيرك محبا في الشكر والثناء عليه اكثر مما عليك * وميلان الناس اليه اكثر

مما اليك * فتعلم انه مفرط في اموركـ وامور مملكتك * غير ناصح لك في خدمتك * فان من يكون محبا في الشكر والثناء * ويرى ان ذلك من العلياء يقضي به الامر الى قضاء حوايج تضر بخلافتك * وتحط من انافتك * لان محبته في الثناء عليه * لا يرد في حاجة من قصد اليه * فيغيب عنه وجه الصواب * ويتسع خرقه من هذا الباب * ومن رايته محبا فيما يصلح عليك لا عليه * فهذا في الحقيقة يعود بالمنفعة اليك لا اليه * فتعلم انه محب لك وناصح * ووزير غير مفرط في امورك وصالح * يا بني واذا رايت وزيرك تكرهه الخاصة والجلساء * والقواد والاجناد والكبراء * ولا اخذ في جنابهم بذميمة فتفرس فيه فتعلم انهم انما كرهوه على نصيحتك * وتشديده عليهم في خدمتك * وفي اصرافهم فيما يعود نفعه اليك يا بني واذا رايت وزيرك الداني اليك محبوبا مع قلة ندى يده * في حين صدوره ومورده * مع انه لا يستخرج منك حقوقهم الواجبة * الحاضرة منها والغائبة * فتعلم انه مفرط في امورك كلها * مما وجبت عليه في الخدمة اقلها وجلها * فاذا كان على هذه الحالة فاختبر محبته لك تجدها مفضية لتضييع خدمتك * واما كاتب سرك اعلم يا بني انه ينبغي لك ان تتفرس في كاتب سرك * المباشر لمهم امرك * اذا كان فيه اربع خصال * فهو كامل على كل حال * وهي ان يكون صحيح المذهب قائلا بالحق * قليل الاخوة والاصحاب * ومن ذوي البيوت والاحساب * فانه يا بني اذا كان صحيح المذهب رفيع المنصب * فتفرس فيه فاذا رايته تكلم كلمة حق * ولم ينطق الا بالصدق * لا تاخذه في كلمة الحق لومة لائم فتعلم قوة نفسه في الصدق * وانه كلما يصدر منه فعن حق * واما كونه قائلا بالحق فلا يميل في شيء من اقواله الى الكذب * ولا يفضي به صحيح مذهبه الى شيء من الريب * فان صحة مذهبه تودي الى كلام الحق وقول الحق يوديه الى كتمان السر * فانه يخشى ان افشى السر ان يظهر عليه * فلا يدري ما يصير امره اليه * فيسئل عنه فيصدقه وصحة مذهبه تدعوه الى ان يقول الحق الذي لا بد منه *

فيعاقب عليه فيخاف من العقوبة فيكتم السر الذي اسر اليه * واما كونه قليل القرابة والاصحاب فلانه اذا كثرت قرابته لا بد ان يستخلص احدهم للكلام والاخبار ويودعه من اسراره * ما يامره باستتاره * فلا بد ان يفشي صديقه ذلك الذي اودعه * فلا بد لغيره ان يسمعه * واما كونه من ذوي السينات * فانه يحافظ على بيته في كل الحالات * مع ما قدمناه من صدق المقال * وصحة المذهب المانع من الاختلال * فيمنعه ذلك من افشاء الاسرار * والاخذ بالاستتار * يا بني واذا رايت كاتب سرك كثير الالفة للناس * طويل اللسان لا يرجع الى قياس * لا يتحفظ في كلامه * ولا يكف لسانه في جلوسه وقيامه * ويزخرف لك امورا يرى انه ينفعك بها * وهي مما تضر الغير بسببها * فهذا غير محافظ على دينه ومن لا يحافظ على دينه فلا يحافظ على سرك * فكيف تشاركه في امرك * يا بني واذا رايت وزيرك او جليسك يمدح كاتب سرك في الغيبة والحضور * ويظهر محبته للجلساء والجمهور * فتعلم ان كاتبك يذيع له الاسرار * ويفاوضه فيما يلقي اليه من الاخبار * يا بني واذا اردت ان تطلع على ما هو عليه كاتب سرك * من كتمان خيرك وشرك * فتحدث معه فيه بسر اهل بلدك الشرفاء والفقهاء والقضاة * والاشياخ والوجوه الثقاة * في كل واحد من هولاء المذكورين بما يخصه ويسر به * من احسان او ولاية او ما يسر السامع بسببه * فان اذاعته للاسرار * تدعوه الى الشراهية بالاستبشار * فيبادر اهل البلد بالتبشير * ويعرفهم بذلك على كل تقدير * ثم تبعث من يسئل في بلدك على ما اودعته من ذلك * وتجعله قد ظهر هنالك * فتعلم انه غير حافظ لسرك * وشره لاذاعة امرك * يا بني انظر ايضا فان كان لكاتب سرك اعداء وبلغه منهم اذاية * او اراد ان يقع بهم بلاء * فشاركه فيما يضر بهم * وعده بعقوبتهم وتاديبهم * فان شراهية البغضاء تدعوه الى الافشاء بذلك * لما يريد بهم من المهالك * ثم تجعل من يبحث ايضا عليه * هل اذاع سره المودوع اليه * فان اودع سرك لاحد لا بد ان يشتهر * ويتمادى وينتشر * فان الاسرار اذا انتقلت

فشت وبانت * وخرجت من حيث كانت * فان كتم ذلك فتعلم انه كاتم لسرك * وان افشاه فتعلم انه مظهر لامرك * ومن كتم مثل هذا فهو محافظ لاسرارك * غير مذيع لاخبارك * واما قضاتك اعلم يا بني انه اذا اردت اختبار قاضيك فتفرس فيه تفرسا سياسيا * واحكم على اختباره حكما رياسيا * وانظر الى احواله فان كان يميل الى خطة القضاء * ويعتني بها غاية الاعتناء * فتعلم انه رقيق الدين * وانه في احواله ليس بالمتين وعلامة ذلك يا بني اذا ندبته للقضاء المرة بعد المرة * وتظهر له بذلك وجوه المسرة * فانه لا بد ان يمتنع بالقول * وان كان مريدا للفعل * لانه اذا اظهر المحبة لها من اول وهلة * عثر عليه انه يريدها فلا تقدم مثله * فتكرر له القول وتزداد عليه ليانه * وتظهر له لديك مكانه * فانه لا يمتنع لك بالكلية * ويظهر لك ما فيه من طوية * ويبدوا على وجهه التهلل والسفور * ويميل الى الاذعان بعد النفور * وان كان يمتنع بالقول في الحال * ويتنمس على نيل الامال * فاذا وجدته على حالته الاولى * ولا اثرت فيه تلك الهيولى * فاعفه من القضاء * ولا تزعزعه الى تلك الخطة الا بعد الرضاء * فاذا رايته اصفر وجهه حين اعفيته من القضاء فتزداد يقينا بانه على القضاء حريص * نادم على الامتناع منه ولو وجد لصار له مثل القميص * يا بني وان كان يمتنع امتناعا كليا * ولا يريد عزلا ولا توليا * ولا يظهر فيه حرص على القضاء * ولا يتنمس بالرياء * فكلف عليه القضاء واجبره * واذا تاتى لك فاعنه وانصره * ثم بعد ذلك تفرس فيه تفرس الشهم النبيه فان رايته محبا في النساء والاولاد * وله من الذرية اعداد * فتعلم انه لا بد ان يميل في الحكم اما لغرض او لحمية * فيئول ذلك الى اخذ الرشا على الاحكام الشرعية * وان لم ياخذ الرشا ولم تكن له ذرية * ولا له في النساء غرض بالكلية * فتفرس فيه بان تمازحه * وتجالسه وتحسن اليه وتناصحه * حتى تراه قد مال اليك * وانبسط لديك * ثم اعرض عليه مسئلة تطلب منه فيها رخصة * وتريه كانها من مهمات امورك وان في قلبك منها غصة * فانه ربما تدعوه مجالستك

الى الرخصة في ذلك * فيفتيك فيها على غير مذهب مالك * فان سمح لك في مسئلتك * وجرى على وفق ميتك * فتعلم انه يسمح لغيرك * مثل ما سمح لك في امرك * فان تصمم عليك * ولم يسمح بها بالكلية اليك * فتفرس فيه أيضا في حديثه وصمته * وفي مشيته وجلوسه وسمته * فان كان قبل القضاء يعرف بالصمت في لسانه * ثم بعد ما قضيته ظهر لك منه انطلاق لسانه مما لم يكن من شانه * واظهر البشاشة والشكر * والثناء والذكر * فتعلم انه محب في القضاء * وانه متصنع في الرياء * وان كان طليق اللسان ثم التزم الصمت بعد القضاء * واظهر السكون في جملة الاشياء * فتعلم انه متصنع * وانه بالناموس متلفع * ثم تختبره في مشيته فان زاد على حالته المعتادة * وحدث منه فيه شيء من نقص او زيادة * فتعرف انه متصنع في حاله * متنمس في افعاله * يا بني وان نظرت لتلك الزيادة * ورايتها خرجت عن العادة * وهي بسرعة وبشاشة * ومبادرة وهشاشة * فتعرف انه فرح بالقضاء واغتبط به * ونال منه غاية مطلبه * وتلك منه خدمة لاجل ولايتك اياه * وتصرف بين يديك لترضاه * وان نقص من ذلك فتعلم انه يتقعد عليك * ويظهر الناموس اليك * ويتردد بين يديك * لتستحسن حاله * ولتغرك احواله * وتظنه على شيء في اموره * فلا تعتبره في شيء ولا يغرك بغروره * يا بني وان رايته غير محب في الاولاد * ولا مهتم بالنساء ولا له فيهن من مراد * ولم تؤثر عنك مجالستك * ولا اكرامك له ولا مهازجتك * ولا تصنع في مشيه ولا جلوسه ولا اظهر شيئا زائدا على فعله من ناموسه * ولا تبدل عن احواله * ولا تطور في اقواله وافعاله * فذلك نعم القاضي * وخير من يقع بحكمه التراضي * يا بني وكذا يكون تفرسك في مفتيك وغيره في بلدك ممن تريد معرفة خبره وخبره * والبحث على سره ويسره * واما قوادك يا بني فتكون فراستك فيهم بالاختبار * وزرعك الرشا عليهم من غير استشعار * فاذا رايتهم قبلوا الرشا * وعلقت ادلاءهم منه برشا * فتعلم انهم اضاعوا حقك * وخرقوا رتقك * فلا تولهم قيادة ابدا * وان وليتهم فاعزلهم تكن رشدا *

اما اخذهم الرشا من الرعية * على حق الله عزوجل فذلك اعظم بلية * وما يضر الرعية افضى الى فساد الملك بالكلية * لان فساد الرعية يخرب الاوطان * ويقل الجبايا ويذهب بالعمران * واما اخذهم الرشا على حقك فانهم اذا اخذوا الرشا على حقك فسدت نياتهم * وخافوا منك ان تطلع عليهم فتتبدل طوياتهم * فيحملهم ذلك على ما يفسد عليك فلا تأمن لهم غايلة غدر * ولا خاينة مكر * فان حاملهم على اخذها من الرعية يحملهم على الغدر وخبث الطوية * فيضيع بمثل هولاء مالك وان سلموا من اخذ الرشا في حق الله وحقك * فتعلم انهم على وفقك وصدقك * فابق من وليت منهم على قيادته * ومن لم توله فوله لاجل امانته * والتقايد من هولاء محمود * وبه تنال في خلافتك المقصود * كما اشرنا لذلك في باب السياسة واما جيشك يا بني واجنادك * وانصارك وقوادك * فاختبرهم بان تنظر في احوالهم * وتتوسم في فعالهم * فان رايتهم مشتغلين بالبناء * والزينة واللهو واللعب والنساء * فتعلم يا بني ان هولاء غير معول عليهم في الشدايد * ولا في المواقف والمشاهد * وان رايتهم اخذين في التفاخر بالخيل والعدة * والتداريع وءالة الحرب والنجدة * فتعلم يا بني ان هولاء يعول عليهم في الشدايد * وبهم في المواقف تزول المناكد * واذا كانت عادتهم في السلم اشتغالهم بالعدة وءالة الحرب فتفرس فيهم ايضا عند اللقاء فان رايتهم عند القرب من العدو يزيدون نشاطا وشجاعة * واجتهادا وبراعة * وحرصا على الملاقات وكلمتهم خاصة وعامة كلمة واحدة متفقة فيرجى لك الظفر * وعلى عدوك النصر * وان رايتهم عند القرب من اللقاء يقل نشاطهم * ويكثر اختلافهم * فمنهم من يحب اللقاء ومنهم من يكرهه فحاولهم واجتهد على ان ترد كلمتهم متفقة بالاعطاء والاحسان والكلام الجميل * واعانة القوي وحمل الكليل * ولا تلاق بهولاء إلا في موضع تملك فيه امر نفسك * وتسكن فيه قلوب جيشك * وتقوي نفوسهم باسناد ظهورهم اليه * واعتمادهم في الكر والفر عليه * وان لم تجد موضعا في الحال تركن اليه * وتعول في تلك الاماكن عليه *

ورايت لعدوك الطايلة باتفاق كلمتهم واختلاف جيشك فاعمل على ما ذكرناه في باب السياسة وذلك اتخاذ المعقل كما فعل الاركن الذي قدمناه في باب السياسة ترشد ان شآء الله تعلى واما صاحب اشغالك المتقدم الى اعمالك * الناظر على كافة عمالك * فانك يا بني تختبره وتتفرس فيه * حتى يظهر لك من حاله ما يخفيه * اعلم يا بني انه اذا رايت صاحب اشغالك محبوبا عند وزيرك وخاصتك واهل رايك مشكور الحالة عندهم * ينالون منه قصدهم * فتعلم انه مضيع لامورك بالجملة * ومفرط في اموالك وتلك اقبح فعلة * واذا رايته مبغوضا عند الوزرآء والقواد * والعمال والاجناد * فتعلم ان بغضهم له انما هو على استخراج حقوقك ومنافعك منهم * لان صاحب الاشغال اذا كان مبغوضا عند الخاص والعام * دل على منصحته في الخدام * وانه يخاف من الرشا من الناس * ولا يامن ان يزرع عليه الاعدآء ممن يوقع به اعظم الباس او ينصب له شركا من المكيدة * يجلب بها حينه وتنكيله * ثم انك تختبره يا بني في ملبسه ومركبه * وماكله ومشربه * وحاله ومكسبه * فان زاد زيادة مفرطة * فتعلم ان ذلك من عين مالك احتواه والتقطه * وان لم يظهر عليه الا قدر منفعته * والناس يتشاوون فيه ليصلون الى نكبته * فتعلم انه نقي الجانب * قليل المعايب * وان كان مفرطا في اشغالك * فهو لا يخونك في مالك * وعلى الله توكلك واليه مئالك * واما ولاتك فاعلم يا بني انك تختبرهم * وتتفرس فيهم وتعتبرهم * فاذا رايت واليك ياخذ اموال الناس ويتقرب بها اليك * ويرى ان ذلك نصيحة اليك * ومسرة يدخلها عليك * ليعظم مكانه عندك * ويرى ان في ذلك بغيتك وقصدك * فهذا شر الولاة واردأهم * واظلمهم والامهم واعداهم * فلا تقربه لخدمتك * ولا تحليه بحلية حرمتك * فانه ينقص مالك ويضر برعيتك * ويفسد عليك دينك وحسن نيتك * وكما انه ياخذ اموال الناس * ويتركهم للافلاس * وياتي بها اليه واليك * فكذلك ياخذ مالك ويحتوم عليك * وياخذ جبرك ويعطيه لغيرك * هذا ان اخذ اموال الناس واتى

بها اليك * وان لم يأتك بشيء واظهر الناموس لديك * واظهر لك تصنعا بالديانة * والتحفظ والامانة * فاختبره يا بني بان تزرع عليه الرشا * فان اخذها فتعلم انه ياخذ مالك * وان لم ياخذ شيئا من ذلك * فتفقد حاله في داره * وابعث من يتجسس على اخباره * فان زادت حاله * وكثر ماله * وظهرت عليه آثار النعمة الشاملة * والرفاهية الكاملة * ولم تكن تعرف له قبل * فتعلم انه من غير مالك مع انه لم تقع به شكية * ولا تأذت منه رعية * فان تشكت به الرعية * فهو عين الاذية * واعلم يا بني ان حامل المال كحامل المسك لا يخفى على احد وان اخفاه حامله * وان اختبرت حاله * وعلمت فقره او ماله * ولم تتزايد عليه حال بالكلية * ولا تظلم احدا من الرعية * فاختبره المرة بعد المرة * فان لم تصدر منه شكاية ولا مضرة * فذلك هو الوالي * لاخذ بيا يواتي ويوالي * واما حكامك يا بني فانك تتفرس فيهم * وتقع على مخافيهم * اذا رايت حاكمك تبغضه الاخيار * وتحبه الاشرار * فتعلم انه على غير استقامة * وانه آخذ للرشا على الظلامة * وعلامة ذلك ان بغض الاخيار له انما هو لما احدثه من المظالم * وفعله من اباحة المحارم * وما اتى به من الحوادث الفاسدة * والمناكر البادية بالمشاهدة * فهو يكرههم لعثورهم على منكره * وهم يكرهونه على ما راوا من مخبره * واما محبة الاشرار له وحبه اليهم * فان فائدته منهم تحمله على المواسات عليهم * فهم يحبونه لمواساته عليهم في المفاسد * ويحبهم لما ينال منهم من الفوايد * فان الناس لا يالفون الّا مَن وافق طباعهم * وينافرون مَن نافرهم وطلب اقماعهم * فتكرهه الاخيار لمنافرته لفعل الخير * وتوافقه الاشرار لموافقته اليهم * ولمواساته عليهم * ولذلك يقذف في الاخيار * ويواسي على الاشرار * وان كان بخلاف ذلك من قمع الاشرار * وتوقير الاخيار * فتعلم انه تابع للحق * متحل بالصدق * يا بني ثم اختبر حاله فان تزايد عليه شيء لم يعرف له قبل ولا بنيه الحكومة ولا كان عند اول بدايته ذا مال واثاث وذخاير * وغير ذلك فانه يرشي في الباطن والظاهر * واذا لم يتزايد

عليه حال * ولا ءاثار مال * فهو الحاكم المحمود * الذي تفضل بالوجود *
وكذلك تكون يا بني فراستك في صاحب الحسبة * تجري عليه في
امتحانه بمثل هذه النسبة * الى ان تتعرف احواله * وما صار اليه مثاله *
واما فراستك في عدوك يا بني اعلم انه تكون فراستك في عدوك فراسة
واحدة * وان ابدا لك موانسة ومواصلة ومساعدة * فلتكن مقابلتك له بما
ذكرناه في السياسة * فان ذلك من وجوه الرياسة * يا بني اذا رايت
عدوك يهاديك * ويعاهدك بالحسنى ويواليك * وياخذ معك فيما يرضيك
ويقضي لك جميع مآربك * ولا يقصر في وجه من وجوه مطالبك * او
رايته أيضا يواليك باقبح الموالات * وينافرك في كل الحالات * فالفراسة
فيه واحدة * لا في المنافرة ولا في المساعدة * يا بني واذا بعث اليك
ارسالا برسم تهنية * او موالاة او تعزية * او استجلاب مودة تكون * او ما
يدعوا الى المهادنة والسكون * فاعلم يا بني انما بعثهم لاختبارك * ليعرف
الصحيح من اخبارك * وما تزايد عندك وظهر عليك * وما غاب عنهم
وحضر لديك * وعلى هذه الحالة جرت احوالنا مع اعدائنا * حين يصاولون
ويحلون باندائنا * انهم متى اظهروا لنا المصافات * وكتبوا الينا بالموالات *
فنتفرس في احوالهم * فنجد ذلك من احتيالهم * فيخرج الامر كما تفرسناه
وجدناه يا بني وكذلك نتفرس في كتبهم قبل وصولها * فنحكم قبل رويتها *
على فروعها واصولها * وكذلك نتفرس في ارسالهم قبل قدومهم علينا *
فتظهر احوالهم الينا * يا بني واما فراستك في ارسالك * المتوجهين من
قبلك الى الملوك امثالك * فينبغي لك يا بني اذا وجهت رسولا الى
ملك من الملوك ان تختاره من وجه قبيلتك * وخيار عشيرتك * ممن يليق
بالرسالة * ويتصف بالطهارة والجلالة * ولا يكون توجيهك اياه الا بعد
الاختبار * ليكون على وفق الاختيار * يا بني وليكن الرسول مشتملا على اربعة
اوصاف * ليس عنها من محيد ولا خلاف * الاول ان يكون قوي القلب
راجح العقل * الثاني ان يكون صادق القول * الثالث ان يكون حافظا على
دينه * الرابع ان يكون حافظا على الاسرار * كاتما لجميع الاخبار * ثم تتبع

هذه الاوصاف الاربعة الضرورية اربعة اوصاف تكملة احدها ان يكون
فصيح اللسان * حسن العبارة والبيان * الثاني ان يكون مليح الهيئة
والصورة * فيه محاسن مشهورة * الثالث ان يكون محبا في سلطانك * عاملا
على ما يوافق شانك * الرابع ان يكون قليل الطمع * متنزها عما في الايدي
تنزه الورع * يا بني اذا اجتمعت هذه الاوصاف في الرسول * يبلغ به في
الرسالة غاية السول * اعلم يا بني اذا وجهت من اجتمعت فيه هذه
الاوصاف على الكمال * ومن استقل بمحمود هذه الخصال * فتفرس فيه عند
قدومه عليك * ووصوله بعد اداء الرسالة اليك * بما نفسره لك ونبينه *
ونوضحه ونحسنه * فلا تخطيه الفراسة في الرسول اذا تمتحنه * اعلم
يا بني ان الملوك بالنسبة الى القوة والضعف والصداقة والعداوة على ثلاثة
اقسام * وعليها في الفراسة جري الاحكام * يا بني ان الملوك بالنسبة الى
المراسلة لا تخلوا حالك من ان ترسل الى احد الثلاثة المذكورين على
حسب ما تختلف به الحوادث * وتدعوه ضراير البواعث * اما ان ترسل
الى من هو اقوى منك * او الى من انت اقوى منه * او الى صديقك
يا بني اذا كنت ارسلت الى من هو اقوى منك * لامر حدث عنه او صدر
منك * فتفرس في رسولك اذا قدم عليك ءايبا * وقد قضى لك في الرسالة
مآربا * ووفى الغرض في الحاجة التي ارسلته بسببها * وتيسرت عليه
احوالها في حين طلبها * ثم جاء الرسول شاكرا منه * ومثنيا عليه لما
صدر عنه * فشكره له حسن لانه اقوى منك وقضى حاجتك * ووفى
لك مطلبك وارادتك * وبعد هذا فلا تخلي رسولك من الاختبار * حتى
تقف على الصحيح من الاخبار * ثم اسئله في خلوتك عن حال عدوك وما
يوتى من قبله وما التقى اليه العدو من المحاولة * وما قابله به في تلك
المراسلة * فان اخبرك بسيرة ومناقبه * ومصالحه ومثالبه * وحال انبساطه
وانقباضه * وارتفاعه وانخفاضه * وجلوسه وركوبه * وما يريد في خفي
مرغوبه * واحوال جيوشه وتصرفاته * ولم يخف عليك شيئا من حركاته
وسكناته * فذلك نعم الرسول * وخير من يبلغ به الامل والسول * وان

اقتصر على ذلك ولم تجد عنك إلّا مجرد الثنآء والشكر * والاطناب بجميل الذكر * فتدس له من يختبره في احواله * حتى تتعرف صدق مقاله * فان لم تجد عنك إلّا الثنآء في جانبه * غير ذاكر لاحواله ومثالبه * فتعلم انه اخرس لسانه بالعطآء * فلذلك اطنب عليه بالثنآء * فسئله حينئذ مهما اعطاه * وما قدر ما به حباه * فان اخفى عليك بعض العطية * فتفرس في كسوته وجهازه بالكلية * فان كانت كسوته رفيعة * فتعلم ان الاحسان اكثر مما ذكر لك وهو مخادع حين انكر الصنيعة * لان الاحسان يناسب اللباس * وتلك سيرة من ملك واساس * لان الملوك اذا تفضلت في الكسا والامتنان * ضاعفت التفضل في الاحسان * فان اعلمك بجميع ما ناله من الاحسان * وناسب الكسوة على ما قررناه الان * وانه اخبر انه اكرمه غاية الاكرام * وافاض عليه سوابغ الانعام * ولم يعرفك بسيره * ولا اتاك بشيء من خبره * فتعلم انه غير عارف بالرسالة * سالك في المحاولة سبيل الجهالة * ولم يحمله إلّا قلة عقله على الثنآء * وفضيان حاجته واستبشاره بالعطآء * بما ناله من جزيل النايل * وسابغ الفضايل * وان عدم ذكره لاحواله وسيره انما حمله على ذلك الجهل * وعدم المعرفة بالجمل والكل * فلا ترسل مثاله ولا تعتبره * ولا تشرفه بالرسالة ولا تكبره * فان الاوصاف المظنونة فيه قد اختلت * وصحته التي حمل عليها قد اعتلت * يا بني وان ارسلت رسولك الى من انت اقوى منه من الملوك واردت ان تتفرس في رسولك اذا قدم عليك * ووصل بعد ادآء الرسالة اليك * ويكون ذلك الملك ذا عقل راجح * ودهآء واضح * وراي سديد صالح * وتكون الحاجة التي عرضت لك عنك متوسطة الحال * لا غالبة المقدار ولا دون ذلك بحيث يقع بها الاحتبال في الارسال * فان قضى لك تلك الحاجة وبالغ في قضائها * وبادر الى تلافيها وامضائها * ثم قدم عليك رسولك غير شاكر منه * ذام له لما لم يصدر له انعام عنه * فتعلم انه بعكس ما ظننت فيه من عدم الطمع لكون الملك قضى حاجتك وذم رسولك على ما لا يعطيه * فتعلم انه طمع فيه * ولم يوف له طاعته * ولا نال

منه بغيته ولا ارادته * فتساله حينئذ عما اعطاه * وعن القدر الذي به حباه * فان اعطاه اعطاء امثاله * ووفى له بما يليق من حاله * فتعلم انه اراد خداعا * وان يذيع بعض الاسرار ايذاعا * فلا تطمئن له في حال * ولا تعتبره في مثال * لانه لم ينفصل عن العدو حتى اخذ معه العهد * وابرم فيما بينه وبينه العقد * على ما يوذعه من اسرارك * ويشيعه من اخبارك * فان كان العطآء اقل مما يليق بامثاله * فتعلم انه انما ذمه لقلة نواله * يا بني واذا اردت ان تختبر ما اعطى لرسولك في وجهته * فانظر الى ما يظهر عليه من كسوته * فان كانت الكسوة رفيعة * فالاحسان بحسب ذلك وقد اجزل صنيعه * وان كان العدو لم يقض لك تلك الحاجة التي ارسلت رسولك في طلبها * وشكره رسولك او سكت عن شكره ولم يذمه بسببها * فتعلم انه ما شكره الا لما اعطاه * او ما سكت عن ذمه الا لما يرجاه * وان رجاءه ان يعود اليه بالرسالة ثانية * وينال منه الجايزة الوافية * فان ذلك العدو اذا لم يسمع في جانبه منه الا خيرا * فلا ينال ان عاد اليه الا كرامة وبرا * فتعلم يا بني ان الخيانة في طبع الرسول * وانه ممن لا يبلغ به في المراسلة سول وانه على خلاف ما ظننته من الاوصاف المذكورة * وان احواله مذمومة مدحورة * فتسئله حينئذ عما اعطاه * فان اعطاه العطاء الجزيل وارضاه * فتعلم ان ما اخرس لسانه عن ذمه * مع عدم قضاء الحاجة التي تعد من وصمه * الا ذلك العطاء * ولا اسكته الا ذلك الحباء يا بني وان ارسلت الى صديقك من الملوك رسولا * لحاجة عرضت لك وكان الامر جليلا او قليلا * ثم قدم عليك رسولك الذي ارسلته * وادى الرسالة على نحو ما اوصيته * فان قضى تلك الحاجة فتلك سبيل الصداقة الموكدة * والموالات المجددة * فان ذمه الرسول فتعلم انه ما ذمه الا لعدم الفايدة * فان شكره فشكره لحسن الصداقة والعطية الزايدة * فان لم يقض لك ذلك الصديق حاجة * وظهر منه في قضائها محاجة * فتفرس فيه من كتابه * ومن فحوى خطابه * فان رايت كتابه خارجا عن المعتاد * وفيه ما لا يليق من عدم المراد * فتعلم ان ذلك من قبل الرسول الذي ارسلته * وانه

القى اليه امرا غير باطنه فلم يسعفد لما طلبته * فلذلك اغلظ القول في الكتاب *
وخرج عن العادة في الجواب * فعلى هذا تكون فراستك في ارسالك *
ا. دموا عليك من فبل الملوك امثالك * يـا بني واما فراستك في
ارسال الملوك الواردة عليك * القاصدين من بلادهم اليك * اما من قبـل
الاعداء * او من فبل الاولياء * فان كان من فبل الاولياء فلا اشكال *
ان ذلك موالات وافضال * وان كان من فبل عدوك فينبغي لـك ان
تتفرس فيهم تفرس النبلاء الاذكياء النجباء * فاذا اقبل رسول عدوك اليك *
ورايته طلق الوجه لديك * واسرع في مشيه مظهرا للمسرة * فتعلم انه يبدي
لك من كلام الخير ما اسره * ثم يفصح بحسن سلامه * ويظهر الادب بين
يديك في كلامه * ويقدمك في الشكر والثناء على سلطانه * ويظهر لـك
البشاشة في تبيانه * فاذا كان على هذه الحال فتفرس فيه باحد وجهين *
فان فراستك لا تخطيك من غيرمين * اما ان سلطانه ضعيف الملـك او
ضعيف العقل * فان كان ضعيف الملك فتفرس فيه باحد وجهيـن *
اما انه يطمع فيما يناله منك وذلك من خذلانه * او يطمع فيما يدفع بـه
المضرة عن سلطانه * فاذا رايته كذلك فاذن له بالجلوس في مجلسك * فانه
يظهر ما في باطنه لتانسك * فتزيد فراستك فيه يقينا * وتظهر لك احـواله
تبيينا * ويسر اهل مجلسك بما عنك من المسار * وتطلع انت على ما اكنه
من الاسرار * ثم تامره بالانزال عند خلاصتك * لتبين فيه غاية فراستك *
ويانيك بما اضمره من سره * وبما جاء به من خير الامور وشره * ثم تعلل
بالمطالب الكبار * وتهنيه بالفوايد الكثار * فان كتم عن خلاصتك امـر
سلطانه * ولم يطلعه على احواله وشانه * فتعلم انه رسول ناصح لمـولاه * ليس
له من طمع فيما سواه * ولا هو غادر لملكه * وانما راى الثناء عليك احسـن
مسلك سلكه * يا بني وتعلم ان ثناءه عليك لضعف سلطانه * وقلة ذات
يده وامكانه * وعلامة ذلك انه لم يستهله طمع * ولا في غرضه الا ما به ينتفع *
لاكن قدمك في الثناء على سلطانه لدفع مضرة يتقيها * واظهر لك البشاشة
والتودد ليحافظ على المحاسنة ويبقيها * فاعرض عليه حينئذ يا بني بعض مـا

تريد من الاشتراط * مما ترغب فيه وتحتاط غاية الاحتياط * وخذ معه في الامور التي لا يتفرعنها * ولا تاخذك عزة الانفة منها * ومما لا يعود عليه بوصم * ولا من سلطانه بذم * فان قبلها من اول وهلة * فتتحقق ضعف مملكة من ارسله * فلا تترك فيه فرصتك فانها قد امكنت * ومهابتك عند مرسله قد تمكنت * فان اردت المصالحة على وفق اختيارك * وان شئت القصد اليه بحماتك وانصارك * فان عدوك ضعيف * وهو منك على تخويف * واما الرسول فنعم الرسول * ولا لاحد فيه ما يقول * فان كان سلطانه قويا بالجيش والمال * والحماة والانصار والابطال * مع ما صدر من الرسول من البشاشة * والثناء والشكر والهشاشة * فتعلم ان سلطانه ضعيف العقل * لا يفرق بين الفرع والاصل * وعلامة ذلك ان رسوله لم يوف له حقا * ولا احسن فعلا ولا اجاد نطقا * بل اسقط حرمته * واساء خدمته * حين اخره في الذكر * وقدمك عليه في الثناء والشكر * واعلم يا بني ان الرسول الذي يتصف بهذه الصفة * فقد خرج عن طريق المعرفة * وانه ما صدر عنه ما صدر الا لما يرتجيه من المطامع * ولا قصد له الا في نيل المنافع * وتلك المنافع عايدة على سلطانه بالمضار * وجالبة عليه منا كد الحين والبوار وايضا انما كانت هشاشته لمكيدة * عرضت له في جنابك وكيدة * وقد اتفق لنا ذلك مع عمر بن عبد الله وزير ملك المغرب ابي سالم * حين ارسله الينا بالجد العازم * والعهد اللازم * ليتحيل بعض الحيل علينا * ويخادعنا بين ايدينا * فتفرسنا فيه المخادعة * لما اظهر من التذلل والمصانعة * ولما اظهر من البشاشة والتملق * والثناء علينا والهشاشة والتخلف * فعلمنا من ثنائه علينا * وتذلله لدينا * مع قوة سلطانه * ورفيع قدر مكانه * ان تذلله انما هو لمكيدة * او لمطمعة لينالها منا مفيدة * فانزلناه عند وزيرنا عبد الله بن مسلم * لما بينهما من تودد متقدم * وكانت رغبة عمر المذكور في ذلك * ليتوصل الى غرضه من هنالك * ثم امرنا وزيرنا باختباره * اذا اطلعه على اسراره * واستخراج ما عنده * لنعلم مراده وقصده * فوجدناه على ما تفرسنا فيه من المكيدة والطمع * والمحاولة والخدع * فلما

علمنا منه ذلك حاولناه واوعدناه * بما ارادة منا وتمناه * الى ان عادت مكيدته على سلطانه * فكانت سبب هلاكه وخراب اوطانه * اما المكيدة التي اتى بها * والمخادعة التي تسبب باسبابها * فامران احدهما انه اتى بمال يمد به اهل وهران * ويعينهم على التمادي على الطغيان * الثاني انه اتى الى وزيرنا ليخدعه * ويرده الى جانب سلطانه ويطمعه * وذلك لما تقدم بينهما من الوداد * وصفاء المودة والاعتقاد * وقد تفرسنا يا بني في وزيرنا انه لا يخدعه عمر المذكور * ولا يغتر منه بزخرف الغرور * من اجل محبته * وخلوص نيته * وصفاء طويته * وعلمنا من حزم وزيرنا انه يخدعه ويرد عليه مكيدته * ويحل عزيمته وعقيدته * ولذلك انزلناه عنك * واريناه بذلك بغيته وقصدك * وكنا يا بني ندخله الى خلوات مجالسنا * ونغره بمحادثتنا * ونمنيه بمواعدتنا * حتى استهلناه بكليته * واستخرجناه في طويته * وكان يتحيل بعقله انه يستخلص اسرارنا * ويطلع على اخبارنا * ونحن نكيده بوجوه المكايد * ونشيع ما جاء به من المقاصد * الى ان بلغ خبره لسلطانه * بما يزيد بذلك انخفاض مكانه * وابطانا به في الوداع ولم نودعه حتى علمنا ان سلطانه ساء به ظنا * وانه اذا وصل اليه لا يلقى منه سلامة ولا امنا * وانه غرس عنك ثمار الحقد * لسوء ما اتاه من القصد * ولما علم انه جنا كبيرة * ولم يحسن السيرة * اطلعنا على اسرار مولاه * واظهر لنا ما اسره واخفاه * اخذنا معه فيما يضر بسلطانه * ليخلص مما جناه من خذلانه * فاجاب الى ذلك ووافق عليه * وهجست نفسه بما ندب اليه * فكان من قيامه على سلطانه ما كان * الى ان ازال عنه الملك والسلطان * وغلق في وجهه ابواب فاس الجديد * ولقي منه اليم التنكيد * وكيفية ذلك ان عمر المذكور لما انفصل منا * ولم يقض وطرا مما تمنا * لا من صرف المال الذي جاء به الى وهران * ولا تاتى له من وزيرنا شيء مما اراد به من الخذلان * عاهدنا على ان يغدر سلطانه * وان يجلس اخاه مكانه * وان يطلق بني عبد الواد الذين في حكم الثقاف * وان تكون بعد ذلك مصاحبة ومصالحة ليس فيها خلاف * وعند ما وصل الى سلطانه ابي

سالم * وادى له رسالته على الواجب اللازم * اضمر ما عول عليه من غدره * واخذ بالمحاولة في مكره * وكان من قدر الله تعلى ان خرج من فاس الجديد ليسكن فاس القديم * لموجب انه في المصيف وضيم * فاقام به ما شاء الله ان يقيم * وعند ما انقضى زمن الخريف واراد الرجوع الى فاس الجديد وذلك باثر انصراف الوزير المذكور من حضرتنا غلق عمر المذكور في وجهه الابواب * واوقف اخاه ابا عمر بن ابي الحسن بذلك الباب * فخرج ابو سالم مبادرا لتلافيه * وقد جف ريق الحيلة من فيه * فاخذ في قتاله * فلم يقدر على حاله * فاسلمه قومه وفروا عنه * ونكروه حتى كانهم لم يكونوا منه * وفر بنفسه عند فرار جيشه * ولحق برمسه * فقتل منفردا وحيدا * ولم يجد نصيرا ولا عضيدا * فينبغي لك يا بني ان تتفرس في ارسال عدوك اذا قدموا عليك * ووصلوا بالرسالة اليك * فتسايسهم احسن مسايسة * وتمارس حالهم اجل ممارسة * وتخادعهم بالطف المخادعات * وتصانعهم بوجوه المصانعات * حتى يظهر لك الحبيب والنصيح * والباطل والصحيح * فتعامل كلا منهم بما يليق به * وتجري معه على ما تراه من مذهبه * يا بني فان كان الرسول وزيرا او ما يقاربه * فتكون فراستك فيه على نحو ما تنبين لك مناقبه * وان كان دون ذلك * فتجري على ما تراه من احوالك * وليكن نزول كل رسول عند امثاله من خدامك * ولتكرم كل واحد بما يليق به من اكرامك * وذلك سبب لاستخلاص الاخبار * واختبار ما يكنه من الاسرار * يا بني وان اقبل عليك رسول عدوك حين دخوله عليك منقبض الوجه * بطي المشي مظهر الكراهة في الزي والوجه * فتفرس فيه باحد وجهين * اما ان يكون ذلك من قبل الرسول المذكور * يريد بذلك غاية الظهور * وذلك من خبث طباعه * وسوء اصطناعه * فلنامره بالانزال عند من يختبر حاله * ممن يكون في الطبقة مثاله * بعد ان تاخذ الكتب الواصلة صحبته * وتتفرس فيها من عدوك رغبته * ومنها تستدل على حقيقة الحال * ولا تخفى عليك الحقيقة من المحال * فان كان ما لا يليق بك ولا يرضيك لا من خطاب ولا من جواب * فتعلم

ان الرسول من طبع المرسل والكتاب * فتحضره بعد ذلك بين يديك * وتخلي له مجلسك حتى لا يطلع احد عليك * ثم تخفي كتابه * ثم تعطيه بعد ذلك جوابه * وان كان في الكتاب ما يسرو يرضي * وبانواع المسرة يقضي * فتعلم ان الخباثة في طبع الرسول * اذا لم يكن في الكتاب الا معاني الامن والسول * فتنعم عليه بالاحسان * وتستميل قلبه بالامتنان * لان فعله ذلك سبب للانتفاع * وخباثة من جهة الاطماع * فاذا اخذ منك واعطيته * واكرمته ومنيته * دعته الخيانة الى افشاء سر سلطانه * لان احسانك اليه حمله على اختيانه * وهاكذا يا بني كنا نتفرس في الارسال * فنجدهم على ما تفرسنا فيهم من الصحة والاعتلال * واما الكتب الواردة عليك من قبل عدوك فتكون فراستك فيها على احد وجهين * الاول اذا كان عدوك اقوى منك * وقدرت على ان تصلح عنك * واتتك من قبله كتب واردة * فلتكن فراستك في عداوته فراسة واحدة * فاذا وجدتها بما يرضيك ويسرك * ويوافق غرضك ولا يضرك * فتفرس فيها * لتعلم من ظواهرها مخافيها * واعلم يا بني انه انما اراد مفاتنتك * واستعمال الحيلة في محاولتك * ونصب لك بكتبه شرك المكيدة * وبعث لك بما يرضيك وموالاتك له ليست عليه وكيدة * وعلامة ذلك انه من كان قويا في سلطانه * عزيزا في مكانه وامكانه * اكثر منك جيشا ومالا * واعظم مكنة وحالا * فانما بعث لك بالموالات * ودعا الى احسن الحالات * لكيلا تتحرز منه * ولا تاخذ حذرك مما يصدر عنه * فياتيك على حين غفلة * فيختلك على غيراهبة ختلة * فتحرز يا بني من هذه المكيدة * فانها من الخدع الشديدة * فتحيل عليه بادهى من حيلته * ولا يغرك بدخيلته * يا بني وان وجدت في كتابه كلاما يدل على الخير والغير فاحترز منه وليكن احترازك من الاول اشد لكون هذا كتب اليك بما يهددك تارة وبما ينبهك اخرى واعلم يا بني ان الاول ادهى من الثاني والثاني في عقله انزعاج وليس بمتواني * وعلامته انه جمع في كلامه بين النقيضين * الخير والغير وهما غير متلازمين * يا بني وان كان عدوك مساويا لك في الجيش والمال

والكفاية والدها والاحتيال * فهن كتابه تستدل على عقله * وما يريد من فعله * فان كتب لك تارة بما يرضي و يسر * وتارة بما يغيظ و يضر * فتعلم انه ناقص العقل لكونه مساويا لك فيما ذكرناه * معروفا بما قررناه * وذلك دليل على انزعاجه * وسوء سيء مزاجه * لانه يقبل حيث لا اقبال * ويدبر حيث لا ادبار * فاذا رايته بهذه المثابة فاحتل عليه ببعض المحاولات * فانه لا يعدل بك كل المعادلات * فانك اذا اخذت في امره * وحاولت على مكره * فانك تبلغ فيه اختيارك * وتدرك فيه ثارك * واعلم يا بني انه اذا كتب لك عدوك المساوي لك كتبا على اسلوب واحد * لا ترى فيها من ناقص ولا من زايد * ولا كتب لك الّا بما لا بد منه * في كل ما يصدر عنه * فتعلم انه وافر العقل * ءاخذ بشيم الفضل * لا يغضب الّا لامر يهمه * وحادث يكربه ويغمه * فهذا يا بني يجب ان تحتال عليه ببعض الحيل * لتبلغ منه غاية الامل * وتخادعه بضروب المخادعات * وتصانعه بوجوه المصانعات * كما قدمناه لك في باب السياسة يا بني فان كان العدو اضعف منك فمن كتابه ايضا تستدل على عقله وجميل سيرة وفضله * او على حماقته وجهله * فان كتب لك بالخير المرة بعد المرة * وما لا يقتضي الّا بالمهادنة والمسرة * فتعلم انه عاقل وفي تدبيره فاضل كامل * لكونه يواليك و يحاسنك * و يصافيك ويهادنك * ويعترف لك بالشفوف عليه فاسكن حالتك معه كما قدمناه في باب السياسة وان وجدته مع ضعفه يكتب لك بما لا يرضيك من كتبه * ويقرع سمعك بعتبه * فتستدل من ذلك على انزعاجه * وضعف عقله وسوء مزاجه * فاعمل الحيلة في طلبه * ولا تمهله فانك ستظفر به *

* تكملة الكتاب *

وقد وضعنا لك يا بني هذا الكتاب * وحررنا كلامه من لباب اللباب * وشرحنا فيه وصايا اخروية * وسياسة دنيوية * وجمعنا لك ما يصلح لك بين امور الدنيا والاخرة * والسعادة الباطنة والظاهرة * فاجعله منهاجك الذي تقتدي بمذهبه * وسراجك الذي تستضيء به * وبعد

حفظك لكتابنا هذا واتباعك للامور الشرعية * والسياسة الدنيوية * فتكون عمدتك كلها التوكل في جميع امورك على الله تعلى والتفويض له * ومن يتوكل على الله فهو حسبه ان الله بالغ امره * يا بني اخلص نيتك في الدعآء * ترج لك الاجابة من رب السمآء * واعلم ان الملك هبة الله يهبه لمن يشآء من عباده * وسر رباني بامره ومراده * قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشآء وتنزع الملك ممن تشآء وتعز من تشآء وتذل من تشآء * يا بني اخلص سريرتك مع الله تعلى واعلم انه يطلع على سريرتك * فحسن معه جميل سيرتك * وراجع في احوالك مع ربك بصيرتك فان الله مطلع على السراير * وعالم بما في الضماير * وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من اسر سريرة كساه الله رداءها يا بني واعلم انه كما لا تحب ان يعصيك خديمك فيما تامره به فكذلك لا ينبغي لك ان تعصي ربك فيما يامرك به يا بني اذا اختلف عليك امران امر يصلح بينك وبين خاصتك * وامر يصلح بينك وبين الله تعلى فاتبع ما يصلح بينك وبين الله عزوجل واعلم يا بني ان خير الزاد التقوى * والاخرة خير من الاولى * وشر معبود عبد في الدنيا الهوى * يا بني اجمل عدة تعتد بها * وزينة تتزين بها * اتباع الحق واجتناب الباطل * وصلة الارحام فالخير في المواصل * وتجنب مال الايتام * والتعفف عن الحرام * وارغب فيما عند الله وازهد عما في ايدي الناس فمن اتبع الحق * هابه الخلق * ومن اجتنب الباطل * امن من الافات العواطل * وصلة الارحام زيادة في الاعمار * وامان من البوار * واعلم يا بني ان من اكبر الكباير اكل اموال الايتام * واعظم الاوزار ارتكاب تهوين الاجترام * واعلم يا بني انه لا يبقى للانسان إلا الثنآء الحسن * والعمل الصالح الذي لا تخاف معه محن * وليكن اعتبارك بالامم الماضية * والقرون الخالية * فانه قد ذهبت اموالهم * وبقيت اعمالهم * يا بني اياك والغفلة * واستعمل الزاد للنقلة * فان الموت اقرب من نفسك اليك * ومن رد طرفك عليك * يا بني واعلم ان الناس يخوضون ويلعبون * حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون * فمن غرس خيرا اجتنى مسرة

وكرامة * ومن غرس شرا اجتنى مضرة وندامة * واعلم يا بني ان جوارحك شهود عليك * وهم منك واليك * وانفاسك محسوبة عليك * واعمالك راجعة اليك * فاجعل شهودك لك لا عليك * وقدم الاعمال الصالحة بين يديك * يا بني عليك بالصدق فان الصدق رفعة وديانة * والكذب مذلة وخيانة واهانة * يا بني اجعل عقلك اميرك * وصمتك وزيرك * والعدل جليسك * والحق انيسك * يا بني عليك بالجود والايثار * وخصوصا لعباد الله الاخيار * واكرام العلمآء والصالحين * والتحريرات للمرابطين * وشد معالم العلم * وعليك بالتقوى والحلم * واعتبر بقصة نظام الملك وزير البارسلان ذكر الطرطوشي انه كان بالعراق حين وزر نظام الملك خوجا لملك الترك ابي الفتح ابن البارسلان وكان قد وزر قبله لابيه فقام بدولتهما احسن قيام شد اركانها * وشيد بنيانها * واستمال الاعدآء * ووالى الاوليآء * واستعمل الكفاة وعم احسانه العدو والصديق * والقريب والحبيب والبعيد * القى الملك بجرانه * وذل الخلق لسلطانه * وكان الذي مهد له ذلك باذن الله تعلى وتوفيقه اياه انه اقبل بكليته على مراعات حملة الدين وبنا دور العلم للفقهآء وانشا المدارس للعلمآء واسس الرباطات للعباد * واهل الصلاح والفقرآء وللزهاد * ثم اجرى لهم الجرايات والكسا والنفقات مشاهرة * واجرى الخير والرزق على من كان من اهل الطلب والعام مضافا الى ارزاقهم المرتبة * وعم ذلك ساير اقطار مملكته فلم يكن من اوايل الشام وهي ببت المقدس الى ءاخر الشام الاعلى وهي ديار بكر والعراقين وخراسان واقطارها الى سمرقند من وراء نهر جيحون مسيرة زهاء ماتة يوم حامل علم او طالبه او متعبد او زاهد في زاوية بيته الّا وكرامته سامات له وسابغة عليه وكان الذي يخرج من بيوت امواله في هذه الاسباب ستمائة الف دينار في كل سنة فوشي به الوشاة الى ابي الفتح الملك واوغروا صدره عليه وقالوا له لو ان هذا المال المخرج من بيوت الاموال تقيم بها جيشا يركز رايته في سور القسطنطينية العظمى فخامر ذلك قلب ابي الفتح فلما دخل عليه وزيره نظام الملك قال له يا ابت

بلغني انك تخرج من بيوت الاموال كل سنة ستمائة الف دينار الى
من لا ينفعنا ولا يغني عنا فبكى نظام الملك وقال يا بني انا شيخ اعجمي
لو نودي علي فيمن يزيد لم ابلغ خمسة دنانير وانت غلام تركي لو نودي
عليك عساك تبلغ ثلاثين دينارا وانت مشتغل بلذاتك * ومنهمك في
شهواتك * واكثر ما تصعد الى الله معاصيك دون طاعاتك * وجيوشك الذين
تعدهم للنوايب اذا احتشدوا وكافحوا عنك بسيوف طولها ذراعان واقواس
لا ينتهي مرماها ثلاثمائة ذراع وهم مع ذلك مستغرقون في المعاصي والخمور *
والملاهي والمزامر والطنبور * وانما انا اقمت لك جيشا يسمى جيش الليل اذا
نامت جيوشك ليلا قامت جيوش الليل على اقدامهم صفوفا بين يدي ربهم
فارسلوا دموعهم واطلقوا بالدعاء السنتهم ومدوا الى الله تعلى اكفهم بالدعاء
لك ولجيوشك فانت وجيوشك في غفارتهم تعيشون وبدعائهم تثبتون *
وببركاتهم تمطرون وترزقون * تخرق سهامهم الى السماء السابعة بالدعاء
والتضرع الى الله تعلى فبكى ابو الفتح بكاء شديدا ثم قال شاباش يا ابت
شاباش اكثر لي من هذا الجيش ومن مناقب هذا الرجل وفضله ان
رجلا قصده يقال له ابو سعيد الصوفي فقال له يا خواجا انا ابني لك
مدرسة بمدينة السلام لا يكون بمعمور الارض مثلها يخلد بها ذكرك الى
يوم تقوم الساعة فقال افعل وكتب الى وكلائه ببغداد ان يمكنوه من الاموال
فابتاع بقعة على شاطي دجلة وخط بها المدرسة النظامية وبناها احسن
بنيان وكتب عليها اسم نظام الدولة وبنا حواليها اسواقا تكون محبسة
عليها وابتاع ضياعا وخانات وحمامات واوقف ذلك كله عليها وكملت
لنظام الملك بذلك رياسة وسودد وذكر جميل طبق الارض خبره وعم المشارق
والمغارب اثره وكان ذلك في عشر الخمسين والاربعمائة من الهجرة ثم رفع
حساب ذلك الى نظام الدولة فبلغ ما يقارب ستين الف دينار وان ساير
الاموال احتجنها ابو سعيد الصوفي لنفسه وخانك فيها فدعاه نظام الملك
الى الحساب الى اصبهان فلما احس ابو سعيد بذلك ارسل الى الخليفة
العباسي يقول له هل لك ان اطبق الارض بذكرك وانشر لك فخرا لا

تمحوه الايام قال وما هو قال امحوا اسم نظام الملك من هذه المدرسة واكتب
عليها اسمك وتزن المال ستين الف دينار فارسل اليه الخليفة وقال له ابعث
من يقبض المال فلما استوثق منه مضى الى اصبهان فقال له نظام الملك
اني دفعت لك نحو ستين الف دينار نفقة واحب اخراج الحساب *
فقال له ابو سعيد لا تطل الخطاب ان رضيت والا محوت اسمك. المكتوب
عليها وكتبت عليها اسم من يدفع المال ولا تبقى لك مزية ولا كتب اسم
عليها فلما احس نظام الملك بذلك قال له يا شيخ قد سوغنا لك جميع ذلك
كله ولا تمح اسمنا ثم ان ابا سعيد بنا بتلك الاموال الرباطات للصوفية
واشترى الضياع والخانات والبساتين واوقف جميع ذلك على الصوفية
فالصوفية الى وقتنا هذا في رباطات ابي سعيد الصوفي واوقافه يتقلبون
ببغداد واعلم يا بني ان افعال الخير كثيرة واسبابها لمن يسر عليه التوفيق
يسيرة * وافضلها اتخاذا * واحسنها ملاذا * وازكاها قربة * واسماها عند الله
يوم القيامة رتبة * الجهاد الذي هو ركن من اركان الدين * وفرض على
من ولاه امور المسلمين * وفي كل اقليم جهاد * ولله من خلقه جهاة
لدينه وانجاد * وفي الحديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا
تزال طايفة من امتي بالمغرب ظاهرين على الحق حتى ياتي امر
الله وفي رواية حتى تقوم الساعة وفي التفسير انهم اخواننا الاندلس الذين
هم بين بحر زاخر * وعدو كافر * فالنايم منهم على فراشه كالمجاهد في سبيل
الله فاذا كان اهلها بهذه المزية * ولهم عند الله هذه الرتبة السنية * فليكن
اهتمامك يا بني باهل الاندلس اكثر الاهتمام * واخذك في موالاتهم
ومعونتهم الاخذ التام * فتمدهم بما تستطيع عليه من الزرع والمال * والخيل
والحماة والابطال * والقوة التي امر الله تعلى نبيه عليه الصلاة والسلام ان
يستعد بها لعدوه * ليسكن بها من غلوه * وهي الرمي ورباط الخيل توثرهم
بذلك في كل سنة * ولا تغفل عليهم في يقظة ولا سنة * ولتحمل اهلها
القاصدين الى بلادك على البر والاكرام * والرعي والاحترام * وتيسر عليهم
اسباب ايساق الطعام * فان مسعاهم لاقامة اخوانهم المجاهدين * ومنحاهم

لما يقيم اود المسلمين المرابطين * ولا سيما تصرفهم في الميرة * واقتحامهم عليها كل مخافة عسيرة * يخوضون الى الاتيان بها في كافر * ويقاتلون عليها كل طاغية كافر * اذ الميرة قوام الاجسام * وحياة الانفس وحفظ هذا الانام * فانها اذا قلت اضعفت الاناسي واقلت الانعام * واعلم يا بني ان بلادك بحمد الله اكثر البلاد زرعا * واغزرها ضرعا * واخصب الاوطان * واحسنها اقليما في هذا الشان * فلتوثر الاندلس مما افاء الله عليك من مغانم النعم * وتجعل نوافلك لهم قبل من تعلق بك من العرب والعجم * فانك اذا فعلت ذلك كنت مجاهدا * ولحزب الله معاضدا * فتكثر البركات في بلادك * وفي جماتك واجنادك * وتتحفك منابر الاسلام دعاء تصلح الك به الامور * ويظهر لك من بركاته الظهور * ان شاء الله تعلى يا بني عليك باقامة شعاير الله عز وجل * وابتهل اليه في مواسم الخير وتوسل * واتبع اثارنا في القيام بليلة مولد النبي عليه السلام * واستعد لها بما تستطيع من الانفاق العام * واجعله سنة موكدة في كل عام * تواسي في تلك الليلة الفقراء * وتعطي الشعراء * وان ركبت فيك الغريزة الشعرية * وتحليت بالحلية الادبية * زدت جمالا الى جمالك * وكمالا الى كمالك * فانظم المولديات * واجر مع حلبة السابقين في الاديات * تحرز بذلك افضل المزيات * وهذا يا بني دابنا في كل عام * وسنتنا على الاستمرار والدوام * فمن بعض ما نظمناه في ذلك * وسلكنا فيه احسن المسالك * قولنا *

* الفت الضنا والفت النحيبا * وشب الاسى في فوادي لهيبا *
* وحق لنفسي اسى ان تذوبا * وللدمع من مقلتي ان يصوبا *
* فقد كنت بالوصل منكم قريبا * فاصبحت بالهجر اخشى الرقيبا *
* جفاني الحبيب فسر الحسود * وادنى البعيد واقصى القريبا *
* فياليت شعري هل عطفة * بوصل وعيش يكون خصيبا *
* فمالي على الهجر من قدرة * يذيب النفوس ويغشي القلوبا *
* وقفت رجاءي بكم فارجوا * وقوفي على بابكم مستريبا *
* فريد غريب انا بينكم * وحاشاكم تفردون الغريبا *

* ومالي ذنب سوى حبكم * وتالله عن حبكم لن اتوبا *
* فان تقتلوني حلالا لكم * انا ارتضي ما يرضي الحبيبا *
* وان تبعدوني على زلتي * فشيمتكم تغفرون الذنوبا *
* وان ترحموا صبكم * فظل رضاكم يغطي العيوبا *
* اسير هواكم قتيل نواكم * لعل رضاكم يكون قريبا *
* فوادي عليل وجسمي نحيل * وسقمي طويل قد اعيا الطبيبا *
* هجرت الهجوع نثرت الدموع * فسري اذيع وقلبي اذيبا *
* بكيت الرسوم رعيت النجوم * اداري الهموم معا والخطوبا *
* اعاتب نفسي على زلتي * فيزداد جسمي ضنا وشحوبا *
* مسيء الم بذنب اذم * واجمع لما اسا ان يتوبا *
* سالتك يا خالقي توبة * فما زلت للسائلين مجيبا *
* وانت رقيبي يوم الحساب * كفا بك يوم الحساب رقيبا *
* خشيت المعاصي بيوم القصاص * اذا ما النواصي تشيب مشيبا *
* فكم قد لهوت وكم قد سهوت * ولكن دعوت سميعا مجيبا *
* عليما بخطبي يفرج كربي * فما زال ربي يزيل الكروبا *
* مضى العمر يا حسرتي بالضلال * واشتعل الراس منه مشيبا *
* واضحى من الشوق جسمي مايلا * وامسى من الهجر قلبي كئيبا *
* احن الى الفجر عند الطلوع * وللشمس حين تروم الغروبا *
* اذا هبت الريح من طيبة * تعطرت الارض مسكا وطيبا *
* فاصبوا اليها ومن اجلها * احب الصبا واحب الجنوبا *
* تهب النواسم من ارضها * فيزداد نار اشتياقي لهيبا *
* حنينا وشوقا الى المصطفى * اثار الغليل واذكى الوجيبا *
* الى خير هاد هدى للرشاد * جميع العباد وجلى الخطوبا *
* اجل شفيع مكين رفيع * اتى في ربيع فاحيا القلوبا *
* فاكرم بشهر حوى كل فخر * بمولد بدر بدا لن يغيبا *
* كريم السجايا عظيم المزايا * جزيل العطايا جميلا وهوبا *

* فيا حادي العيس نحو الحمى * اذا جئت ذاك الجناب الرحيبا *
* وزاد الهوى حين زال النوى * وجئت اللوى واعتمدت الكثيبا *
* لقبر التهامي لبدر التهام * لخير الانام شفيعا حبيبا *
* فبلغ اليه سلامي عليه * فان لديه لسقمي طبيبا *
* وان جئت نجدا واعلامها * فسق ثراها بدمعي سكيبا *
* فقبر الرسول مناءي وسولي * عسى بالوصول ساحتي نصيبا *
* فيا سعد قوم حدوا كل يوم * وعن وضع نوم تجافوا جنوبا *
* حدوا بالنياق فزاد اشتياق * وسالت سواقي دموعي صبيبا *
* تسنى لهم قصدهم عند مسا * تسنم كل نجيب نحيبا *
* وزموا الحمولا واموا الرسولا * وجابوا السهولا نعم والشهوبا *
* سروا في الدجون ففاضت جفون * وقد خلفوني مشوقا كئيبا *
* فقلبي من الشوق في مشرق * وجسمي بالغرب اضحى غريبا *
* سقوني كئوسا تذيب النفوسا * ويرجوك موسى تزيل الكروبا *
* بحرمة احمد خير الورا * رجاءي وظني به لن يخيبا *
* نبي اتي رحمة للعباد * فمحى ومحص عنا الذنوبا *
* وسن الشريعة للمومنين * وسن على الكافرين الحروبا *
* بمولده اشرق الافق نورا * والبست الارض حسنا قشيبا *
* وكسرى تساقط ايوانه * وكاد من الرعب يلقى شعوبا *
* ونيران فارس قد اخمدت * واخمادها كان امرا عجيبا *
* وجفت موارد انهارهم * وقد اعقبت بعد ري نصوبا *
* وحن له الجذع مستانسا * وابدى اليه الاسى والنحيبا *
* وشق له البدر عند التمام * وكلمه الضبي يشكوا الخطوبا *
* وكم معجزات له اعجزت * جميع الورى شاعرا او خطيبا *
* عليه سلام بطول الدوام * وما اضحك الروض ثغرا قشيبا *

ومن ذلك قولنا *

* الحب اضعف جسمي فوق ماوجبا * والشوق رد خيالي بالسقام هبا *

* والبين اشعل نار الوجد في كبدي * والدمع يضرمها في القلب واعجبا *
* ماء ونار واكباد لها شعل * والقلب بينهما قد ذاب والتهبا *
* ضدان قد جمعا عونا على سهري * لاكن عذابي بها في الحب قد عذبا *
* ما كنت ادريهما حتى صحبتهما * كرها وقد يكره الانسان من صحبا *
* احداهما قاتلي داء اذا اجتمعا * وبعض خطبهما للصب قد صعبا *
* سهد وبعد واشواق تلازمني * وكلها لعذابي قد غدا سببا *
* اكابد الليل بالتسهيد مفتكرا * ولا ابالي به ان طال او قربا *
* ليلي نهاري ويومي كله فكر * والنوم عن مقلتي من بعدهم سلبا *
* وقد شغلت بقلبي كل مشتغل * وقد مزجت دما بالدمع منسكبا *
* وكلها لعذابي في الهوى سبب * ولم اجد لوصالي بالنوى سببا *
* اكفكف الدمع من عيني فيغمرها * كم بين من بات مسرورا ومنتحبا *
* من بعد ما كان دهر الانس يجمعنا * والسعد يسعدنا والوصل قد عذبا *
* ولا رقيب ولا واش بحضرتنا * واليوم بالبين حالت بيننا الرقبا *
* ما كنت بالوصل قبل اليوم مقتنعا * واليوم اقنع ان هبت نسيم صبا *
* كانوا وكنا وحكم الدهر فرقنا * وكم عسى يبلغ الانسان ما طلبا *
* وهكذا الدهر ما زالت عوائده * فلا تثق بزمان بان او قربا *
* يدني ويبعد في احكامه ابدا * هذا بذاك ولا عتب لمن عتبا *
* كم نفحة بعد قطع الياس نافحة * تهدي لنا عاطرا من ثغره شنبا *
* وكم اعلل قلبي بعد فرقتهم * ان التعلل للاحباب فيه نبا *
* وقد تعلمت من حبي لهم خببا * وخيل راحتنا تجري بنا خببا *
* ما للمحب دواء غير وصلهم * يبرى له السقم والتبريح والوصبا *
* وقد تقطع قلبي بعدهم قطعا * لما ناوا وقضوا في سيرهم اربا *
* سار الاحبة نحو الرقمتين ضحى * وخلفوني رهين القلب مكتئبا *
* سروا على البزل والحادي يجذبهم * والقلب مني الى ارض الحجاز صبا *
* هذي الاحبة قد شطوا مطيهم * واسرعوا بقباب الحب نحو قبا *
* ولا رضيت لنفسي غيرهم بدلا * ولا وجدت لقلبي دونهم طلبا *

* ولا سلوت ولا اسلوا لبعدهم * ان السلو عن المهجور قد صعبا *
* زموا الى زمزم والقلب يتبعهم * والصبر بعدهم عني لقد عزبا *
* وخلفوني بغرب مغرما بهم * اشكوا لهم وبهم من عبرتي عجبا *
* فقلت يا حاديا والركب يسمعني * رفقا على الصب يا حاديهم فابا *
* مزجت دمعي دما من بعد رحلتهم * فانظر ترى عجبا للدمع مختضبا *
* وكم سحبت دموعي في الهوى مرحا * وكم سفحت دموعي بعدهم سحبا *
* لا تنكروا حال قيس في محبته * ان الهوى لم يزل للحر منتسبا *
* ياحادي العيس قف بالله تخبرني * بيني وبينهم عهدا لقد قربا *
* في كل عام يسير الركب مرتحلا * وقد تقيدت عن فرضي الذي وجبا *
* لولا الخلافة شدتني قلايدها * لم اقتنع بخيال او بريح صبا *
* الا بجد السرى والسير نحو ربى * نجد وكاظمة اكرم بهن ربا *
* لو كان لي قدرة ما كنت اتركهم * حتى اموت بفرط الحب محتسبا *
* فليس يطفي لهيب الشوق من كبدي * الا بما زمزم يا سعد سن شربا *
* مني السلام على اهل الحطيم ومن * ام المقام وطاف البيت مرتقبا *
* من مذنب هايم في الغرب مسكنه * موسى ابن يوسف افنى عمره لعبا *
* لكنني ارتجي يوم الحساب غدا * شفاعة لشفيع جل ذا طلبا *
* نهوا الحبيب باقصى الشرق شوقني * والقلب من اجله في الركب قد نسبا *
* صلى عليه اله العرش خالقنا * ما غنت الطير في افنانها طربا *
* ثم السلام عليه دائما ابدا * ما اطلع الافق من انواره شهبا *

* وقولنا ايضا من قصيدة *

* فصرح بتذكار العقيق وحاجر * لان بها يشفى غليل اللواعج *
* وقل لسليمى لست اسلوا بحبها * وان طريق الغي لست بناهج *
* وان برقت من ارض نجد بوارق * تذكرني عهد الهوى والهوادج *
* وان جئت ارضا بالحجاز عرفتها * فسق ثراها بالدموع المـوارج *
* وقض مناسك الحجاز باسرها * وزر زورة تقضي جميع الحوايج *
* وشد القوى من منن ضامرة الحشى * لخير شفيع خصه ذو المعارج *

* نبي كريم جآء بالرشد والهدى * الى كل قلب في الضلالة ما رج *
* جلى بالهدى والرشد كل ضلالة * ومحى بدين الله دين الخوا رج *
* بد انهد ايوان لكسرى واخمدت * لفارس تلك النار ذات الوهـا يج *
* واشرقت الانوار من نور احمد * فمنه استفاد الكون كل المبا هج *
* فبدر الدجى والانجم الزهر كلها * وشمس الضحى من نوره المتبا لج *
* رسول اتى بالمعجزات فلم تدع * براهينها من حجة للمحا جج *
* له ءاية في الغارجين استتاره * عن اعينهم بالعنكبوت النوا سج *
* ولله من قلب له غير نائم * وجسم الى السبع السماوات عا رج *
* ومن نهر مآء قد جرى من بنانه * وبحر عطآء بالندى متموا وج *
* اجل نبي في الخلايق شافع * وللجود بذال وللكرب فا رج *
* وما الرسل إلّا تحت ظل لوائه * وكلهم عن جاهه غير خا رج *
* وسيلتنا لله حب نبينا * بصدق قلوب للقبول محا وج *
* لقد شغلتني عن حلاكم قلايد * شغلت بها عن قطع تلك المعا رج *
* سلام كريم من محب متيم * بحبك مشغوف بذكرك لا هج *
* سلام من المشتاق موسى بن يوسف * مقيم باقصى الغرب سدت نوا هج *
* على المصطفى والال والصحب كلهم * والانصار طرا اوسها والخزا رج *

* وقلنا ايضا *

* خليلي قدبان الحبيب الذي صدا * وقد عاقني صبري فلم استطع ردا *
* وسالت دموعي فوق خدي هواملا * وقد صيرت فوق الخدود لها خدا *
* واصفر لوني بعد حسن شبيبتي * وابيض راسي بعد ما كان مسودا *
* وقد مر عمري في لعل وفي عسى * تواصلني لبنا وتهجرني سعدا *
* وتزري بي الدنيا بزور غرورها * وكم نقضت عهدا وكم نثرت عقدا *
* وهذا نذير الشيب لاح بمفرقي * يذكرني خوفا وينجزلي وعدا *
* هويت من الدنيا زخارفها التي * بشرط هواها لا اطيق لها ردا *
* شغفت بها دهرا ولم ادر ما مضى * وقد بدلت من بعد قرب لها بعدا *
* تشاغلني الدنيا ونفسي والهوى * وتبعدني من بعد ما اظهرت ودا *

* ولست بسال عن هواها كانني * اشابه بشرا في محبته هندا *
* لبانندهري قد نقضت وقد مضت * وجيش شبابي بالمشيب لقد قدا *
* ويا ليت شعري بالزمان الذي مضى * ايرجع مرالعيش من بعله شهدا *
* وتغفر اوزاري وتمحى جرائمي * وحصر ذنوب لا اطيق لها عدا *
* انا المسرف الجاني انا المذنب الذي * اشاهد باب العفو بالذنب قدسدا *
* لقد حق لي ابكي على فرط زلتي * واسكب دمعا كالعقيق على الخدا *
* اذا ذرفت عيناي زاد تفكري * وتعظم افكاري ووجدي او اجدا *
* اعاتب نفسي في زمان بطالتي * وقلبي على كسب المئاثم قد حدا *
* وجيش شبابي قد مضى بسبيله * وجيش مشيبي قد تقدم لي وفدا *
* وحالي بين الحالتين كما ترى * تطمعني شوقا وتقتلني صدا *
* الاهي هب لي منك عفوا ورحمة * فما زلت يا مولاي تبلغني القصدا *
* وعبدك موسى لم يزل فيك راجيا * ومن شيم المولى بان يرحم العبدا *
* توسلت بالمختار من ءال هاشم * اجرني من النار التي اضرمت وقدا *
* نبي اتى والكفر باد ضلاله * فاهدى الهدى للخلق يا حسن ما اهدا *
* هو الرحمة الهادي المشفع في غد * هو المصطفى المختار يلهمنا الرشدا *
* هو الذخر للهول الشديد اذا اتى * ومن ذا سواه للمخاوف اذا اشتدا *
* الا يا ربيع الخير لا زلت رائقا * فقد جئت بالرحمى وخولتنا سعدا *
* لك المجد صل وافخر على الحول كله * فانت لنا عيد نوفي لك العهدا *
* اتيت بمن لم تات انثى بمثله * ابر بميثاق وازكاهم مجدا *
* واعظم عند الله جاها ورفعة * واندى الورى كفا اذا سيلوا رفدا *
* عليه سلام طيب النشر عاطر * يفوق برياه الرياحين والرندا *
* سلام مشوق في بلاد بعيدة * يموت ويحيي من صبابته وجدا *

يا بني ففي مثل هذه المناقب فليتنافس المتنافسون * وبمثلها فليعمل العاملون * فان فيها عز الدنيا وشرف الاخرة * وحسن الصيت وخلود الذكر * فاذا لم نجد شيئا يبقا على الدهر إلّا الذكر حسنا كان او قبيحا * لان الدنيا احدوثة فكن خير حديث يبقى * قال الشاعر *

* ولا شيء يدوم فكن حديثـا * جميل الذكر في الدنيا حديث *
فانتهز الفرصة في العمل * ومساعدة الدنيا ونفوذ الامر في القول والعمل *
وقدم لنفسك كما قدموا * وادخر كما ادخروا * تذكر كما ذكروا يــا بني
واعلم الدنيا ساعة * فاجعلها طاعة * كما قــال الشاعر *

* اذا كنت اعلم علما يقينـا * بـان جميع حيـاتي كساعة *
* فلم لا اكون ضنينا بهـا * واجعلها في صلاح وطـاعة *

فاعمل يا بني بوصيتي تسعد * واحفظها ترشد * والله يوصل اسباب السعادة اليك * وهو سبحانه وتعلى الخليفة عليك * فالجا في امورك كلهـا اليه * وتوكل في احوالك عليه * فهو حسبنا ونعم الوكيل ونعم المولى ونعم النصير * ولا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظـــيم *

الحمد لله يقــول المتوكل على فضل مولاه في الماضي والاتي * عبده محمد البشير التواتي * قد صحح اول هذا الكتاب المسمى بواسطة السلوك في سياسة الملوك الاجل الفاضل النحرير الكامل الناظم الناثر ابو الثناء الشيخ محمود قبادو قاضي باردو المعمور في التاريخ ولما اشتغل الشيخ المذكور بالخطة الشرعية صحح اخره العبد الفقير فجاء بعون الله ازهاره متبسمة * واطيار افنانه مترنمة * مجلات عرايس معانيه على منصة الفاظه المشرقة * موشحة بالزينة والحلل المرونقة * سينات سوالفها تحكي اليل البهيم * وثاءات ثغرها تزري بالدر النظيم * والفات قدودها تفوق غصن البان * ونونات حواجبها مقوسة للطعان * راشقة عيون عيونها لصاحب الانصاف * فاعلة معه ما لا تفعله السلاف * مشيرة كافات اكفها لرد الســـلام * مفترة ميمات ثغرها في افتتاح الكلام والختـــــام *

قد نجز طبع هذا التمثيل والنقش البدع الجليل بمطبعة الدولة التونسية

بحاضرتها المحمية في رابع ثاني الربيعين سنة تسعة وسبعين بعد المايتين

* ولالف من هجرة من لا يفي بفضله *

* الوصف صلى الله عليه وسلم وعلى *

* آله الاعلام واصحابه *

* بدور التمام *

* بحمد ربي واهب العطايا * قد انتهى واسطة السلوك *

* فقال حال الطبع ارخوه * لقد بدا سياسة الملوك *

١٢٧ ١٠١١ ٠٠٠٧ ١٣٤

١٢٧٩





* طبع بمطبعة الدولة التونسية بحاضرتها المحمية سنة ١٢٧٩ *

4104/GIA